يوسف السباعى

السقا مات !

(والصابرين فى الباساء والضراء وحين الباس
اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) .
« قرآن كريم »

يطلب من :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى الفجالة

الإهــــــداء

إلى عمى العزيز :

طــه السباعى باشــا

أهدى كتابى هذا .

لا لأنه — بفضل اللقب — صاحب معالى .. أو صاحب سعادة ..

(فانى لا أدرى كيف يستطيع اللقب البشرى أن يشارك الله سلطته فى منح المعالى أو السعادة . ! ولا أدرى كيف يمكن أن يفضل انسان على غيره لأنه صاحب سعادة !) .

ولكنى أهديه له لأنه — بفضل الله — صاحب نظافة .. نظافة فى الذهن ، واليد ، والقلم ، واللسان .

انى أهديه له .. رغم أنه سياسى .. وباشا .. و « حماى » .

يوسف السباعى

كتبت هذا الإهداء إلى « طه السباعى » قبل أن تلغى الثورة الألقاب ، وقد زال عنه اللقب الذى لم أقم له فى إهدائى وزنا . ولم يبق له إلا ما رأيته يستحق الاعتبار ، انه لم يصبح « صاحب سعادة » ولكنه ما زال كما وصفته صاحب نظافة .. فى قلبه وفى خلقه وفى عمله .

مقدمة

التقيت ذات يوم بالأستاذ « احمد بك عباس » كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانبانى ان الوزارة كانت توشك أن تقرر بعض كتبى لمدارسها ، لولا ان اللجنة المختصة رأت ان الكتب تحوى بعض عبارات بالعامية تتنافى مع الغرض الذى قررت من أجله الكتب .

ورغم انه لم يدر بخلدى أن اكتب كتبى بحيث لا تتنسافى مع مطالب وزارة المعارف ، بل رغم أن ذكر وزارة المعارف لم يطف بذهنى قط وانا اكتب هذه الكتب ، إلا اننى احسست بشىء من الخيبة وانا اسمع قول استاذنا الفاضل ، إذ كان يسرنى ويرضى غرورى ولا شك ان أجد الوزارة تقرر بعض هذه الكتب .

وعلى هذا فلم اكد ابدأ هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعــارف ومطالبها التى تترفع عن اللغة العامية ، وعزمت ان أقيم سياجا منيعا يحول دون تسرب الألفاظ العامية التى تأبى إلا ان تفرض نفسها فرضا فى سياق الحديث . وأخذت فى الكتابة محاولا اجراء الحوار بين ابطال القصة باللغة الفصحى ، ولكنى لم اكد أكتب بضع صفحات ، ولم اكد « أحمى » فى الكتابة .. حتى وجدت ابطال القصة ينطقون على الرغم منى فى الحديث باللغة العامية .

وحاولت عبثا ايقافهم عند حدهم .. وردهم عن غيهم .. وتهديدهم بأن وزارة المعارف الفصيحة .. لن تقرر الكتاب فى مدارسها وانهم سيسقطون الكتاب بهذا اللغو العامى ، والهذر اللا فصيح .

ولكني أخفقت في محاولتي ولم أستطع إلا التسليم .. قائلا لنفسي : إني أكتب للعامة أكثر مما أكتب للخاصة من الفصحاء والبلغاء .. وأن هؤلاء العامة في أشد الحاجة إلى زاد من الأدب الذي يفهمونه .. والكتابة التي يسيغونها .. أكثر من أولئك الخاصـــة الذين لديهم تراث من الفصاحة والبلاغة يفيض عن حاجتهم .

ومع ذلك فإني أجد هؤلاء الخاصة أكثر إساغة لأدبنا الطبيعي غير المتكلف .. أذكر أنه عقب قراءتي لقصـــة « زقاق المدق » للأســـتاذ « نجيب محفوظ » وإعجابي بها .. أن أعطيتها لعمي « طه السباعي باشا » وهو من أبلغ الأدباء ، وعندما انتهى منها سألته عن رأيه فيها فأجابني بأنها من أبدع ما قرأ ، ولا يعيبها إلا أن الحوار جرى باللغة الفصحى .. ولو كان باللغة العامية لبلغت منتهى الروعة .

وإني لأذكر أيضا أن حوار « عودة الروح » وهي أروع ما كتب « توفيق الحكيم » يجري باللغة العامية ، رغم أن كاتبنا الكبير قد ترفع بعد ذلك عن اللغة العامية وأخذ يجري حواره باللغة الفصحى ، أو على الأصح ، بأبسط درجات اللغة الفصحى التي تكاد تقارب العامية .

ولست أشك أننا في فترة صراع بين العامية والفصحى ، وأن الكتاب في هذا الجيل حائرون بينهما ، ولا أدل على ذلك من إخراج الأستاذ « محمود تيمور » إحدى رواياته في ثوبين : ثوب فصيح وآخر عامي .

وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع .. بين الفصحى والعامية .. ولا جدال هناك في أن الغلبة — في الحوار — للعامية ، لأنه من المستثقل المجوج أن نحاول انطاق أشخاص القصة باللغة الفصيحة .. وهم لا يمكنهم في حياتهم الطبيعية أن ينطقوا بها .

على أية حال لا يراد بمقدمتي هذه اعتذار ولا تبرير .. فالكاتب يجب أن تنطلق أفكاره محررة من كل قيد ، والألفاظ في اللغة توابع

للاسلوب والافكار .. ومن الخير ، ونحن نهدف إلى ان يكون ادبنا القومي ادبا عالميا الا نجعل من اللغة قيدا يثقل قدرتنا على التعبير الصادق غير متكلف .

ان هدف الكاتب ، أو الفنان بصفة عامة ، هو الوصول إلى اغوار النفوس ونقل مشاعره إليها .. والفنان الناجح هو موقظ الاحاسيس .. محرك المشاعر .. مهما كانت وسيلته ، وأيا كان اسلوبه .

وكل ما ارجوه ان اكون قد حققت بكتابتي هدف الفنان .

والسلام عليكم ورحمة الله .

الفصل الأول

سارق الجوافة

حدثت هذه القصة حوالى عام ١٩٢١ فى حى الحسينية وما زال مسرح حوادثها قائما كما هو ، وقد تكون كف السنين بدلت وجهه بالفناء والهدم ، والبناء والتنظيم .. إلا ان الكثير من علاماته المميزة ما زالت قائمة على حالها لم يخن عليها الدهر ، ولم يبدلها الزمن .

واشهر هذه العلامات واشدها ارتباطا بقصتنا صنبور المياه الحكومى ، القائم فى إحدى زوايا درب السماكين ، امام كشك صغير تربع فيه « سيد الدنك » .. المانح المانع ، الآمر الناهى فى مياه الحى ، الحاكم بأمره فى صف طويل عريض من النسوة ذوات الصفائح ، والرجال ذوى القرب .

وكم أود لو وضعت القارىء فى مسرح القصة وجعلته يتجول فى ازقته وحواريه ، ويراها رأى العين .. ولكنى اشك كثيرا فى أن قارىء هذا الجيل يستطيع الوصول بسهولة إلى هذه الربوع القديمة التى دالت دولتها وادبر عزها وعفى جمالها وزال سؤددها ، واضحت قصورها أطلالا بالية ودمنا عافية .. ومع ذلك فليس أحب إلى من التطوع بقيادته إلى هنالك واصطحابه فى جولة قصيرة سريعة ، تعطى له مجرد فكرة سطحية عابرة عن المكان ، الذى أوشك أن ازج به إليه ، واضعه فيه ، خلال فترة قراءته لهذه القصة .

نبدا من شارع فاروق فى منتصف المسافة بين ميدان فاروق وميدان

العتبة (هذا الميدان قد توالت عليه أسماء عدة .. ويبدو لى أن من الخير أن أسميه باسمه القديم خشية أن تبدل اسمه الجديد باسم آخر ما بين كتابتي هذه القصة وظهورها) حيث يقاطع الشارع الكبير شارع ضيق يسير فيه الأتوبيس الذاهب إلى بيت القاضى ، وهو شارع البغالة .

لنجعل وجهتنا إلى العتبة ، ثم ندلف يسارا فى شارع البغالة ونسير فى الطريق الضيق المزدحم .. المليء بحوانيت البقالة والنجارين ، وبائعى القباقيب ، والصرماتية ، والعطارين .. ولنكافح فى شق طريقنا .. بين عربات الكارو ، والحمير ، وعربات اليد ، وباعة العرقسوس .. ولنتجاوز الدروب المقاطعة ، ومنها درب البزازرة ، ودرب عجوز .. ولنتجاوز كذلك المسجدين القائمين على يسارنا .. وبذلك نكون قد قطعنا شارع البنهاوى ، ووصلنا إلى الساحة الممتدة الفسيحة المترامية على مدى البصر ، فنجد على يميننا « باب الفتوح » وهو أحد أبواب قاهرة المعز ، القائم فى سمك وضخامة ، وقد علته الأتربة ، وبدا عليه البلى والقدم ، وترامى حوله بقايا برسيم وروث بهائم ، وحشد من الغادين والرائحين ، والصبية اللاهين العابثين .. والباب يؤدى إلى وكالة الليمون والزيتون ، وإلى الطريق المفضى إلى النحاسين وبيت القاضى وسيدنا الحسين .

أما فى الواجهة فتمتد الساحة حتى تنتهى بمقابر باب النصر التى يخترقها شارع رئيسى يسمى شارع النجوم ، وهو مفض فى النهاية إلى شارع العباسية ، وقلم المرور ، وتحدد الساحة فى الميسرة بشارع مرتفع يحده جرف مبطن بالطوب ، وهو شارع القصاصين وينتهى بضريح صغير منعزل هو ضريح « ابن هشام » حيث أزيل ما حوله من قبور لتوسيع الساحة وبقى هو قائما وحده ليدل على سخف الأحياء فى التفريق بين قيم الأموات الذين سواهم الله فى باطن الأرض .

لندع الساحة ، وباب الفتوح ، وباب النصر جانبا .. ولندلف يسارنا فى أول درب يقابلنا فى الساحة ، درب قد كتب عليه لافتة

To: www.al-mostafa.com

تجيء باسمه ، وهو « درب السماكين » ، وهو الدرب الموازي لشارع الحسينية ، الذي يليه مباشرة على يسار الساحة .

الدرب طريق عادي ، من طرق الأحياء الشعبية القديمة بضيقه وقذارته ، وبحوانيته القائمة على جنباته ودوره البالية العتيقة المتربة الجدران ، العالية الأبواب ، المتقاربة النوافذ حيث يد الساكن تكاد تمسك من خلالها بيد جاره .

وأرض الطريق قد كسيت بكتل البازلت المربعة المقلقلة التي جعلت الطريق أكثر وعورة مما لو ترك على حاله .. وأكوام القمامات قد تراكمت على جوانبه ، تحيط بها المياه القذرة الآسنة .

كل هذه المظاهر يتشارك فيها درب السماكين مع درب عجور ، ودرب البهلوان ، ودرب اسمه ايه ، وبقية دروب القاهرة النظيفة المحترمة .. ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لدرب السماكين مجموعة من الظواهر المميزة والعلامات البارزة ، التي تميزه عن بقية الدروب .

أول هذه الظواهر — كما سبق القول — حنفية المياه القائمة على يمين الداخل بعد مسيرة بضع خطوات من مدخل الدرب ؛ والحنفية بكشكها وساحبها .. تحتل زاوية داخله في مباني الطريق ، بحيث تكون الزاوية شبه ساحة صغيرة يحتشد فيها طلاب المياه .

فاذا عبرنا الحنفية وجدنا سورا مهدما يخفي ربوة خربة ، متربة مليئة بالقمامات والصفائح القديمة ، وفي ركن من الربوة تربعت بضع قدور سود للفول المدمس وبجوارها وقف نفر لا تقل ملابسهم وجلودهم سوادا عن قدر الفول .

ذلك هو « مستوقد الحسينية » القائم في ظهره « حمام الحسينية » الذي شيد مدخله في شارع الحسينية الموازي لدرب السماكين .

ويلي المستوقد بضع دور عتيقة وحوانيت ومدرسة أولية .. تقوم على أزقة قصيرة مغلقة ، متفرعة من الدرب الأصلي كأنها نتوءات شبيهة بحرف U .

فإذا دلفنا في السير داخل الدرب صادفنا على اليسار منزل شامخ البناء ، متين الجدران ، ذو باب ضخم مصفح بالحديد ، قد انفرج عن مدخل عالى السقف .. ضيق المساحة ، وبدأ في ركن منه كوم أسود ، يصعب تمييزه لأول وهلة في ظلمة المدخل .. ويخيل للانسان في بادىء الأمر ، انه منضدة « عتقى » وادواته .. ولكن بامعان النظر يتضح انها افران « بطاطة » قديمة قد وضعها الحداد المواجه للمنزل في مدخل المنزل ، حتى لا يزدحم بها حانوته .

لنعبر المدخل وندلف من الباب القائم على يمينه والمفضى إلى فناء متسع خرب .. مليء بأكوام الحجارة والأتربة .

ومن الفناء يبدو لنا المنزل وما جاوره خرابا في خراب وقفرا في قفر ، ويلفت نظرنا مئذنة عالية ، تنبىء عن مسجد يجاور المنزل ، اما المنزل نفسه ، فهو مثل لعزيز قوم ذل .

إن الجدر الشامخة المتينة قد تشققت ، حتى لتوشك ان تتقوض اركانها ، والنوافذ قد تهاوت مصاريعها ، وفاضت من حناياها ظلمة كئيبة كأنما هي نوافذ كهف خرب .. والشرفة المتسعة في الطابق الاول على يسار الداخل قد تآكل مسلمها الرخامي واحاطت به اكوام من صناديق خشبية فارغة قد اعدت لرص الكتب الصفراء التي صفت على حافة الشرفة .. والتي اخذ الحمالون في اخراجها من داخل المنزل .

اجل ! ان ما بقى صالحا للسكنى من المنزل الشامخ الضخم قد استؤجر كمخزن للكتب ، وبذا حفظ المنزل إلى حد ما من المذلة والاهانة .. واستبقى له اثرا من طيب اصله .. وسابق مجده .

وقد يلقانا صاحب مخزن الكتب بالترحيب ، وقد لا يلقانا اصلا .. ولن يضيرنا ذلك .. فليس بنا كثير حاجة إليه .. ان الذى يهمنا فعلا هو ذلك الصبي « السقا » الذى حمل القربة على ظهره واخذ يصب مياهها حول شجرة « تمر حنة » عالية مورقة .. هي كل ما تبقى من اثر الحديقة البائدة .. التي كانت تشغل الفناء .

هذا هو مسرح القصة كما يبدو الآن .. خرب مقفر .. محطم

مهدم .. ليس به من سمات مجد باد ، ومظاهر عز غبر ، غير بقايا باهتة نلقاها هنا وهناك .

ثمة شيء واحد .. نستطيع أن نجزم بأنه لم يتغير ، وأنه على حاله كما كان منذ ثلاثين عاما .. ذلك هو الصبي « السقا » والشجرة المورقة .

لنرقب الصبي مليا وهو يميل بجذعه الأعلى ويفتح فوهة « القربة » فتندفع منها المياه إلى حفرة تحيط بجذع الشجرة ، وسرعان ما تغيض المياه في باطن الأرض لتمتصها الجذور ، فتزداد الشجرة ايناعا وخضرة .

لنثبت أعيننا جيدا على الصبي والشجرة .. على الشيء النضر الوحيد بين خراب بلقع ، والأثر اليانع الباقي في رسوم حائلة .

لنمعن فيه البصر .. ولنغمض أعيننا عن كل ما سواه .. ولنعد بأذهاننا القهقرى فنعبر بها ثلاثين عاما في زمن غبر ثم نتوقف بها ونمشي الهوينى .

الصبي والشجرة .. كما هما .. حتى لكأننا لم ننتقل من يومنا قيد شعره ، ولم نخض في ربوع الماضي قيد خطوة .

ولكن ما حولهما قد تبدل ، فصار عجبا .

ثلاثون عاما إلى الوراء قد بدلت المكان تبديلا تاما .. فجعلت قفره نضرة ، وخرابه ازدهارا ، وقدمه جدة ، وموته حياة .

إننا لم نعد في مخزن الكتب .. فالمكان قد عاد إلى سابق مجده وقديم عزه ، وأصبح كما كان .. قصر « ابراهيم بك جاد الكريم » .. أو كما كان أهل الحي يطلقون عليه « السراية الكبيرة » .

نحن الآن في عام ١٩٢١ في أوائل شهر سبتمبر .. والوقت ما زال مبكرا وضوء النهار لم يستتب له الأمر ، وفلول الليل تتسابق إلى الفرار من جحافل الشرق المحتجبة وراء الأفق .

والصباح ندي رطيب ، والسحب متناثرة في السماء كأنها أكوام القطن المندوف ، و « درب السماكين » صامت ساكن لا أثر فيه للحياة إلا في المستوقد والجامع ، و « السراية الكبيرة » قد خيم عليها الصمت

وقام جدارها الحجرى الضخم ، وبابها الخشبى السميك البنى اللون المصفح بالنحاس قد انفرجت ضلفتاه عن « عم جاب الله » الحارس الأسود وقد قبع فوق سجادة الصلاة وانهمك فى التسبيح والتمتمة وقد أغمض عينيه وبدت عليه أقصى آيات الخشوع والإيمان .

فإذا تجاوزنا الردهة المظلمة العالية القبة القائمة وراء الباب والتى قبع فيها « جاب الله » يؤدى فرائض دينه .. واتجهنا يمينا أفضى بنا باب صغير إلى الحديقة المتسعة المترامية الأطراف .

والحديقة فى هذه الوقت من السنة تعتبر فى قمة مجدها وفى أوج انتاجها .. فهى — كمعظم حدائق القصور فى ذلك الحين — حديقة فاكهة أكثر منها حديقة زينة .. فالعين لا تقع فيها على ساحات منبسطة من الحشائش وأحواض الزهور ، إذ تتكاثف الأشجار المثمرة فى كل نواحيها ، يتخللها هنا وهناك أنواع من الشجيرات ذات الزهور العطرة كشجيرات الورد ، والفل ، والياسمين البلدى ، والياسمين الهندى ، مما يجعل نسمات الخريف تهب عطرة كأنفاس الأحبة .

وأبرز الظواهر فى الحديقة تكعيبة الكرم الممتدة بحذاء السور والتى تكون مربعا ذا ضلع ناقص يتممه بناء القصر ؛ والظاهرة الثانية هى حوض رخامى متسع ملىء بالمياه يتوسط المربع ، وحول الحوض تناثرت أشجار الفاكهة من خوخ ورمان وبرتقوق ومشمش وجوافة ومانجة ؛ عدا النخيل القائم فى الأطراف و « التوتة » التى تظل المدخل .

والحديقة فى مجموعها أشبه بالأحراش الطبيعية المتكاثفة الأوراق الشديدة الخضرة وقد تكون يد التنسيق والتشذيب قصرت عنها ، ولكن يد الطبيعة عوضتها خيرا فدفعت فيها من قوتها نضرة عجيبة فتشابكت غصونها ، وأينعت ثمارها وتفتحت أكمامها ، وتفجرت براعمها من قوة العصارة وفرط النمو .

وكانت مياه الحوض الرخامى قد أوشكت أن تفيض بعد ان بدا تصريفها فى أول الليل فى قنوات تسقى الحديقة وكان يسمع لصوت تدفقها من الحوض وانسيابها فى القنوات خرير خافت لطيف .

والندى قد كسا الشجر وتلالأت قطراته على الورود الحمر المتناثرة أوراقها على الارض وفى القنوات ، وعلى جدار الشرفة ودرجاتها الرخامية البيضاء .

والقصر مغرق فى السكون لا يسمع منه صوت ولا حركة ، وقد اغلق بابه ونوافذه إلا واحدة تستنشق نسيم الصباح غفا صاحبها عن اغلاقها فى آخر الليل .

وهكذا بدا المكان كله فى إغفاءة إلا من الحارس الذى يؤدى الصلاة ، والصبى « السقا » .

كان الصبى ــ سيد الدنك ــ يؤدى عمله اليومى الذى كلفه به أبوه منذ بضعة أسابيع .. عندما قرر اخـراجه من الكتـاب وتعليمه « الصنعة » ، وكان هذا الواجب اليومى الذى يؤديه « كسقا » مستقل هو حمل القربة الصغيرة إلى حديقة السراية وسقى شجرة « التمرحنة » التى كانت مغروسـة فى ربوة مرتفعة لا تبلغها مياه القنوات المتسربة من الحوض .

ووقف « سيد » يصب مياه القربة فى الحفرة المستديرة حول الشجرة الصغيرة ، وبدا الصبى فى عملية الصب ماهرا حاذقا ، رغم حداثة عهده بها ورغم صغر سنه التى لم تتجاوز التاسعة .

كان الصـبى نمـوذجا متقنا مصغرا لسـقا ، وقد وقف بجسده النحيل الأسمر .. محنى الهامة واضعا القربة الصغيرة فوق ظهره وقد ارتدى السطيح (١) الجلدى الذى صنعه له أبوه من سطيح قديم له .

وقف « سيد » مرتديا السطيح حاملا القربة على ظهره ، وقد

---

(١) جاكتة جلدية بلا اكمام ، او على الأصح ، صديرى جلدى يرتديه « السقا » فوق جلبابه ليقيه البلل ، وتشد القربة عليه بسيور جلدية تسمى الحمالات .

أمسك بيمناه فوهتها المائلة إلى أسفل ، وانثنى بجذعه قليلا مصوبا الفوهة تجاه الحفرة وترك المياه تتدفق حتى أفرغت القربة ما فى جوفها وامتلأت الحفرة بالمياه وفاضت .

وقد يشعر الإنسان بالرثاء والعطف وهو يبصر بالصبى الضئيل النحيل فى مثل هذه اللحظة المبكرة من النهار وعبيد الله ما زالوا فى مضاجعهم يغطون فى النوم ، وهو يحمل القربة تكاد تنقض ظهره ، ويبدو كأنما قد حمل من العبء ما لا طاقة له به .

ولكنه لا يكاد يطالع وجهه حتى يبصر به علامات حبور وغبطة تؤكد أن الصبى هانىء سعيد ، وأنه قرير بعمله لا يشعر منه ثقلا ولا ضرا .

وقف « سيد » وقد أفرغ « القربة » فتهدلت فارغة على ظهره ، وبدا وجهه أسمر دقيق التقاطيع ، حلو القسمات ، وأخذ ينفض بيده قطرات الماء التى بللت كمه وذيل جلبابه وتلفت حوله بنظرة فاحصة وجرى بصره بالنوافذ فلم يجد بها عينا ترقبه ، ثم هبط إلى مدخل الحديقة فلمح « عم جاب الله » ما زال قابعا على سجادته منهمكا فى صلاته .

واطمأن « سيد » إلى انعدام الرقابة فسار فى خفة إلى شجرة جوافة مثقلة بالثمار الصفراء الممتلئة ، وكان فى أسفل الشجرة من الثمار الناضجة المتساقطة ما يكفى لاشباعه .. ولكنه كان يكره الغنيمة السهلة ، فسرعان ما خلع القربة والسطيح وقفز ممسكا بأحد الفروع المنخفضة ، ثانيا جذعه السفلى ، مبدلا قدميه على جذع الشجرة ، صاعدا عليها كالقردة وأخذ ينتقل من فرع إلى فرع حتى استقر على فرع محمل بالثمار ، ولاحت له فى نهاية الفرع ثمرة تكاد تكون أكبر ما حملته الشجرة فصمم على أخذها ، وبدأ تسلقه على الجذع رويدا رويدا ، فلم يكد يصل إلى حافته ويمسك بالثمرة حتى تهاوى الجذع تحت ثقله وهوى به إلى أسفل .

لم يهو « سيد » إلى الارض .. فقد حال بينه وبين الوصول إلى الأرض سد قام بينهما هو جسد « عم جاب الله » الذى بلغ مسامعه

صوت تسلق الشجرة وخشخشة الاوراق ، فقام ليحقق شكوكه فى الشقى الصغير الذى تعود سرقة الثمار يوما بعد يوم .

وفوجىء « جاب الله » بالصبى يهوى بالفرع على راسه ، فضج بالصراخ والسباب ، ولم يكد يتمالك نفسه ليقبض على الصبى الساقط ، حتى كان قد تناول القربة والسطيح وانطلق هاربا يعدو خارج الدار .

انطلق « سيد الدنك » يعدو بالقربة والسطيح ، ووراءه « جاب الله » الاسود .. يهرول بجلبابه الابيض وعمامته ، ولم يكد يصل إلى الباب الخارجي حتى توقف مبهوتا فقد وجد اباه « المعلم شوشة الدنك » يقف على الباب بعربته المحملة بالقرب .

وصاح به أبوه فى دهشة :

— ما بالك ؟

وتلفت « سيد » خلفه ، فلم يجد « جاب الله » قد وصل بعد فأجاب :

— لا شىء .. لقد انتهيت من سقيا الشجرة .

— ولم تهرول هكذا عاريا ؟ ان السقا الاصيل لا يخلع السطيح والقربة ويحملهما هكذا فى يديه .. السقا لا يخلع حلته ابدا .. ولو سار بدونهما فإنه يصبح كالعسكرى الذى يحمل بذلته على كتفه .. هل رأيت عسكريا يفعل ذلك ؟

وكان « سيد » ما زال يتلفت خلفه فى ذعر وهو يدعو الله ان يحجز « جاب الله » داخل الحديقة ، وأجاب على سؤال ابيه بقوله :

— لا ...

— إذا فلم تخلع عنك بذلتك الآن ؟

وقبل ان يجيب كان « جاب الله » قد وصل .. وهو يجدف بساقيه الطويلتين الشبيهتين بالمجاديف .

وكان سبابه و « برطمته » يسبقانه ، وبعد لأى وطول سباب ، عرف المعلم « شوشة » ما كان من أمر ابنه .

واستمر « جاب الله » فى شكواه :

ـــ كل يوم مثل هذا .. يتسلق الشجر ، ويكسر الفروع ويتسلف الحديقة :

ـــ لا تغضب يا عم جاب الله .. سأعلمه كيف يتأدب في بيوت الناس .. انه لم يعد صغيرا .

ونظر إلى ابنه نظرة وعيد واردف مهددا :

ـــ وإذا كان يصر على أن يبقى صغيرا .. سأعيده إلى الكتاب . ان الخطأ خطئى . لقد ظننته قد أضحى رجلا ، واردت ان أعلمه الصنعة منذ الآن . ارتد السطيح وساعدنى في دفع العربة أيها الأحمق .

وارتدى « سيد » السطيح ، ثم أخذ في دفع العربة مع أبيه إلى داخل الحديقة وسارا بها في ممر بين الأشجار حتى وصلت إلى الحوض الرخامى فحمل الرجل القرب وأفرغها الواحدة بعد الأخرى داخل الحوض بعد أن سد البالوعة التى تفرغ المياه في القنوات .. وأخيرا امتلأ الحوض وأفرغت القرب .

وأدار المعلم « شوشة » العربة ودفعها إلى الشارع وحيا « عم جاب الله » مودعا :

ـــ لا مؤاخذة يا عم جاب الله .. لن يعود الولد لمثلها مرة أخرى .. سأحضر الدور الآخر في الضحا إن شاء الله .

وعاد « المعلم شوشة » إلى الحنفية مرة أخرى ليعيد ملء القرب .. وسار « سيد » بجواره ، وهو ينظر إليه من آن لآخر نظرة فاحصة محاولا أن يستشف بها دخيلة نفسه .

أتراه حقا غاضبا عليه ؟ .. أمن أجل جوافة أو جوافتين يغضب عليه ؟ .. لا .. لا .. انه لا شك يدعى الغضب كعادته .. وهو كذلك لن يعيده إلى الكتاب .

الكتاب .. لعنة الله عليه وعلى أهله أجمعين .. انه لن يطيق الذهاب إليه والرسف في أغلاله بعد أن تذوق حلاوة الحرية والانطلاق .

لقد علمه أبوه الصنعة ووضعه في مصاف الرجال ، وهو لن يتنازل عن مركزه بحال من الأحوال .. كانت القربة تثقل عليه في أول الأمر ..

اما الآن فقد تعود حملها ، ولم تعد تثقل على ظهره .. حقيقة انه يستيقظ مبكرا كل يوم ، ولكن الكتاب ايضا كان يضطره إلى مثل هذا التبكير ، فارق بين تبكير وتبكير ، فيما مضى كان تبكير إلى السجن ، اما الآن فتبكر إلى الحرية . انه يرتدي السطيح ويحمل القربة الفارغة ويتجه مع ابيه إلى الحنفية ، فلا يكاد يملأ القربة حتى ينطلق بها إلى السراية ، وانطلاقه وحيدا في مثل هذا الوقت المبكر كان حلما طالما داعب نفسه .

إن الجوافة والبلح ، وتكعيبة العنب ، كلها قد أضحت تحت أمره ، كان فيما مضى يتطلع إليها وهو واقف بجوار أبيه يرقبها خلال ملء الحوض وبنفسه الف حسرة .. كان « عم جاب الله » يعطف عليه احيانا ببعض « السقط » ، ولكن « سيد » لم يكن ممن يرضون بالحسنة .. ويقنعون بالسقط .. بل كانت بنفسه لهفة على أن يشب على التكعيبة ويقفز فوق شجرة الجوافة ويتسلق النخلة .. تلك كانت أمنيته التي طالما تاق إليها .

ولقد حققها الله له أخيرا عندما قرر أبوه ذات يوم ان يخرجه من الكتاب ، وأن يبدأ تدريبه العملي باصطحابه معه في جولاته السابقة التي يوزع خلالها المياه على دور درب السماكين .. ومنعطفاته .. ثم بدأ بعد ذلك يوكل إليه بعض الأعمال المستقلة .. كان اولها واهمها سقيا شجرة التمرحنة في السراية الكبيرة .

ولم يحاول ان يسأل عن السر في إسناد هذه العملية بالذات إليه ، بل حمد الله في سره .. ولم يحاول أن يبدي اغتباطا ظاهرا ، خشية ان يفضح أبوه أمره ويكشف نواياه .

واليوم — وقد فضحه عم جاب الله — لا يدري ماذا يخبىء له القدر .

على اية حال لا يظن القدر يخبىء له خيرا ، فأقل ما يجزيه به أبوه — إن لم يعده إلى الكتاب — هو أن يحرمه من سقيا التمرحنة ، وبالتالي من دخول الحديقة وحيدا .

لعن الله الطمع .. لقد أخرجت آدم من الجنة تفاحة ، وأخرجته هو من حديقة السراية .. جوافاية .

ووصلت العربة المحملة بالقرب الفارغة إلى الحنفية ، وصاح « شوشة » بالمعلم « علي دنجل » .. المتربع في كشكه وراء الحنفية :

ــ الدور الثاني يا معلم .

ــ اصبر قليلا حتى املأ هذه الصفائح .

وكانت بضع نساء قد وقفن أمام الحنفية يحملن الصفائح الفارغة متوازنة على قمة رءوسهن دون أن تسندها يد .

ووقف « شوشة » يرقب المعلم « علي » وهو يملأ الصفائح الواحدة بعد الأخرى ، وطافت برأسه بضعة خواطر ما لبث أن أجاب عليها بقوله « الحمد لله » .

أجل !! الحمد لله على كل حال .. لقد كان هذا المقعد وراء الحنفية أولى به هو .. لا .. « علي دنجل » الذي لم يحمل في حياته قربة ولم يملأ زيرا .. انه لا يعرف عن صنعة السقايين ، أكثر مما يعرف هو عن القراءة والكتابة .. ولكنها حظوظ وقسم .. لقد أمضى حياته كلها « مطيباتي » يصفق بيديه ويهلل بحنجرته ، أن له في الزفف والأفراح ماضيا مجيدا ، فهو يجيد برم الشوارب ، وعوج اللاسة ، والرقص على الوحدة إذا ما استدعى الأمر ذلك ، ومع ذلك فلم يكد يخلو مقعد الحنفية من صاحبه « المعلم برعي » بعد موته حتى عينت الشركة « دنجل » مكانه ، وهو لا يعرف السطيح من القربة ، ولكنها الواسطة التي تذلل كل صعب ، والتي تجعل المطيباتي يستوى على عرش السقايين ، وتترك الوريث الشرعي يتجول بالقرب في الحواري والأزقة والدروب .

واستعدل « دنجل » اللاسة على رأسه ، وبرم بأصابعه شاربه ، وصاح بصوت متهلل ، وهو يصفق بيديه :

ــ يا صباح الفل .

والتفت « شوشة » ليرى صاحبة التحية ، ثم هز رأسه وتمتم لنفسه :

ـــ طبعا .. انها « عزيزة نوفل » لقد أضاع الرجل كرامة المهنة ، وغلب عليه طبع المطيباتى .. بمجرد أن رأى المرأة الرجراجة المتثنية .. إن لعابه يكاد يسيل ؛ وهو يملأ لها الصفيحة .. ويكاد يخترق بعينيه ثوبها المغلق على صدرها البارز المكتنز .

أهكذا يكون تصرف شيخ السقايين ؟ ! يجب أن يكون أثبت من ذلك وأكثر رزانة .. إن أمامه حشدا من النسوة والرجال ، ممن لا يخفى عليهم أمر « عزيزة » وسمعتها وسيرتها .. انه سيسىء إلى السقايين ويشين سمعتهم .. ولكن لا .. إن « دنجل » لن يكون سقا .. أبدا .. فهو دخيل على المهنة .. ولا كل من جلس أمام الحنفية سقا .. « ولا كل من ركب الحصان خيال » .

واخيرا انتهى ملء الصفائح ، وحل دور « شوشة » فى الملء ، فتقدم إلى الحنفية فى عبوس ، واخذ يملأ قربه .. الواحدة تلو الاخرى ، حتى انتهى منها جميعا دون أن ينبس ببنت شفة .

وتقدم « سيد » بعد ذلك وملأ قربته الصغيرة . وصاح « شوشة » ، وهو يدفع العربة أمامه ، وقد سار ابنه بجواره حاملا قربته :

ـــ تمانيه وواحده صغيره .. الدور التانى .

وتحرك ركب المياه و « سيد » لا يفتأ يرقب وجه أبيه العابس بين آونة واخرى .

لولا هذا العبوس والصمت لما كان هناك أب مثله ، ولكن حتى مع هذا العبوس والصمت يراه خير أب .. بل خير إنسان .. لشد ما يعجب به ويحترمه ويحبه .. وأكثر ما يقوى هذه المشاعر فى نفسه إحساسه بأنها مشاعر متبادلة وبأن أباه أيضا يعجب به ويحبه ويحترمه .

أجل ! انه لا يعامله كما يعامل آباء الحارة أبناءهم .. فهو لا يسبه ولا يضربه ، ولكنه يبين له الخطأ من الصواب ، ويشرح له ما خفى عنه وينصحه ويرشده ، فإذا ما أخطأ .. وهو غالبا ما يخطىء .. لأن الخطأ دائما أحب وأسهل من الصواب ، لامه فى رفق ، فإذا كرره ، وهو غالبا

ما يكرره ، زجره في شدة .. فإذا لم يزدجر أوقع عليه عقابا نفسانيا .. كان يخاصمه أو يحرمه من بعض مزايا الرجولة التي كان يمنحها له .. ولم يكن أقسى على نفسه من هذين العقابين .

وتوقفت العربة أمام الدار الأولى .. دار « أم عبد الله » القائمة في مواجهة احدى الأزقة المسدودة التي يمتلىء بها الدرب .. وتقدم « شوشة » إلى الباب الخشبي المغلق فدق « سقاطته » الحديدية بضع دقات متوالية .. وبعد برهة سمع صوتا نسائيا من وراء الشبكة الخشبية لنافذة سفلية تجاور الباب ، يصيح بلهجة ممدودة منغمة :

— مين ؟

وأجاب « شوشة » بصوته الأجش :

— السقا .

وعاد الصوت يصيح :

— يا واد يا عبد الله .. افتح لعمك شوشة .

وفتح الباب صبي صغير يناهز عمره عمر « سيد » ولم يكد يبصر « سيد » وهو يتقدم أباه بالقربة حتى هتف به مرحبا :

— ازيك يا سيد .. تلعب بلى ؟

وأجاب « سيد » في لهجة الرجل الجاد :

— بلى .. اصطبح وقول يا صبح .. وسع الطريق .

وتقدم « سيد » يعبر الفناء المظلم الصغير ، وصعد بضع درجات ، ثم دلف من باب على يمين الداخل ولمح « أم عبد الله » جالسة على شلتة وأمامها « كنكة القهوة فوق وابور السبرتو » فحياها بنفس اللهجة الرزينة .. محاولا جهده أن يخشن من صوته :

— صباح الخير يا خالتي « أم عبد الله » .

— صباح الخير يا خويه .

وتبعه صوت أبيه متلا بنفس اللهجة :

— صباح الخير يا خالتي « أم عبد الله » .

ـــ خير عليك « يا معلمْ شوشه » .. عايزه قربه زياده فرغها في طشت الغسيل ، واملا الصفيحه كمان .

واتجه « شوشة » يسارا في صمت ، وتلف من باب المطبخ وعبر الدهليز المظلم المفضى إلى الحمام .. وبحماسة التوجيه .. ـــ إذ كان النظر متعذرا تماما ـــ أخذ في ملء الأزيار والصفائح والطشت وغيرها من مستودعات المياه الخالية .

ووضع « سيد » قربته في أول شبت صادفه ، ثم استدار إلى الخارج ، وفي الفناء لقى « عبد الله » مرة أخرى .

وعاد « عبد الله » يسأله في إصرار :

ـــ تلعب ىلى ؟

ـــ العب .

ـــ امتى ؟

ـــ بعد التشطيب .

ـــ يعنى بعد الضهر ؟

ـــ ايوه !

ـــ طيب .. اكون انا جيت من الكتاب .

ـــ نتقابل فين ؟

ـــ عند السبيل .

وكان ابوه قد انتهى من تفريغ القربة ، فتبعه إلى الخارج وسار يدفع معه العربة إلى بقية الدور .

وانتهى الدور الثانى ، ولم يعد « شوشة » بعده إلى الحنفية ليملأ الدور الثالث ، بل اتجه إلى نهاية الدرب ، ثم دلف يمينه وأوقف العربة بجوار الرصيف بعد بضع خطوات ودخل دكانا وضعت على واجهته لافتة كبيرة .. كتب عليها « فول الأمرا » .

كان مدخل الدكان قد سد معظمه بمنضدة طويلة .. وضع عليها قدر نحاسي أحمر لامع ، وفي أسفله دروة صفراء سوداء ، حجبت وابور

الغاز الذي أخذ يئز بشدة ، ومن فوهة القدر تصاعد بخار أبيض .. ووراء المنضدة وقف « عم سلامة » بكبشته ذات اليد الخشبية الطويلة .. وهو لا يكف لحظة عن الدندنة .. وبجوار القدر قد وضعت قصعتان ، بإحداهما سلطة قوطة ، وبالأخرى سلطة لبن ، وبجوارهما صينية نحاسية صفراء فرشت بعروق البقدونس ورصت فوقها الطعمية الساخنة ، وأمام المنضدة وخارج الحانوت وضع قفص رصت عليه الأرغفة .

وراء « عم سلامة » وقف « زكي الحدق » صبيه ، وقد أخذ يدفع بيده أسطوانة وابور الغاز الكبير المتصلة بالوابور بأنبوبة رفيعة .. طويلة ، وفوق الوابور استقرت طاسة كبيرة مليئة بالزيت ، قد طفت فوقه أقراص الطعمية .

وقلب « زكي » الأقراص ، ثم رفع الناضج منها فوضعه في مصفاة من الصاج بأسفلها طبق لتلقي الزيت المتساقط من أقراص الطعمية ، وبين آونة وأخرى يتلفت « عم سلامة » لينقل محتويات المصفاة إلى الصينية التي أمامه المفروشة بالبقدونس .

وبجوار « زكي » من الداخل وقف « حريشة » يجهز المواد الأولية ويخرط البصل والكرات فوق الفول المنقوع مع بقايا العيش المكسر ، ثم يصب الخليط في الجرن الحجري المثبت في أحد الأركان ويرفع القائم الحديدي فيدفعه في جوف الجرن ، ثم يأخذ في طحن الخليط .. محركا اليد في جوف الجرن بحركة دائرية طاحنا الخليط بين حديد اليد وحجر الجرن .

هذا هو « مطعم الأمرا » وتلك هي محتويات مطعم الأمرا .. عدا بضع مناضد خشبية تناثرت داخل الدكان جلس عليها .. جزء من الأمرا لتنسهم .. أما الجزء الآخر فقد ضاق به المكان فتربع في الهواء الطلق على حجر الرصيف .

و « عم سلامة » قد سبق الأمريكان في ابتكار طريقة « ساعد نفسك » فليس لديه جرسون يقوم بالخدمة ، بل هو يلزم زبائنه من الأمرا بالتوجه

إلى صينية متسعة رصت عليها الاطباق فيأخذ كل منهم ما يلزمه منها ويتقدم إلى « سلامة » فينقده الثمن ويأخذ منه ما يريد ويحمل طعامه إلى المنضدة او على قارعة الطريق ، فإذا ما انتهى من الاكل كان عليه ان يتقدم إلى الحوض ليغسل الأطباق ويضعها مكانها قبل ان ينصرف .

ووزع « شوشة » التحيات يمينا ويسارا على الجالسين ، وكان جلهم معرفة واصدقاء .. فعلى باب الدكان كان يستقر « محمود مسطرين البنا » الذى كان يابى الجلوس على المناضد لاعتقاده أن « عم سلامة » يضع رسم جلوس عليها يخصم جزء من الفول ، فهو لا يشك أن كمية الفول المغروفة لزبائن الرصيف أكثر من تلك المغروفة لزبائن المنضدة ولذا فقد طلق المنضدة ثلاثا .

وبجواره .. على الرصيف ايضا .. يجلس « حسين القرداتى » ومعه سلامة (القرد) وزكية (المعزة) وكان دخول الدكان محرما عليهم اتقاء ما يثيرونه من مشاكل بين الزبائن لا سيما وانه لم يكن هناك كثير استلطاف بين « سلامة القرد » و « سلامة الرجل » ، وقد حاول « عم سلامة » كثيرا ان يقنع « حسين » بتغيير اسم قرده منعا للاهانات التى تحدث له نتيجة الخلط بين الاسمين ، ولكن « حسين » لم يقتنع بتاتا ، وقال له فى دهش : انه لا يستطيع ان يتصور كيف يكون (قرده) أى شىء غير « سلامة » ، وان خيرا له إذا كان متضررا من تشابه الأسماء أن يغير اسمه هو . !

وفى داخل الدكان كان يجلس « على الحمى المبيض » و « محمود الخشت الجزار » و « زكى زين الخضرى » وثلة اخرى من جيران « شوشة » فى درب عجور .

وتقدم كل من « شوشة » و « سيد » فأخذ طبقا واتجه به إلى « عم سلامة » ، ودون ان ينبس « شوشة » ببنت شفة ملأ له « سلامة » طبقه فولا ، ثم رش عليه بعض الزيت من احدى الزجاجات الموضوعة بجواره ، وغرف له فوق الفول بعضا من « سلطة القوطة » ووضع

له نصف ليمونة ثم سلمه الطبق فعاد به إلى منضدته بعد أن تناول رغيفا وجلس يأكل بطريقته العبوس الصامتة .

وجاء دور « سيد » ، وقبل أن يمد يده بالطبق صاح بعم سلامة :

— الفول كويس ؟

— ورد .

— مستوى !

— زبده .

— طيب هات طعميه .

ويبدأ « عم سلامة » في عد الطعمية ، ولكن « سيد » يراجع نفسه بعد لحظة ويصيح بالرجل :

— والا اقول لك . . هات فول .

ويعيد الرجل الطعمية إلى الصينية في صبر وأناة ، ويبدأ في غرف الفول ، ثم يهم بوضع الزيت عندما يصيح به « سيد » :

— لا . . زيت حار وحياة أبوك .

— عينيه يا معلم سيد .

ويشعر « سيد » بكثير من الفخر وهو يسمع الرجل يناديه « بمعلم » ويشد السطيح الجلد على جسده ويصلح حمالات القربة الفارغة .

فإذا ما انتهى « سلامة » من وضع الزيت وهم بوضع سلطة القوطة صاح « سيد » :

— لا . . سلطة لبن أنا ما احبش سلطة القوطة .

— أمرك .

ويضع « سلامة » سلطة اللبن وهو يذكر أن الشقي الصغير قال له بالأمس وهو يهم بوضع سلطة اللبن عكس ما قال اليوم وأنها مسألة إمارة لا أقل ولا أكثر .

وبعد أن وضع له السلطة ونصف الليمونة أمسك « سيد » بالطبق والرغيف وهمس بصوت أقل تواضعا :

— اديني طعمايه بقى .

وضحك « عم سلامة » وتناوله « الطعمياية » فدفع بها في فمه واكلها قبل ان يراه أبوه .. لقد كان يعلم جيداً ان اباه لا يقـر هذه الطريقة ، ولكنه يحب الطعمية ويحب الفول ، وهو يرى ان اباه دائما يختار صنفا واحدا من هذه الاصناف ، ويكره أن يكلفه اكثر مما يحتمل .

ويذهب « سيد » للأكل ، ويواصل « سلامة » عمله وهو يترنح طربا بين آونة وأخرى بجسده السمين الأبيض ، وشاربه الكثيف المتهدل على شفتيه وعينيه المنبعجتين « المبكرة » وأجفانه المسبلة ، والفوطة البيضاء الملوثة بماء الفول والزيت والطماطم مرسلة على صدره وبطنه ، والطاقية البيضاء غاطسة حتى أذنيه .

وانتهى « شوشة » وابنه من الاكل وغسل كل منهما يديه وطبقه واعاده إلى موضعه على صينية الأطباق ، وقبل أن يغادر الدكان صاح « سيد » في صوت الرجال مخاطبا « حريشة » و « زكي الحدق » صبي « عم سلامة » :

ـــ عنكم يا رجالة !

واجابه الصبيان في صوت واحد :

ـــ عشت يابو السيد .

ثم عاد يهمس في صوت خافت لا يسمعه سواهما :

ـــ النهارده بعد الضهر عند السبيل .

وسأله « حريشة » وهو يدير اليد في الجرن :

ـــ فيه إيه ؟

واجاب سيد باختصار :

ـــ بلى .

واعترض « زكي » وهو مستمر في قلي الطعمية :

ـــ مافيش معايه ولا بليه .

ـــ أسلفك .

واسرع يلحق ابيه خارج الدكان وهو يصيح :

ـــ سلامه . . أمك في المش والا طارت ؟

واحمر وجه « عم سلامة » السمين الأبيض وبدا عليه الغضب ، والتفت « شوشة » إلى ابنه ناهرا ؛ ولكن « سيد » هز كتفيه وأردف يقول في غير اكتراث :

ـــ قصدي . . سلامه القرد .

وضحك « حسين » القرداتي وقرع الرق في مرح ومجون ، ونظر إلى « سيد » بعينه الواحدة الباقية به :

ـــ رد على أخوك يا سلامه .

وبعد فترة قصيرة أردف يقول لسيد مقهقها :

ـــ بيقول لك . . أبوك السقا مات .

وهم « سيد » بأن يجيب . . ولكن اباه جذبه من يده ناهرا ، ولكنه رفض أن يخرج من المعركة منهزما ؛ فصاح وهو يهرول وراء أبيه :

ـــ امك تمشي ع الحيط . . يحموا أبوك في كتكه .

وصاح حسين مقهقها :

ـــ قديمة .

وعاد « سيد » يجيبه وهو مستمر في هرولته :

ـــ ويعني أبوك السقا مات . . جديدة . . يابن القديمة .

وضج الجالسون في المطعم بالضحك ، وتعالت كلمات الاعجاب بسيد من كل جانب .

ووصل « شوشة » بعربته حتى وصل إلى الحنفية ، وملأ الدور الثالث ، وحاول « سيد » أن يملأ قربته ، ولكن اباه قال له في لهجة مقتضبة :

ـــ كفايه دورين .

كان « شوشة » يتبع في تدريب ابنه برنامجا موضوعا . . بداه باصطحابه جالسا على العربة بجوار القرب . وبعد بضعة أيام أمره بالسير بجواره ، وبعد بضعة أيام اخر أمره بدفع العربة معه . . ثم بدأ يحمله القربة الصغيرة فارغة وبعد بضعة أيام ملأها له وتركه

يفرغها فى أول بيت ، وبعد ذلك اصطحبه إلى « السراية الكبيرة » وأمره بسقى التمرحنة .. كواجب يومى مستمر .. ثم أضاف إليه بعد بضعة أيام آخر دورا ثانيا فى بيت « أم عبد الله » .. وهكذا كان يتدرج به فى التدريب .

وكان الدور الثالث سيفرغ فى السراية .

ولم تكد العربة تصل إلى بابها حتى أمر « شوشة » ابنه بالوقوف فى الخارج .

ووقف « سيد » أمام الباب ، وهو يهز رأسه آسفا .

أهكذا قد حرم عليه الدخول إلى الجنة .. ولمه ؟ .. من أجل جوافاية لا هنا ولا هناك ؟

لا . لا . يجب أن يعطيه أبوه فرصة أخرى . هذا ظلم .

وعندما انتهى أبوه من تفريغ الترب فى الداخل وخرج يدفع العربة من الباب الكبير .. رفع إليه « سيد » رأسه متسائلا :

ـ لماذا لم تدعنى أدخل معك ؟

ـ لأنك لا تؤتمن على الدخول .

ـ كيف ؟

ـ ألا تدرى كيف ؟ !

ـ لا ...

ـ لأنك سرقت الجوافه من الشجره ، وأول رأسمال السقا .. هى الأمانه .

ـ ولكن ما عملته ليست سرقه .

ـ ما هى السرقة إذا ؟

ـ هى أن تأخذ ما المحتاج لغير المحتاج .

ـ ما شاء الله .. من قال لك هذا ؟ .

ـ شىء بالعقل .

ـ السرقة هى أن تأخذ ما ليس لك .

ـــ من قال هذا ؟

ـــ ربنا .

ـــ لا أظن ربنا يقول هذا !

ـــ استغفر !

ـــ أستغفر الله العظيم .. ولكنى مع ذلك أصر على أنه لا يقول هذا .

ـــ ماذا يقول إذا ؟

ـــ أعتقد أن أخذ ما للغير إذا كنا فى حاجة إليه أكثر منه لا تعتبر سرقة .. إنها مساعدة منا لله فى توزيع نعمه .. وإقرار عدالته .. فنحن فى الواقع لا نأخذ ما للغير ، ولكنا نأخذ ما لله الفائض عن حاجة الغير ، إنها معاونة لله لا أكثر ولا أقل .. أتيغضب ذلك الله ؟

ـــ الله ليس فى حاجة إلى معاونة أحد .. وهو أدرى بتوزيع ماله على عبيده ، ونحن أعجز عن أن نحكم على حاجات سوانا .. إن فينا من الأنانية ما يعمينا إلا عن حاجتنا .. فما من بشر يحس بحاجة غيره .. وما من بشر يحس بالفائض عن حاجته .. فهو أبدا فى حاجة ، وغيره فى غير حاجة .

ـــ على أية حال لا أظن أهـــل السراية فى حاجة ماســـة إلى الجوافاية التى كنت سأكلها .

ـــ ولا أنت أيضا فى حاجة ماسة إليها ، ولكن المسألة أن الله وهبها لهم ولم يهبها لك .. ولكل ما وهبه الله .. وواجبنا فى هذه الحياة هو أن نخلص فى عملنا ، ونتقبل بعين قريرة نتيجة هذا العمل .

ـــ وهذا ما كنت أنويه فعـــلا ، لقد أخلصت فى الصـــعود على الشجرة ، وأؤكد لك أنه لم يكن بالعمل الهين ، بل كان يحتاج إلى جهد كبير ، وكنت أنوى قبول الجوافايه .. نتيجة هذا العمل .. بعين قريرة ، ولكن لم يحدث قسمة .

ولم يستطع الأب العبوس أن يمنع ضحكته وقال لابنه :

ـــ نتيجة هذا العمل .. كان يجب ان تكون دق عنقك فهذا ليس عملك الطبيعى ، بل هو عمل شرير خرجت به من جلدة الصواب .

ـــ على اية حال .. هذه هى المرة الاولى ، ويجب أن أعطى فرصة اخرى .

ـــ حسن .. ساعطيك فرصة اخرى .. ستستمر على سقى التمرحنة .

واحس « سيد » بالغبطة تملأ جوانحه .. وشعر بامتنان كبير لشجرة التمرحنة .. انها فى حد ذاتها لا شىء ، لانها لا تجديه نفعا ، فهو لا يهتم كثيرا بالتمرحنة ، ولا بالورد أو الفل أو غيره من الاشياء التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

ولكن اباه يوليها اهتماما خاصا .. فهو لم يتركها مرة واحدة بلا سقيا .. وقد كانت سقياها أول واجب كلفه به ، وأول امتحان لرجولته ، واختبار لمقدرته .. وكانما يود أن يغرس فى قلبه نفس اهتمامه بها ورعايته لها .

ولقد نجح « المعلم شوشة » إلى حد ما فى غرضـــه ، إذ بدأ « سيد » يعتبر الشجرة ذات مركز خاص ، ويضعها فى مصاف الشجر المثمر من أمثال الجوافة ، والعنب ، والرمان .. قد تكون حقا غير ذات نفع مباشر له .. ولكنه كان يراها السبيل إلى بغيته .. لقد كانت بالنسبة إليه مفتاح الجنة .

حيا الله التمرحنة ، وشجرة التمرحنة وساقى التمرحنة .

الفصل الثاني

فى قبضـــة زمـــزم

انتصف النهار ، وانتهى « المعلم شوشة » من توزيع المياه على درب السماكين ، واحس « سيد » بحركة فى امعائه ، وهى اول بوادر الجوع ، وبداية النداءات المطالبة بالطعام فى باطنه .

ورفع راسه إلى ابيه مترجما حركة امعائه سؤاله على سبيل التذكير والاطمئنان :

ـــ احنا رايحين نتغدى ؟

واجابه الرجل بايماءة من راسه كانما يبتاع الكلام .

ويحه .. لم لا يتكلم ؟ إن « سيد » فى حاجة إلى الدردشة ، والاخذ والعطا فى مسالة الأكل من باب التصبير ، وتهدئة الأمعاء .

ولم يحتمل « سيد » الصمت .. كان لسانه يتململ فى فمه .. كل ما سلب من نشاط لسان ابيه وضع فى لسانه .

ومرة اخرى رفع راسه إلى ابيه ، وهما يدفعان العربة امامهما ، وعاد يسأل :

ـــ حانتغدى ايه ؟

ـــ إيه رايك انت ؟

سؤال طيب .. انه خير وسيلة لفتح باب الدردشة .. وانطلق

« سيد » يقول بحماس :

ـــ عندنا تلات غدوات : الاولى فى مطعم الأمرا ، سمك مقلى .. أو كسبريه بالطماطم والبقدونس والبصل .. والغدوه التانيه فى مسمط « خالتى زمزم » طبق فته بشربة الكوارع .. وكوارع إذا امكن .. او لحمة راس وممبار .

وصمت « سيد » برهة ليزدرد ريقه ، ونظر إلى ابيه من جانب عينيه ليرى وقع حديثه عليه ومدى استعداده لقبوله ، ولكنه لم يستطع ان يستبين من وجهه الجامد العبوس شيئا نعاد يتمم حديثه قائلا :

ـــ أما الغدوه التالته ففى دكان الاسطى مخيمر .. مكرونه بالصلصه هايله ، وكشرى بجبته ، عجيب .. وكبده بالشطيطه مدهشه .

وتطلع « سيد » مرة أخرى إلى وجه ابيه ، عله يجد صدى لرغباته ، ولكنه لم ير سوى العبوس والجمود .

وأخيرا لم يجد بدا من سؤاله ، فهتف صائحا فى حماس :

ـــ ايه رايك ؟

ـــ احنا حناكل جبنه وبطيخ مع ستك « ام آمنة » فى البيت عشان هيه قالت لى من كام يوم إن نفسها فى اكلة جبنة وبطيخ .

جبنة وبطيخ ! لشد ما جاء الجواب مخيبا لآماله .. لقد كان فى واد وأبوه فى واد آخر .. كان فى وادى الكسبرية : وفتة الكوارع ، وكبدة الشطيطة .. وكان أبوه فى وادى الجبنة والبطيخ .. وشتان بين الواديين .

« ست أم آمنة » نفسها فى الجبنة والبطيخ ؟ ! وما ذنبه هو ؟ لنأكل هى جبنة وبطيخا ، أو جبنة وشماما ، أو جبنة وزفتا .

وزفر « سيد » من أنفه زفرة شديدة ، وهما يقتربان من درب عجور .. ولاحت لعينيه لافتة ، فوق حانوت على ناصية الدرب كتب عليها « مسمط الحاجة زمزم » وأسفلها كتب « ادخلوها بسلام آمنين » ، وأسفل اللافتة استقرت « الحاجة زمزم » على دكة خشبية فى مدخل

الحانوت ، وعلى سيمائها ما يناقض الآية المكتوبة على اللافتة ، أو ما يشعر بفرط حاجة الداخل إليها .

لم يكن يبدو على « الحاجة زمزم » ما يوحى بسلام ولا أمن .. كانت امرأة شر بكل ما فى معنى الكلمة .

استقرت « الحاجة زمزم » متربعة على الدكة ، وتهدلت من حولها كتل اللحم المحيطة بها .. وقد بدت طيات فوق طيات ، كل طية تستقر متهدلة فوق الطية التي لسفلها ، وهى فى جلستها على شكل هرم تتكون قاعدته من الأرداف والأفخاذ ، والسيقان ، وقد انبعجت أطرافها ، وبرزت إلى الخارج من فرط الضغوط بين الشحوم ، وبين خشب الدكة نتيجة لثقل الجسد الواقع على القاعدة .

والطبقة الثانية التى تلى القاعدة تتكون من بطنها ، ومن محيط الشحم الملتف حول خصرها ، وهذه الطبقة فى ذاتها مكونة من بضع طيات متعرجة متتالية كأنها الصاج المعرج ولكنه صاج لين طرى .

والطبقة الثالثة التى تلى طبقة البطن تتكون من صدرها وشحم ظهرها الذى يظهر ببروز وراء قفاها وتحت ابطيها كأنه سنام الجمل ، وهذه الطبقة ليست متصلة المحيط ، بل تتكون من ثلاث كتل رئيسية هى الثديان وسنام الظهر وشحم الابطين .

وعلى قمة الهرم تستقر الرقبة والرأس ، وفوق ذلك كله تبدو « الأمطة » الحمراء تعصب الرأس ، وكأنها علم أحمر ينذر بالخطر الكامن أسفله .

ذلك هو الوصف العام « للحاجة زمزم » باعتبارها هيئة طبيعية مستقرة فى باب المدخل ، فإذا حاولنا أن ندخل فى التفاصيل لفت نظرنا فى القاعدة قدمان مخضبتان بالحناء قد أحاط بهما خلخالان وبدت قاع القدم مشققة أشبه بالخف لم يجد معها دعك باللوفة أو صقل بالحجر .. فإذا كانت لدينا الجرأة فى أن نحاول أن نكشف عما فوق الخلخال وجدنا أطراف سروال شيت أحمر يبدو « مكشكشا » من أسفل الجلباب الأسود الذى يستر الهيئة الهرمية الشحمية . فإذا تركنا الساقين —

اذ لا اظننا بمستطيعين الكشف عن ابعد من ذلك — وصعدنا فوق درجات الهرم وجدنا فتحة الجلباب تتسع حول العنق وفوق الصدر ويستقر فوقها كردان ذهبي تتدلى منه سلاسل وشراشيب ذهبية ، وفي الرسغين قد صفت الأساور والغوايش ، وبدا ظاهر اليد أخضر من كثرة ما نقش من وشم عليه .

أما الوجه ففيه اثر من جمال بائد .. اثر باهت شاحب يشير إلى انه هنا كانت امرأة .. كما تشير بقايا الطلل من حجارة منهارة إلى انه هنا كان إيوان .

وكما تحاول مصلحة الآثار تجديد الاطلال بخلقها من جديد ووضع حجر جديد مكان كل حجر بال .. فقد حاولت « الحاجة زمزم » ان تفعل بوجهها ما تفعل المصلحة بأطلالها . فمكان الاسنان المتساقطة قد وضعت طاقما جديدا ، ومكان الرموش الهاوية والأجفان المقروحة قد خطت بالكحل خطا أسود عريضا ، ومكان الحواجب المتآكلة قد رسمت حواجب جديدة ، واسفل المنديل الاحمر الذى عصبت به رأسها أطلت ضفيرتان مستعارتان غليظتان سوداوان .

و « الحاجة زمزم » تأبى إلا ان تجعل من جمالها مفخرة ، رغم أن لديها من المواهب ما تستطيع الفخر به غير ذلك الجمال الضائع الموهوم .. لديها المسمط ، ولديها الخلاخيل والاساور ، والبيت الملك ، كل ذلك يهيىء لها ثراء ، تستطيع ان تفاخر به أهل الحى .. ولديها السطوة والسلطان والفتونة . فهى بحمد الله — فى « درب عجور » كما كان الحجاج بين أهل الكوفة لا يتمتع لها بالشنان ولا يغمز جانبيها كتغماز التين ، ولديها لسانها .. الطويل السليط المؤذى .. الذى تستطيع أن تناضل به أمة من اللئام والسفلة تقتهرها .

لديها كل تلك المواهب ، ومع ذلك فهى تصر على التعلق بالجمال الزائل وهى تأبى إلا أن تحتل فى درب عجور مركز « فتاة الحى » بالذراع ، فهى تهاجم كل امرأة جميلة .. لم تنج من لسانها واحدة ، ومن

لم تجد بها عيبا اتهمتها بأنها عاهر .

كانت « الحاجة زمزم » تزن حوالى مائة وخمسين كيلو ، منهـا مائة كيلو أنانية ، فقد كانت ذاتها هي محور كل حركة وكل فكرة وكل تصرفه يصدر عنها .. وكان يبدو كان كتل الشحم التى تراكمت على جسدها قد اختلط فيها الشحم بمواد متفجسرة .. فهى ابدا تفسرقع بالسباب والشتائم وتفيض بالمرارة والحقد .

هى حائرة بين رغبتها في تصيد الإعجاب بشخصها ، وبين اطلاق شرورها وأحقادها التى تفيض بها نفسها .. لا تكاد تتصنـع الرقة والدلال حتى تغلب عليها سلاطة لسانها وصفاقة خلقها ورغبتها الكامنة في الشر والأذى .. فهى ترق للقوى في مواجهته فلا يكاد يوليهـا ظهره حتى تنهشه بلسانها .. أما الضعيف فتفرغ فيه أحقادها غائبا وحاضرا .

تلك كانت « الحاجة زمزم » ، خالة « المعلم شوشة » السقا ، والزوجة السابقة « لإبراهيم الفرارجى » الذى قد فر منها فرارا وترك لها الحي بأكمله .. بعد ان سودت عيشه وأزهقت أنفاسه ، وتزوج من « حسنة » المسكينة بائعة الفول النابت .

وكانت المرأة تجن عندما هجرها الرجل لا لحبها له .. بل لحبها لنفسها .. فقد كانت تجد في نفسها شيئا ممتازا عن بقية النساء .. وكانت تأبى أن تقارن نفسها بسـواها ، وكانت لا تكف عن تعـداد محاسنها والتنقيب عن معايب الغير .. فكيف بها وهى ترى زوجها يفر منها ويفضل عليها أقبح نساء الحى واوضعهن .

كانت صدمة قاتلة لها زادت من حقدها ومرارتها .. فأصبحت مخلوقة لا تطاق .. تعاكس ذباب وجهها ، وتشاكس طوب الأرض .

وكانت « زمزم » تحس بعد هجر زوجها أن الدنيا تناصبها العداء .. فناصبت الدنيا العداء ، ووقفت تناضل في الحياة وحدها بلا زوج ولا ابن ، ولكنها كانت صلبة العود شديدة المراس .. فاستطاعت أن تصمد ..

واتسع مسمطها وربحت تجارتها وأضحت ذات ثراء لم يبلغه أحد من أهل الحي .

وكان « سيد » يرى أباه شديد النفور من « الحاجة زمزم » ، رغم ما كانت تبديه له « الحاجة » من مودة ظاهرة ، ورغم ادعائها انه ابنها ، وأن « سيد » ابن ابنها .

وكان « سيد » يكره نفور ابيه من « الحاجة » فهو يراها ذات نفع إذ انها لا تفتأ تخلع عليه المنح بين آونة واخرى ، ما بين قطع المبلز والملاليم التي تنفحه بها بين آونة واخرى .

كان « شوشة » يكره منحها ، فقد يعلم ان « زمزم » لا يمكن ان تمنح بقصد المنح ، وانها لا تدفع إلا لتاخذ اكثر مما تدفع ، وبالفعل صدق ظنه .. إذ تبين له انها تريد ان توطد الصلة وترفع الكلفة حتى يحمل إليها المياه مجانا فى سبيل اكلة بين آن وآخر وبضعة ملاليم تمنحها لابنه .

لقد كانت تقول انها امه وانه ابنها .. لانها كانت تعلم ان الابن لا يعطى امه المياه بالثمن ، ولكن « شوشة » لم يخدع بالعطف الظاهر واصر على التباعد عنها وحرم على ابنه ان يأخذ منها مليما واحدا ؛ وفى المرات القلائل حين كان يهفو إلى اكلة لحمة راس ، كان يصر على دفع ثمنها على « داير مليم » .

وعندما وصلت العربة بحذاء الجانوت تمهل « شوشة » قليلا وبدا كان فكرة طارئة طافت بذهنه .

ودعا« سيد » ربه أن يهدى اباه ويدخله المسمط ، ورفع راسه إلى السماء وتمتم بصوت خافت :

ــ لحمة راس .. وفتة كوارع يارب .. اللهم ابعد عنا الجبنة والبطيخ .

وفى نفس الوقت انطلقت صيحة من كوم الشحم الرابض على الدكة :

ــ اتفضل يا معلم شوشه .. أهلا وسهلا .

ولم يدر « سيد » ما الذى غير راى ابيه فجاة ، أهى دعوته إلى

الله ؟ أم دعوة الحاجة زمزم له ؟ فقد توقف الرجل وترك العربة بجوار الرصيف ، وأمسك بيده ، واتجه إلى المسمط .

ولم تكن بالطبع إحدى الدعوتين هى التى غيرت رأيه ، بل كانت فكرة خطرت له عندما تذكر مماطلة « الحاجة زمزم » فى دفع القرب المتأخرة ، وعزمه على أن يأخذ الثمن فتة وكوارع ولحمة رأس حتى لا يعطيها فرصة الاحتيال عليه .

واستمرت المرأة فى ترحيبها :

ــ أهلا وسهلا بالمعلمين .

وأحس « سيد » بنشوة وهو يخاطبه بصيغة الجمع مع أبيه ، ورد على تحية « الحاجة » بخير منها قائلا فى لهجته الرجالى :

ــ أهلا وسهلا بشيخة المعلمات ، وفتوة الحسينية .

وفجأة تناولت « الحاجة » حجرا من كوم حجارة وضع بجوارها ، ورفعت يدها ثم قذفته بشدة فمر فوق رأس « سيد » كالصاروخ ، واستقر على رأس كلب يهم بالاقتراب من المسمط ، وحمد الصبى ربه أنه لم يكون المقصود بالحجر .. فقد ظن وهى ترفع يدها بالحجر فجأة أن وصفه لها « بشيخة » قد أغضبها ، وأنها فهمته بمعنى الكبر فى السن .. لا الكبر فى المقام .

وعدا الكلب يعوى هاربا من المنطقة الحرام .. ورفعت « الحاجة » يدها عن كوم من الأسلحة الخفيفة ، سلاح الكلاب ، والقطط ، وما إليهما من أطفال الحى الأشقياء الذين يحلو لهم أحيانا معاكستها . وقبضت بيدها على السلاح الثقيل .. سلاح الزبائن العصاة ، الذين يساومون فى الدفع أو يماطلون فيه وهو « شومة ثقيلة » .. تترع بها « الدكة » بين آن وآخر على سبيل الإنذار والتحذير .

ودخل « شوشة وابنه » يخوضان فى كوم العظام المتراكم على مدخل المسمط ، والمحرم ــ بلا ريب ــ على الكلاب والقطط .. وحييا « جلد » صبى « الحاجة زمزم » والمتولى شئون المسمط ، وهو قزم معوج

الساقين ، بارز الذقن لا يقل شرا وسفالة عن معلمته . . وهو المخلوق الوحيد الذين يمكن أن يحتملها ويداوم على العمل معها ، فقد استطاع أن يصمد في العمل معها قرابة الخمسة عشر عاما منذ أن كان صبيا في الثانية عشرة . وقد تبدل جميع عمال المسمط عداه ، إذ كان يربطه بالحاجة رابطة متينة من سوء الخلق والكره المتبادل جعل كليهما لا يستغني عن الآخر .

كان « جاد » يتخيل رأسها في كل رأس يشجه ، ولسانها في كل لسان يقطعه ، وكان يشعر بلذة من عملية الشج والقطع ، ويدعو الله في كل ضربة ساطور . . أن يضعها أمامه فوق « الأرمة » ويمكنه من زمارة رقبتها .

وكانت « الحاجة » بدورها تتخيله في كل كلب عاو هشمت رأسه . وفي كل زبون مضروب حطمت ضلوعه ، وكانت تدعو الله أن يريها « جادا » كومة من العظام ، كذلك الكوم المستقر أمام مدخل الحانوت .

وهكذا كان يجمعهما — غير حاجة كل منهما إلى الآخر — شعور من الحقد والبغضاء . . كان كل منهما ينميه في الآخر ويبقيه دائم اليقظة . . فكما يشعر بعض الفنانين برغبة دائمة في الحب ، وحاجة إلى ما يوقظ حسه ، ويرهف مشاعره . . كانت « زمزم » و « جاد » يشعران برغبة دائمة في البغض وحاجة إلى ما يوقظ حقدهما ، ويؤجج غضبهما . لقد كان كلاهما فنانا في الشر ، عبقريا في الأذى .

ووقف « جاد » وراء القزان الكبير الذي يتصاعد منه البخار . بفكه السفلي العريض ، وذقنه البارز ، وحواجبه الثقيلة ، وأنفه المعوج الشبيه بالمنقار . . وقد بدا شديد الشبه بالشياطين والزبانية . . ثم أخذ يجهز بعض الطلبات على الأرمة الخشبية ووضعها في الأطباق الصغيرة . . ودفع بها إلى صبي وقف ينتظر بجواره ، وقد بدا صورة طبق الأصل منه وهو ابنه « حنفي » الذي يعاونه في خدمة الزبائن .

ولم يكن الحانوت مزدحما ، فقد خلا إلا من بضعة زبائن تناثروا

فى الاركان واقبل كل منهم يتناول طعامه فى سكون عدا واحد بدا وجهه غريبا على « شوشة » وابنه « سيد » .

كان الزبون الجديد كهلا يرتدى جلبابا من « الدمور » المخطط ، وجاكتة قديمة ، نحلت ياقتها وكيعانها واطراف أكمامها ، وبرزت البطانة من عدة مواضع ممزقة فيها ، وفى قدميه حذاء بال أجرى ، لا يعرف له لون ، قد جدد نعله بقطعة من كاوتش سيارة ، وربط إحدى فردتيه بقطعة من الدوبارة ، وتدلى لسان الأخرى من الفتحة الخالية من الرباط ، وارتدى جورب صوف كاكى طويل من جوارب السلطة ، قد تهدل من ساقيه الرفيعتين المساوين ونزل فوق الحذاء .

والرجل على كبره يبدو لطيف الملامح ، بشوش الوجه ، تهدل شاربه الأبيض على شفتيه فاخفى العليا ، وأبرز السفلى وتناثرت الشعيرات حول ذقنه ورقبته .. فكست وجهه شبه وبرة بيضاء .

ومع كل مظاهر البهدلة البادية على الرجل نجد الطربوش الأسود الزيتى المنهار الجوانب ، المندوف الزر ، قد استقر على حاجبه الايسر فى ميل شديد ، كاد يختل معه توازنه .. مؤكدا أن صاحبنا ما زال محتفظا بسياقة معنوية شديدة .. وانه رغم أن طاقته المادية عاجزة قد باعدت بينه وبين الفخامة والابهة بعد السماء عن الأرض .. إلا انه أصر على الا يخذل .. وان يستعمل من وسائل الأناقة والسياقة ما أبقاه له الذى اخنى عليه كما أخنى على لبد .. فامال الطربوش على حاجبه .. ووضع فم السيجارة بالمقبب فى جانب فمه .

ذلك هو « شحاتة افندى » كما أبصره « شوشة » وابنه « سيد » .. ليس به من مظاهر الافندية غير الطربوش والجاكتة ، بادى الانسجام والسرور .. لا يكف عن التلفت يمنة ويسرة .. حتى يستقر بصره على الهرم الاكبر الجالس على الدكة .. ترفرف على قمته « الامطة » الحمراء .

ولا يكاد بصره يستقر على وجه « الحاجة زمزم » .. ذى التجاعيد

To: www.al-mostafa.com

والهضاب والوهاد .. ولا تكاد تلتقي الاعين حتى تتحرك حواجبه مرتفعة منخفضة بطريقة آلية .

وهكذا يتضح من حركة « شحاتة افندي » .. انه يصوب سهام غزله إلى الهرم الشحمي .. بادئا بتلعيب حواجبه .. متابعا هجومه الصامت بهجوم ناطق ، قائلا وهو يمصمص بشفتيه .. ويهز راسه في شبه اسف وطرب :

ــ « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشي » .

ويبدو واضحا أن هجومه قد أصاب الهدف ، وهو لابد ان يصيبه . فقد كان الهدف ــ من ناحية الحجم ــ اضخم من أن يخطئه مصوب ولو كان أعمى . ومن ناحية الحساسية كان الهدف نفسه يتصيد كل هجوم أيا كان نوعه .. فإذا كان هجوم غزل ، فليس أحق به منها .. لانها ــ كما تعتقد في نفسها ــ اجمل اهل الحي .. وإذا كان هجوم عراك .. « فادها وادود » .. لانها ايضا اقوى اهل الحي ذراعا ، واطولهم لسانا .

وظهر تاثير هجمات « شحاتة افندي » على الهرم الاكبر .. عندما بدا الهرم الاكبر يتمايل ويهتز طربا ، ثم يطلق ضحكة ناعمة نسبيا ، ويهز راسه المعصوب بعلامة الخطر ، وينشد مترنما : « يا نور العيون آنست » .

وصلت الاغنية إلى اذن « شحاتة افندي » فاعتبرها بمثابة تحية له ورد على غزله ، واستسلام لهجومه ، فاطلق القذيفة الثانية في صورة اغنية أخرى ، متابعا نجاحه صائحا ، وهو يهز راسه طربا « ياما انت واحشني وروحي فيك » .

وهكذا استمر الغزل في صورة اغنيات .. يتبادلها الطرفان ، حتى وقف « حنفي » بطبق لحمة الراس والعيش والطرشي ووضعها على المنضدة امام « شحاتة افندي » .

وكف « شحاتة افندي » عن الغزل مرة واحدة ، لا تلعيب حواجب ،

ولا إنشاد اغاني ، ولا طرب ، ولا هز راس ، وحملق في الأطباق حملقة نهم مسغب .. لم يذق طعاما منذ أسبوع . وانصرف بكليته إلى الصبي حنفي ، معرضا تماما عن « الحاجة زمزم » منكرا إياها كل الانكار ، كأن لم يكن يناديها منذ لحظة : « ياما انت واحشني وروحي فيك » .. وكأنما كان هذا القول موجها إلى كرشة الخروف .. لا إلى كرشة « الحاجة زمزم » .

واقبل « شحاتة افندي » يفحص الطبق .. ويقلب الكرشة والمبار .. وقطع لحمة الراس .. وهم « حنفي » بالانصراف عندما صاح به « شحاتة » في لهجة آمرة :

ـــ اسمع يا ...

ـــ محسوبك حنفي .

ـــ اسمع يا حنفي .. عايز جوهرة .. ونص مخ مع نص لسان .. بس كده خليه يوضبهم على كينك .. وهات كمان شوية شوربه .

وبدا الدهش على « حنفي » إذ لم تكن الطلبات لتتناسب مع مظهر صاحبنا .. وبدا عليه التشكك في جدية طلب الرجل وفي استطاعته دفع ثمنه .

وادرك « شحاتة » معنى نظرة الصبي فقال من باب التطمين والتأكيد :

ـــ هات .. هات .. مافيش فرق بيني وبين الحاجه ، ما بين الخيرين حساب .

ورفع « حنفي » كتفيه كأنما يقول « وانا مالي .. انت اللي حتاكل وانت اللي حتدفع » .

ووصل إلى مسامع « شوشة » قول الرجل « ما بين الخيرين حساب » ، فلم يشك في أن الرجل لم يعرف « الحاجة زمزم » جيدا .. وانه خدع باستسلامها لغزله ، وإلا لما أدخلها في زمرة الخيرين .

وحمل « حنفي » طبق الفتة وطبق الشوربة والكوارع إلى شوشة

وابنه ، ثم عاد ليحمل بقية الطلبات إلى شحاتة أفندي .

وانهمك الكل في الأكل فلم يسمع منهم صوت ولا ألقى أحد منهم بالا لأحد .. كان الاهتمام كله مركزا بين الفم والأطباق ، وكان « سيد » متلهفا على فتة الكوارع فهو يحبها وقد مضى عليه بضعة أشهر دون أن يتذوقها ، فاللقاء بينهما على وحشة وطول فرقة .

وكان « سيد » ما فتىء يراقب جاد في عملية الفت ، وتمزيق العيش ووضعه في الطبق ، وكان يود لو ينهض لمساعدته ، ثم أخذ يراقب الشوربة والبخار يتصاعد منها وهي تهبط فوق العيش فتلين صلابته وتدك صرح لقماته ، وهكذا لا يلبث خليط العيش والشوربة حتى يستحيل إلى كتلة طرية متماسكة كصدر العذراء .. ليونة وسخونة ، ويبدأ بعد ذلك فرش الرز ، واللئيم « جاد » يأبى إلا أن يرتق طبقة الفرش كأنما ينزعها من جلده .. رغم أن « سيد » يحب كثيرا الرز المفروش على الفتة .. ولكن منذ متى كان « جاد » يأبه لرغبات « سيد » أو أكثر من « سيد » ؟ إنه سافل لئيم كابنه « حنفي » . ويجيء دور الصلصة ، وإذا كان « جاد » يفرش الرز من جلده .. فهو يسكب الصلصة من دمائه .. إنه لا يكاد يضع المغرفة في الحلة حتى يخرجها ، ثم يدور بها حول الطبق وبحذاء حافته من الداخل دون أن يسكب منها شيئا كأنما هي عملية تشميم لا أكثر ولا أقل .

ولا يستطيع « سيد » أن يكتم غيظه ، وهو يرى أن المسألة أخطر من أن يسكت عليها فيصيح بجاد :

— عايز صلصه يا عم جاد .. الريحه مش كفايه .

ولا يجد « عم جاد » بدا من أن يسكب بضع قطرات من « الكبشة » ، وهو ينظر إلى « سيد » في حنق ولسان حاله يقول « بالسم الهاري » .. ويبتسم « سيد » وكأنه يجيبه « ولو » .

ويغفل « سيد وأبوه » بالكوارع عن « شحاتة أفندي » ، كما غفل « شحاتة أفندي » بلحمة الراس والجوهرة واللسان عن « الحلجة

زمزم » ، وعن الدنيا باكملها ، وبكاد بتسياته كلية حتى يصل إلى آذانهما ، وقد بلغا قاع سلطنية الفتة ، صوت هدير آت من مدخل الحانوت ، فتلفتا تجاه الصوت فى دهش فإذا « بالحاجة زمزم » تزار قائلة :

— بيقول إيه ؟ على الحساب .. حساب مين يا عمر ؟ قول له يدفع بالتى هى احسن .

وكان القول موجها إلى « حنفى » .. رغم أنه رج الدكان باكملها وخرق آذان الزبائن جميعا وجعلهم يتلفتون فى دهش ليتبينوا مصدر الزوبعة وليكتشفوا من هذا الذى جرؤ على الاصطدام بـ « الحاجة زمزم » .

وتحرك « حنفى » ليبلغ الرسالة لصاحبها .. رغم انه لم يكن هناك شك فى انها قد وصلت لا إلى صاحبها فقط بل إلى سكان الحى المجاور .

ويتتبع الزبائن « حنفى » بابصارهم ليروا الضحية : فإذا بهم يجدون الصبى قد وقف امام الزبون الجديد « شحاتة أفندى » او كما عرف بينهم بعد ذلك .. « شحاتة أفندى » الهلفوت .

وقف « حنفى » أمام « شحاتة » وقال له بهدوء :

— الحاجه بتقول لك ادفع بالتى هى احسن .

وكان الطربوش ابرز مظاهر الميافة فى « شحاتة أفندى » قد غادر موضع الاناقة وانتقل من الحاجب إلى مؤخرة الراس ، وكان « شحاتة » قد أتى على جميع ما فى الاطباق واعلن بالتجشؤ عن مدى شبعه ورضائه .. وبدا فى جلسته قريرا للغاية ، ولكنه لم يتمتع كثيرا برضائه وقرارته .. فقد فاجاه الزئير الصادر من « الحاجة » عندما بلغها الصبى الرسالة .. لا سيما وأنه كان قد بدأ يستعد لمواصلة الغزل .

وبدا الارتباك على « شحاتة » ، وهو ينقل الطربوش بين حاجبيه ومؤخرة راسه ، ويضع ساقا على ساق ، ثم يخفضها ثانية ، ولكنه حاول التمالك وقال للصبي في صوت خفيض :

— روح انت .. انا حتفاهم معاها .

أجل .. انه لا شك سيستطيع التفاهم معها .. فقد كانت تذوب رقة وهو يقول لها « ياما انت واحشني » .. واغلب الظن ان ما اثارها عليه ليس رغبته في عدم الدفع ، بل انصرافه عنها إلى لحمة الراس .. لعنة الله عليه .. كان يجب أن يكبح جماح نفسه ، وأن يتروى قليلا فلا يندفع إلى اللحمة مثل هذا الاندفاع ، ولكن .. لا باس عليه .. سيعرف كيف يسترضيها ، ويدير راسها ، ويأكل مخها ، ويلين لسانها .. في سبيل لحمة الرأس والمخ واللسان .. الذي اكله ، والذي ينوي ان ياكله بعد ذلك .. انها فرصة سانحة لا ينبغي أن يضيعها من يده مهما كان الأمر .

وبدأ يعد في ذهنه خطة الهجوم المضاد على الهرم الشحمي الاكبر .. ولكنه قبل ان يبدأ التفكير فوجيء بالزئير مرة اخرى ، وسمع المرأة تصيح بالصبي :

— قل له يدفع قبله .. لحسن أخرجه من الدكان ملط ، ياكل جوهره ولسان ، ومش عايز يدفع الحساب .. الاقرع النزهي ، والنبي اطلع حبابي عينيه ؟

وارتجف « شحاتة افندي » فقد وجد أن المسألة أخطر بكثير مما كان يظن .. لشد ما خدع في المرأة .. إذ ظنها مركبا سهلا ذلولا .

ولم ينتظر « شحاتة » حتى يبلغ « حنفي » الرسالة ، بل نهض متجها إلى « الحاجة زمزم » عله يستطيع تهدئتها والتفاهم معها .

وبدا وجه « الحاجة » مربدا متجهما .. وقد انتفخت أوداجها وزوت ما بين حاجبيها المرسومين وكشرت عن انيابها الصناعية ، ولم يكد « شحاتة افندي » يقف امامها وهو يحاول الابتسام حتى صاحت به :

ـــ نتفاهم على إيه يا عومر ؟ .. إيدك على الحساب .. ادفع تمن السم الهاري اللي كلته .

ـــ صبرك على يا حاجه .. الدنيا مش حاتطير .. الناس لبعضها .

ـــ الفلوس .. إيدك على الفلوس .

وأسقط في يد « عم شحاتة » فقد خذلته المرأة تماما وقلبت له ظهر المجن .. ولم يكن قد دخل جيبه مليم واحد منذ بضعة أيام ، ولم يجد مفرا بدا من أن يقوم بهجوم غزلي خاطف علّه يستعيد به الموقف ، وبدأ يطلق ما في جعبته من سهام . فلجأ على مدير المرأة وزئيرها بحركة سريعة من تلعيب الحواجب ، وصاح منشدا في طرب :

ـــ « حبيبي قاعد ع الدهبيه ، ودراعه متخشخ زي اللبيه » ..

ثم أعقبها بقوله التقليدي في أسف :

ـــ « يا ميت ندامه على اللي حب ولا طالشي » .

وهنا انطلق « سيد » مقهقها وصاح بأعلى صوت مجاوبا شحاتة أفندي :

ـــ « يا ميت ندامه على اللي كل ولا دفعشي » .

وفجأة وفي سرعة البرق .. بدأت الندامة .. ندامة « اللي كل ولا دفعشي » .

لقد ارتفع ذراع « الحبيب المتخشخ اللي زي اللبيه » ثم هوى مطبقا على جاكتة « شحاتة أفندي » وجذبه بعنف تجاه الحبيب .. ليس الجالس على الذهبية .. بل الجالس على الدكة أمام المسمط .

ومزقت الجاكتة وهوى « شحاتة أفندي » جاثيا أمام الدكة وافلتت يد الحبيب الجاكتة ، وأطبقت على زمارة رقبة صريع الهوى ولحمة الرأس .

وبسرعة البرق تناولت « الحاجة » العصا بيدها الأخرى ثم رفعتها إلى أعلى مهددة صائحة :

ـــ الفلوس .

وصاح « شحاتة أفندى » فى ذلة واستعطاف :

— حاضر .

— هات .. قوام .

— صبرك على .

— طلع إيدك بالفلوس .

— نسيت المحفظة فى البيت .. ولا معيش ولا مليم .

وصرخت « الحاجة زمزم » فى وجهه وزادت الضغط على عنقه :

— نسيت المحفظة ! ؟ دا كلام ما بنطليش على .. حاخد الهدمة اللى عليك والخرجك بلبوص .

ثم صاحت :

— جاد ...

وبلغ النداء « جاد » وهو واقف أمام الفران يشاهد المنظر فى شماتة وفرحة . فأسرع إلى الحاجة وهو يجيب فى طاعة :

— نعم يا معلمة .

— قلعه الجاكتة ، والجلابيه ، والجزمه ، وناولنه .

ولم تكد « الحاجة » تنتهى من قولها حتى عجم « جاد » على « شحاتة أفندى » الذى كان راكعا أمام الدكة وعنقه فى قبضة « الحاجة » وطربوشه ملقى على الرصيف وعيناه محملقتان فى دهش وذعر .

ونزع « جاد » الجاكته — أو على الأصح — هلاهيل الجاكتة بين استغاثات « شحاتة » وزئير « زمزم » ، ثم مد يده إلى ذيل الجلبابه وهم برفعه عندما نهض « شوشة » من مقعده فى غضب واندفع إلى « جاد » بعد أن رآه ينفذ بالفعل حكم « الحاجة » بتعرية الرجل وصاح فيه حانقا متحديا :

— إيه اللى بتعمله دا يا جدع انته ؟

ولم يجب « جاد » بل نظر إلى « الحاجة » نظرة تسساؤل كأنه يستشيرها فيما يفعل إزاء تدخل المعلم « شوشة » ، ثم حول عينيه من « الحاجة » إلى « شوشة » وبالعكس كأنما يقول له « كلمها هى » أو « اتشطر عليها » .

وحاولت « الحاجة » أن تبذل جهدا كبيرا لكتم غيظها مفضلة أخذ « شوشة » بالحسنى فقد كانت مدينة له بثمن القرب التى وردها خلال ضحكة سطحية كشفت عن طقم أسنانها وأبرزت تجاعيد وجهها ، وقالت مجيبة على سؤال « شوشة » بأقصى ما استطاعت من رقة :

ــ المنكوب ده ما دفعش تمن اللى اتسممه . . طلب جوهره ومخ ولسان . . على الحساب . . تصدق إن الجربوع ده يكون له حساب . . داحنا لو بعناه بحاله ما يجيبش تمن اكله . لكن أنا حا اعرف ازاى اخليه يبطل النصب على الناس .

وقبل أن تسمع رد « شوشة » حولت الحديث إلى « جاد » قائلة :

ــ قلعه الجلابيه ، وخليه يمشى فى الشارع ملط .

واستمر « جاد » فى نزع الجلباب معتبرا أن المناقشة قد انتهت ، ولكن « شوشة » تقدم خطوة ثم قبض على رسغ « جاد » ولوى ذراعه إلى الخارج ثم دفعه بشدة دفعة جعلت « جاد » يصرخ من فرط الألم .

ولم يكن « شوشة » ضخم الجسد أو بادى القوة ، ولكنه كان من النوع الذى يسمونه « عرق » . . كان نحيف الجسد ، ضامره ، ولكن عضلاته الضامرة كانت تبدو عندما تتصلب كأنها قطع الصلب ، وكان يتمتع بقوة كامنة وإقدام وجراة جعلته بين أهل الحى مرهوب الجانب وجعلت « جادا » يتنحى عن الميدان تاركا « شوشة » مع « زمزم » وجها لوجه .

وكان « سيد » فى هذه الآونة ما زال جالسا على مقعده منهمكا فى مصمصة بقبة كارع ، ولكنه لم يكن يبصر دفعة أبيه لجاد ويوقن أن هذا لابد أن يكون بداية معركة حتى قفز من مقعده فى فرحة ظاهرة ، فقد

كان يتوق منذ مدة طويلة إلى أن يرى أباه في معركة لا سيما مع هذا الحيوان اللئيم « جاد » ، وكان يتوقع أن تنيله مثل هذه المعركة ماربا طالما تلهف عليه وهو ضرب « الواد حنفى » ابن « جاد » الذى طالما اعتدى عليه بالسباب ،حتميا بأبيه و « بالحاجة زمزم » ، ولكنه في المعركة يستطيع أن يتصيده وحده إذ لا شك أن جادا وزمزم سيكونان مشغولين عنه بأبيه .

ولكن لم يكن يجد « جاد » ينتهى حتى خاب أمله . إلا انه عاد يرقب عيني « زمزم » فقد أضحى في يدها الآن مفتاح الموقف إن شاءت انهته بسلام ، وإن شاءت أعلنت القتال .

وبدا جليا أن « زمزم » لا تريد الدخول في معركة مع « شوشة » ، فقد صمتت برهة ، وهي ما زالت مطبقة بيدها على زمارة رقبة « شحاتة افندى » الذى بدأ يتطلع في استغاثة صامتة إلى منقذه الاكبر ، ثم أطلقت تنهيدة معناها : « اللهم طولك يا روح » ، ورفعت حاجبها الأيسر وهزت رأسها ببطء ، وتساءلت في هدوء مصطنع :

— مالك يا سي شوشه . . حد داس لك على طرف ؟

— قبل كل حاجه سيبى الراجل ده .

— اسيبه ؟

— أيوه . . سيبيه !

— انت تعرفه ؟ صاحبك ؟ قريبك ؟

— قلت لك سيبيه !

وبدأ الغضب يغلى في صدر المرأة . . ولكنها بذلت جهدا كبيرا لكبت بوادره ، وقالت في لهجة اقناع :

— أنا عارفاهم أكتر منك ، عارفه الصنف النصاب المحتال ده .

— اسمعى يا حاجه . . تعرفيه ما تعرفهش . . كلمه ورد غطاها . . قلت لك سيبيه ، وحاتدملك الحساب .

ودهشت المرأة ، وبدت عليها أمارات الخذلان .. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئا .. فقد أسكتها « شوشة » برده .. حقيقة أنه سيحرمها من التمتع بإحدى عمليات الشر والأذى ، ولكنه سيدفع الثمن ، وهو الأهم .

وأفلتت من قبضتها رقبة الرجل .. فنهض « شحاتة أفندى » وهو يتحسس رقبته غير مصدق أنه نجا ، وأمسك بجاكتته الممزقة ، ووضعها على كتفيه وتناول الطربوش الذى تدحرج فوق الرصيف ، فوضعه على مؤخرة رأسه ، ووقف يقلب البصر فى ذهول بين القضاء المستعجل والمعجزة الكبرى ، أو بين « زمزم » و « شوشة » .

وتكلمت المعجزة تخاطب القضاء فى لهجة مقتضبة حازمة :

ـــ حسابه كام ؟

وتحول القضاء إلى صبيه « جاد » ملقيا نفس السؤال :

ـــ حسابه كام ؟

ـــ لسان وجوهره ومخ .. مخ بتلاته ابيض ، وجوهره بساغ ، ولسان بصاغ ، ورغيف بعشرين تعريفه ، وبعشرين تعريفه طرشى وسلاطه ، تبقى الحسبه كلها اربعه ساغ .

ولم يتمالك « شوشة » نفسه من الصياح فى دهشة ، وهو ينظر إلى « جاد » فى شك وريبة :

ـــ اربعه ساغ !

ـــ أيوه أربعه ساغ !

وتحول ببصره إلى « شحاتة أفندى » طالبا منه أن يكذب « جاد » . ولكن الرجل هز رأسه بالموافقة .. فعاد « شوشة » يسأله :

ـــ انت كلت كل دا يا أخينا ؟ !! مخ ولسان وجوهره وطرشى وسلطه ؟

ـــ أيوه !

ـــ ولا فيش معاك مليم واحد ؟

وهنا وجدت « زمزم » الفرصة سانحة للتدخل ، ومعاودة الهجوم على « شحاتة افندي » بعد أن بدت علامات التراجع على « شوشة » فقالت ساخرة :

ــ اقرع ونزهي .. نصاب ابن نصاب . فاكرها باغمه . قلت لك سيبولي وانا اعرف ازاي آخذ حقي معاه .

ثم اردفت مقلدة صوت « شوشة » بلهجة ساخرة :

ــ قلت لك سيبيه .. حاديلك الحساب .. ادفع كم .

اربعة قروش .. مرة واحدة ؟ !! إنه مبلغ ضخم .. وهو ضائع ضائع .. فهذا المغامر المجنون .. لا يبدو انه يستطيع رده ، ولو بعد عشرات السنين .. بل حتى لو باع ملابسه كما كانت « الحاجة زمزم » تنوى أن تفعل فلن يوازى الثمن الدين .. فالجاكتة والطربوش والجلباب والجزمة .. وايضا الفانلة واللباس ــ بفرض انه سيمشى بلبوصا كما قالت « زمزم » ــ لن يستدر من أكرم بائع روبابيكيا .. اكثر من قرشين ونصف .

ومع ذلك ، فرغم فداحة المبلغ ، واليأس من استرداده لم يكن هناك وجه للتراجع .. فهو لم يتعود ان يعطي كلمة وينقضها .. وهو لا يستطيع ان ينكص على عقبيه بعد ما ابداه من مظاهر الشهامة أمام شرذمة المحدقين فيه .. المراقبين للمعركة من اولها ، وكذلك لا يستطيع ان يعرض نفسه لشماتة « جاد » و « الحاجة زمزم » .

إذا لا مفر من تحمل الأربعة قروش .

ومضت فترة صمت كان الكل ينتظرون فى تحفز قرار « شوشة » .. فشحاتة افندى قد مد عنقه المعرق ، ورأسه الأشيب الملقى عليه الطربوش المنهار .. ينتظر الحكم عليه فى توسل ورجاء .. و « زمزم » تمسك « الشومة » وترفع يدها على اتم استعداد لاسترجاع « شحاتة افندى » فى قبضتها .. لتنزع عنه ملابسه .. و « سيد » متأهب لخوض

غمار المعركة .. مسلط عينيه على « حنفي » عدوه الألد .. حتى إذا ما أذن للمعركة انقض عليه .

وأخيرا نطق شوشة بالحكم قائلا :

ـــ حاديكي اللي انتي عايزاه .. اربعه ساغ .. عشره ساغ .. ريال .. جنيه .. انا قلت كلمه وخلاص .. سيبي الراجل يروح لحاله .

وهزت « الحاجة زمزم » رأسها في دهش .. ونفخت من أنفها نفخة سخرية ، وقالت :

ـــ اشبع به .. اهو عندك .. إيدك على الفلوس .

ـــ تعالي نصفي الحساب سوا .. عندك تلاتين قرش حساب ميه .. كلت في الجمعه اللي فاتت بتلات قروش .. والنهارده بتلاته .. يبقى حسابي سته ساغ .. حطي عليهم اربعه ساغ حساب الراجل .. يبقى الكل عشره ساغ ، خديها من التلاتين ، يبقى لي عندك ريال .

وعضت « زمزم » على شفتيها ، إذ ساءها أن تنتهي المسألة بمثل هذه السهولة ، لا سيما وأنها كانت تعتبر حسابه المياه حسابا ميتا لن يستطيع « شوشة » استرداده .

ولم ينتظر « شوشة » ردا من زمزم ، بل مد يده مصاحبا ابنه ، دافعا عربته أمامه ، وأشار إلى « شحاتة أفندي » قائلا :

ـــ ياالله بنا .. السلام عليكم .

وسار الثلاثة مشيعين بنظرات الإعجاب من الزبائن ، وبهمهمة الحقد والتهديد من « جاد » ، وبتمتمة الدعوات السيئة من « زمزم » ... وابتعدوا عن الحانوت ، و « شحاتة أفندي » مطرق في صمت ووجوم وندم .. يحاول أن يلم أطراف فصاحته وشجاعته ليرد على جميل الرجل الذي أنقذه من براثن المرأة سفاكة الدماء .

وأخيرا من الله عليه بالحديث فقال في صوت خافت :

ـــ عدم المؤاخذة يا معلم .. أنا في غاية الممنونية والخجل .

ـــ مافيش لزوم .

ـــ سأرد لك الدين فى أقرب فرصة .. لقد طوقت عنقى ، أو على الأصح .. أغلت عنقى بجميلك الذى لن أنساه مدى الحياة .

ـــ لا تتعب نفسك برد شىء ، ولكن خذها عظة .. لا تأكل فى مسمط « زمزم » إلا على قدر نقودك .. وإلا عرضت نفسك للتهلكة ؛ إن ما فعلته اليوم هو الجنون بعينه .. ما الذى جعلك تغامر بأن تأكل ما أكلت وليس فى جيبك مليم واحد ؟ هل حقا نسيت حافظة نقودك ؟

ـــ طبعا لا .. ليس لدى حافظة نقود ، لأنه ليس لدى نقود ، فالنقود لا تكاد تستقر بين أصابعى إلا لحظات .

ـــ إذا ما الذى جعلك تقدم على ما فعلت ؟

ـــ حسن الظن .

ـــ بمن ؟

ـــ بالحاجة زمزم .

ـــ كيف ؟

ـــ هى التى أغرتنى بكل ما جرى ، هى السبب والله ، كنت أجلس على القهوة فى أمان الله ، وكنت أنوى أن أقضيها بأى شىء ، بطبق كشرى على الحساب ، بلقمة جبنة ، بلقمة حاف ؛ حتى مرت هى من أمام القهوة .

ـــ هى ؟ من ؟

ـــ الحاجه زمزم ، مرت على الرصيف تتهادى وتترجرج ، وتهتز كتل الشحم واللحم المتراصة على أردافها ؛ وأنا أحب اللحم لا سيما ما تكتل منه فوق الأرداف . ومن أجل الأعمال التى أقوم بها خلال جلوسى على المقهى « البصبصة » ولذا لم تكد تخطر الحاجه حتى بدأت البصبصه .

ـــ بصبصه ؟ .. للحاجه ؟ أليس عندك نظر ؟

ـــ أبدا !! هذه هى المصيبه ، نظرى ضعيف جدا ؛ شيش بيش ،

لا أكاد أميز إلا الأرداف المهتزة ، أتصدق أنى بصبصت ذات مره « للشيخ منصور الفقى » ، وهو يتهادى أمام القهوه بجسده السمين المربرب ؟ ألست معذورا بعد ذلك إذا أنا بصبصت للحاجه زمزم ؟ إنها على الأقل أمرأة .

ـ لا والله .. الشيخ منصور أهون ، أى رجل به أنوثة أكثر منها .

ـ صدقت ، ولكن أنى لى أن أعرف ذلك ، لقد أبصرت الخطوط والكحل فى وجهها وطيات الشحم فى مؤخرتها ، فلم أتمالك من التصفيق بيدى وتلعيب الحواجب والصياح فى طرب « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشى » وهذه هى طريقتى الدائمة فى البصبصة وهى طريقة مضمونة لا تخيب أبدا ، وبالفعل لم أكد أنتهى من الصياح حتى رنت من « الحاجه » ضحكه طويلة وغمزت بعينيها وقالت « ولا طالش ليه ؟ » .. وأنا فى البصبصه حاضر البديهه ، سريع الرد ؛ إذا لم تسعفنى أغنيه جاهز ه، انطلقت من رأسي أى شىء موزون . وهكذا أجبتها بسرعة :

يا حلو هاجر وغايب قوللى كيف أراضيك
تبعد وتهجر وتنسى تقوللى فين أراضيك

وضحكت المرأة مرة أخرى ، وقالت فى تفاخر « فى مسمط الحاجه زمزم فى درب عجور على سن ورمح » مسمط !! هكذا مره واحده ، لقد فرجت ، وكنت أظنها لا تفرج ، هذا والله صيد ثمين ، أكل وبصبصة . ماذا يريد المرء أكثر من هذا ، وأى أكله .. أكله بشبعه ، لحمه رأس ، وممبار ، ومخ ، و ... وانطلقت وراء المرأة أتابعها وأجيبها فى حماس بأبلغ عبارات البصبصة ، « يا ميت زبده ، يا ميت قشطه ، هز يا وز » وهكذا استمررت وراءها حتى بلغنا المسمط ، فاستقرت على دكتها واستقررت على مقعد أمام إحدى المناضد ، وتبادلنا الغزل ، غنوه منى وغنوه منها ، وأحسست كأنى فى بيتى ، فلقد كانت طريقتها فى المجاوبه تحمل أبلغ آيات الرضا والترحيب .. أبعد كل هذا تظننى أخشى فى الأكل لومة لائم ؟

ـــ طبعا لا .. لقد ظننت « تحت القبه شيخ » .

ـــ واي قبه .. واى شيخ ! ؟ لقد خيل إلى انى لو طلبت كرشستها هى لما تأخرت .

ـــ يا ساتر .. لا تذكرنى بكرشتها .

ـــ وهكذا وضعت فى بطنى بطيخه صيفى .. وطلبت .. واكلت ، ونجشأت .. وعند الحساب ...

ـــ دفعت انا .. لا عليك .. تعيش وتاخد غيرها .

ـــ تاخد انت غيرها : انا لم اخسر شيئا سوى الخضه ، ولكنك انت الذى خسرت ، وهذا ما يؤسفنى اشد الاسف ، والمصيبة انى لا اعرف كيف اسدده لك .

وضحك المعلم « شوشة » وأجاب برفق :

ـــ قلت لك لا تحمل هما ، ما بين الخيرين حساب ، ولكن احذر من ان تعاودها ، لا تدع الارداف تجرك مرة اخرى إلى مثل هذا الكمين . هذه المرة انتهت سليمة ، ولكن فى المرة القادمة يعلم الله كيف تنتهى .

ـــ على اية حال لن انسى جميلك ابدا ، فلو صدق ظنى فى المرأة الوحش ، فإنك قد انقذت حياتى .

وهنا كان الثلاثة قد وصلوا إلى الدرب الكائن به بيت « شوشة » .. فتوقف الرجل ومد يده إلى « شحاتة » مودعا ، وهو يقول :

ـــ اتفضل معانا .. تسقيك قهوه .

ـــ كفايه الغدا .. إن شاء الله مردوده ، وخسيرك السابق .. السلام عليكم .

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وقبل أن يدلف الرجل وابنه إلى داخل الدرب هتف الرجل :

ـــ كده ننسى طلب ستك أم آمنه .

ـــ الجبنه والبطيخ ؟

ـــ اجل .. لقد شغلتنا شحاته افندى عنها .

ـــ افندي ؟ أما زلت تصر على انه افندى ؟

ـــ الا يرتدى جاكته وطربوشا وجزمه ، لماذا لا يكون افنديا ؟

ـــ إنه نصف أفندى ، فهو لا يرتدى بنطلونا !!

ـــ بناقص البنطلون .. انه يبدو عليه آثار عز قديم .

ـــ اقسم انه ما راى العز قط .. إنه فى احسن حالاته .

ـــ دعنا منه .. هيا لنشترى البطيخ والجبنه .

وسار الاثنان بضع خطوات حتى بلغا عربة البطيخ الواقفة على ناصية الدرب ، وحيا « شوشة » صاحبها قائلا :

ـــ السلام عليكم يا معلم احمد ، نقى لى بطيخة على كيفك .

وكان المعلم « احمد » فى حالة هياج لا ينتهى منها ابدا .. ما دام واقفا على قدميه ، فهو يدور حول العربة ويربت على البطيخ الواحدة بعد الأخرى صائحا باعلى صوته :

ـــ حمار وحلاوة يا حلو .. اللى قشلوا .. ع السكين يا طيب .

وقبل أن ينتهى « شوشة » من طلبه كان صاحبنا قد اطبق بكلتى يديه على بطيخة وحبب فيها سكينه إلى النهاية ثم حركها محدثا شقا طويلا واخرج السكين وضغط على جانبى البطيخة محملقا ببصره خلال الشق صارخا فى انتصار كانه فتح عكا :

ـــ حصوه فى عين اللى ما يصلى ع النبى .. البلدى يوكل حمار وحلاوه .

كل هذا الضجيج و « شوشة » لم ير البطيخة ، ولم يعرف ما إذا كانت حمراء أم بيضاء .. ولكنه من فرط صراخ الرجل وحماسته لم يشك فى انها حمراء ، وهم بان ياخذها .. ولكن « سيد » صاح بالرجل :

ـــ ضببها .

وتردد الرجل برهة كانما يخشى أن تكشفه عملية التضبيب ، ولكن

تردده لم يطل .. وما لبث أن أمسك بالسكين فدفعه فى جوف البطيخة محدثا ثلاثة شقوق أخرى كونت مع الشق الأول مربعا ثم رمى السكين وقلب البطيخة فى كفه الأخرى جاعلا المربع او التضبيبة إلى اسفل حتى سقطت فى كفه ؛ فلم تكد تسقط حتى رفعها بكفه إلى اعلى واندفع فى ضجيجه المعهود :

ـــ احنا بياعين الحلو .. حمار وحلاوة يا طيب .

ثم اخفض يده بقلب البطيخة حتى حاذت فمه وقضم منها قطعة .. ثم اندفع يصيح مهللا كأنما لم يذق من قبل بطيخة :

ـــ عندنا الشهد .

ثم أسرع بوضع القلب مكانه مادا يده بالبطيخة إلى المعلم « شوشة » قائلا :

ـــ حلال عليك .. بالهنا والشفا .

حدث كل هذا بمنتهى السرعة وبين صراخ وضجيج لا يتركان لإنسان فرصة النظر إلى البطيخة أو تبين لونها أو مذاقها .. بل يأخذها واثقا من حمارها وحلاوتها بإيحاء من بائعها .

وتناول « شوشة » البطيخة متسائلا :

ـــ بكام .

ـــ خمسه ابيض .

ـــ نص فرنك كفايه .

ـــ والله يا معلم من أصحابها بالاربعه ابيض ، ونكسب فيها تعريفه .. يبقوا خمسه ابيض .

ومد « شوشة » يده بالنصف فرنك فأخذه الرجل وهو يقول : معلهش .. المره الجايه نعوضها .

هكذا كان يقول كل مرة .. فهو لا يكسب أبدا .. ولكنه يعوضها فى المرة القادمة .

وبعد أن وضع « شوشة » البطيخة على العربة اتجه إلى « شيحه البقال » الكائن على الناصية الأخرى من الدرب وقد بدا الحانوت حاويا لكل شيء فهو بقال ومطعم وفكهاني وحلواني وخضري وملحق به صالون حلاقة .

يبدو الحانوت بواجهته الحمراء القاتمة أو التي كانت فيما مضى حمراء ثم كسا الزمن حمارها بطبقة سوداء من الأتربة والدخان والزيت والشحم .. وقد سدت واجهة الحانوت بمنضدة (بنك) مصفح بالصاج ووضعت عليه قدرة فول ورصت بجوارها الأرغفة وبالداخل رصت علب السردين والتونة وقطع الصابون الأحمر والأبيض وعلب الزهرة وورق الملح وعلب الحلوى المصفيح ، وتوسطت الحانوت منضدة مقسمة إلى عيون وضع فى إحداها الحلاوة الطحينية وفى الباقى الجبنة البيضاء والزيتون والجبنة الرومى وأسفل المنضدة صفيحة بها طرشى افرنجى وصفيحة بها زيت وبرميل خل ، وفى ركن الحانوت رصت بعض زكائب حوت مختلف البضائع كالرز والعدس والملح الخشن ، وفى الخارج رصت بقية الزكائب وقد وضع بجوارها قفص عليه طبق به ليمون وكرات وفجل وقفص به بلح امهات ، وعلى الحائط أسندت بضعة أعواد من القصب ، وفى الجانب الآخر من الحانوت صندوق كازوزة رصت الزجاجات فى أعلاه ووضعت الواح الثلج فى باطنه ، وعلى الرصيف بجوار صندوق الثلج استقر صالون الحلاقة مفترشا الأرض ، وقد جلس صاحبه الأسطى « عيد » مزين « درب عجور » التقالى .

والقى « شوشة » التحية على الجمع المحتشد أمام الحانوت :

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وتعالت التحيات المتناثرة من هنا وهناك :

— أهلا وسهلا .

ــ ازيك يا معلم شوشه .

ــ فينك من زمان ! ؟

وبعد أن أجاب « شوشة » و « سيد » بما تيسر من الردود قال « شوشة » للمعلم شيحة :

ــ وحياتك تدينى حتة جبنه حلوم بقرش .

وعقب « سيد » على قول ابيه :

ــ واتوصى . . دي لخالتك أم آمنه .

ــ واحنا لنا بركه إلا هي .

وتسلم « شوشة » الجبنة فسلمها لسيد ، وسار الاثنان متجهين إلى البيت .

ماسورة معدنية موضوعة فى أعلاه وموصلة بين خارجه وداخله ، يضع الشارب فمه عليها ويشفط فتندفع المياه فى فمه .

وثانى تلك المغريات شجرة التوت الضخمة القائمة بجوار السبيل والمادة فروعها لا لتظلل السبيل وحده بل لتظلل الدرب بأجمعه .

والدرب لا يزيد على بضعة بيوت على اليمين واليسار وبيت فى المواجهة يستقر أمامه السبيل والشجرة ، وسكان الدرب هم أنفسهم أصحاب الحوانيت الكائنة فى خارج الدرب . مثل « الخشت الجزار » ، و « زين الخضرى » ، و « شيحة البقال » ، و « عيد المزين » ، و « أحمد الفكهانى » ، يزيد عليهم بضعة سكان آخرين من أصحاب الصنعة مثل « محمود مسطرين » البنساء ، و « على الحمى » المبيض ، وحسسين القرداتى ، وهم كلهم تلمهم أواصر الجيرة فتجعلهم أشبه بأسرة واحدة يجمعها فى السكن درب القط ، وفى المأكل مطعم الامرا أو « مسمط زمزم » ، وفى التسلية مقهى « قدورة » الكائن فى شارع البغالة .

وبيوت الدرب عتيقة رثة حطت عليها كف البلى والقدم ، فهى متشققة الجدر مفتتة البياض ، يخال الناظر إليها أنها توشك أن تنقض ، والدرب لا يخلو من مظاهر القذارة والفقر التى اتسمت بها غيره من الدروب فى تلك الأحياء الوطنية ، وإن كان يميزه عنها تلك الشجرة والسبيل المستقران فى نهايته واللذان يخلعان عليه شيئا من الرونق يمحو إلى حد ما اثر عروق الملوخية المتناثرة امام إحدى دوره وبقايا تصفية الطماطم من قشر وبذر وفضلات طعام وقشر بصل أمام الأخرى .

بوجه عام كان « درب القط » له رونقه الخاص لا سيما فى نفوس « سيد » وأصحابه ، اما بيت « سيد » فهو لا يختلف كثيرا عن بقية بيوت الدرب . . وكان يتكون من طابقين : الطابق الأول من الحجارة ، والثانى من خشب البغدادلى الظاهر فى بعض نواحى الجدران فى المناطق التى تساقط بياضها ، وباب البيت خشبى غليظ بنصفه الأعلى قضبان

الفصل الثالث

معركة فى درب القط

لنتتبع الرجل وابنه وهما في طريقهما إلى البيت ولنتوقف برهة في الدرب ولنقم خلال ربوعه بجولة قصيرة . يقع البيت فى « درب القط » وهو درب صغير متفرع من « درب عجور » الرئيسى الكائن به « مسمط زمزم » و « وجزارة الخشت » ، ومحل «زكى زين الخضري» ، وصف من الحوانيت ينتهى ببقالة « شيحة » الواقعة على كلا الدربين « درب عجور » و « درب القط » . . وإن كان بابها الكائن على الدرب الأخير لا يفتح أبدا .

و « درب القط » درب ضيق يكاد السائر فيه يلمس اجنابه لو مد ذراعيه بحذاء كتفيه ، وهو غير مرصوف ؛ ارضه طينية مدكوكة مرطوبة ، مسدودة الواجهة لا منفذ به ؛ فهو والأمر كذلك غير مطروق إلا لساكنيه أو للباعة المتجولين الذين يدخلونه فيطلقون نداء أو نداءين مثل « حبشى يا ملوخيه » أو « لا تين ولا عنب زيك يا خسانى يا امهات » ثم ينصرفون عنه إذا لم ينادهم احد .

وهو أشبه بفناء خاص منه بطريق عام ، ويعتبر ملعبا لأهل الحى من الصبية ، فهو مأمون من العربات ، بعيد عن المارة ، وبه من المغريات ما يجعله مقصدهم وملجأهم .

وأول هذه المغريات وأهمها السبيل الحجرى الكائن فى الواجهة المسدودة ، وهو عبارة عن خزان من الحجر ذى صنبور لا يزيد عن

حديدية وراءها ضلفة زجاجية كسرت وسقط عنها زجاجها منذ أمد بعيد ، والباب مفتوح على مصراعيه ، بلا أمل فى غلقه ، فقد تراكمت الاتربة حول أسفله حتى أضحى مدفونا فى الأرض ، ولم يعد يتبين حده السفلى فبدا كجذع الشجرة نابتا من الأرض ، والباب لا لون له .. والواقع أن البيت كله .. بل الدرب كله لا لون له .. أو هو بلون الارض إذا كان للأرض لون .

وعلى الباب والجدران كتب الصبية كل ما يخطر بذهنهم من الكتابة من هجاء ومديح وإعلانات وآيات قرآنية واسماء واغنيات ، وان كانت الجمل الغالبة فى كل هذه الكتابات هى « سيد جدع » ، وواضح أن كاتبها لابد أن يكون « سيد » نفسه . وفى أعلى الباب ، وفى الناحية اليمنى منه وضع رقم البيت أو ما كان فيما مضى رقما ، ثم انمحى بفعل حجارة الصبية عند مبارياتهم فى التنشين وإصابة الرقم .

فإذا تجاوزنا الباب وجدنا فناء رحبا بعض الشيء أو رحبا بالنسبة لضيق الدار ، وصادفنا فى مواجهته ، ومن ناحية السلم عجوزا متشحة بالسواد تتربع على حجر مستطيل مطرقة فى وجوم وشرود ، وقد اتكأت بخدها المجعد على راحة كفها اليسرى ومطبقة بمرفقها على ركبتها وأمسكت بيمناها عصا من الجريد تحركها يمنة ويسرة بين آونة وأخرى وأمامها فى منتصف الفناء أوزتان تنقران بمنقارهما هنا وهناك ، وفى حديد الدرابزين ربطت « ماعزة » تطلق صيحتها الممدودة بين آونة وأخرى فتبدد سكون الفناء .

وسمعت العجوز وقع الأقدام وقرقعة المجل على الارض ، فرفعت رأسها ، ثم حولته نحو الباب ، ولكن عينيها لم تثبتا على شيء بل أخذتا تترجرجان فى مقلتيها .

كانت العجوز ضريرة .

ومع ذلك فلم تكن تخطىء قط وقع أقدام رجليها ، كبيرهما وصغيرهما ، « شوشة » و « سيد » : زوج ابنتها ، وحفيدها .

ودفع « شوشة » العربة في جانب الفنان واقترب من العجوز « أم آمنة » منحيا الاوزتين جانبا وقال بلهجة رقيقة :

ـــ العوافه يا ام . . جبت لك الجبنه والبطيخ .

ـــ بعافيك يا ابني ، إن شاء الله ما اعدمكش . احضر الطبلية ؟ . ست « أم على » مرات الحاج محمود عامله بصاره وقالت انها حاتبعت لنا طبق . اطلع يا سيد هاته .

ـــ احنا كلنا ، سبقناك عند الحاجه زمزم .

ـــ بالهنا والشفا . وتعبت نفسك ليه بالجبنه والبطيخ ؟ كنت اقضيها باى حاجه ؟

ـــ دى حاجه بسيطه يا أم آمنه . . تدخلى تاكلى جوّه ؟

ـــ خليني هنا في الطراوه .

ـــ هات الطبليه لستك يا سيد .

ـــ وعلى إيه طبليه . اديني لقمه فيها حتة جبنة وشقة بطيخ .

وانبرى « سيد » إلى الداخل وبعد لحظة عاد بالطلبية فوضعها امام جدته وفي نفس اللحظة سمع وقع أقدام « قبقاب » يقرع ارض السلم الحجرى هابطا من الدور العلوى ، وما لبث القوم حتى ابصروا « زكية » بنت « المعلم خشت » تتهادى حاملة « طبق البصارة » قائلة :

ـــ العوافه يا جماعه . . الطبق امه يا خالتي الحاجه .

واجابت أم آمنة شاكرة :

ـــ كتر خيرك يا اختي . ليه التعب دا كله ، خلوه للعشا بقى .

وتساءلت زكية :

ـــ ليه يا خاله ؟

ـــ عمك شوشه وسيد اتغدو .

ـــ طيب ما تنزل تاكل سوا . . ابويا متغدى في الدكان واخويا في الكتاب . . مفيش غيري انا وامي . . اما اقول لها تنزل تفتسح نفس بعض .

ثم صاحت تنادى أمها :

ـــ أم .. أم .

وأجابتها « أم على » من أعلى السلم :

ـــ إيه يا زكيه ؟

ـــ خالتى أم آمنه حتاكل لوحدها ما تجيبى الغدا وتنزلى ناكل معاها .

ـــ طيب يا بنتى ، نازله حالا . حطى الطبق عندك وتعالى خدى بقيت الحاجه .

وبعد لحظات كان السماط قد مد فى الفناء وقد التف حول الطبلية : أم آمنة ، وأم على ، وزكية .

وكان الثلاثة حول الطبلية يمثلن الطيبة المصرية الأصيلة والكرم الطبيعى غير المفتعل ، كرم الفقير يجود بالقلة حتى يصير معدما .

كانت « أم على » زوجة « المعلم خشت » وابنتها « زكية » يعتبران نفسيهما مسئولتين عن راحة « أم آمنة » .. كأنها أمهما . والواقع أن العجوز الطيبة كانت تبدو وكأنها أم لكل من فى الدار ، بل كل من فى الدرب ، فما سمعها أحد ذات مرة تغتاب إنسانا أو تعيب فى جار أو جارة ، وما خرجت من فيها إلا الدعوة الصالحة ، أما دعوة السوء فكانت تستبدل بها دائما قبل أن تغادر شفتيها « الله يسامحه » وكان قلبها يعفو قبل أن تعفو شفتاها .

كانت العجوز حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، سديدة الرأى ، مخلصة النصح ، شديدة القناعة ، كانت تشعر بأن عماها عبء على من حولها وهى التى تعودت دائما أن تحمل عبء الجميع ، ولذلك لم تكن تحاول أن تطلب شيئا حتى لا تزيد من عبئها ، بل كانت تحاول أن تقوم بأقصى ما تستطيع به من خدمات لمن حولها .

كان « سيد » أشد الناس حبا لها ، كما كانت هى تخصه بأكبر قدر من عطف قلبها الكبير ، وحب نفسها المطوفة الحنون .

كانت هي لا تفتأ تقدم إليه كوب اللبن الذي تحلبه من الماعزة ، وكان هو لا يفتأ يجمع لها قشر البطيخ من الدور المجـاورة لتخرطه لاوزتيها ، وفى كل ليلة قبل ان يذهب للنوم ليرقد بين احضانها .. كان يجلس بجوارها مصغيا لاقاصيصها الممتعة التى لا ينضب لها معين .

وكان كثيرا ما يحلو للصبى أن يقارن بينها وبين « الحاجة زمزم » .. بين النقيضين العجيبين . ويسائل نفسه : كيف يكون خالق الاثنتين ربا واحدا ؟ كيف يكون صـانع هذه الكتلة من الخبث والشر والانانية والحقد . هو نفسـه خالق هذا الجدول المفعم بالطيبة والوفاء والتضحية وانكار الذات ؟

وما فائدة حج بيت الله لمثل الحاجة زمزم ؟ .. وايهما افضل : زمزم مع سبعين حجة أم أم آمنة بلا حجة واحدة ؟

وانتهى الثلاثة من الغداء وكان « شوشة » قد توضأ وصلى وتمدد على فراشه فى إحدى حجرات الدار الثلاث .

ورفعت « زكية » الطبلية ، ووضعت بقايا الاكل ، امام الماعز والاوزتين .

وارتفع صوت « سيد » من الداخل متسائلا :

ــ يام .. انت شيلتى كيس البلى من تحت المخده ؟

واجابه صوت أم آمنة .

ــ شوفه عندك تحت المرتبه يمكن اكون حطيته بعـد ما نفضت المخدات .

وعاد الصوت يجيب ضاحكا :

ــ اهوه .. لقيته .. خضتينى يا شيخه .. افتكرته ضاع كانت حاتبقى حكايه ، وانا ناوى النهارده اشولهم كلهم .

ــ انا جيبتلك نيكل يعجبك قوى من محمد بتاع الروبابيكيا .

ــ هوا فين ؟

واقبل « سيد » يعدو في لهفة مكررا :
ــ فين هوا ؟
ــ أهو .. إيه رايك بقى ؟
ــ يا سلام يام ! مدهش .. انت لازم كان أصلك زمان لعيبة بلى .
وجلست النساء الثلاث في الفناء تتجاذبن الحديث والاقاصيص .
واستلقى « شوشة » في فراشه في الحجرة المعتمة محدقا في السقف ذي العروق الخشبية الهابطة من المنتصف تحت ثقل السقف والإعياء من مر الزمن . واخذ ينقل بصره بين العروق الخشبية والجدران الحجرية المشققة ، وقد شرد ذهنه في حساب القرب التي وزعها .. خمس واربعون في السراية . اثنتا عشرة عند أم عبد الله .. خمس عشرة في بيت الحكيم .. وعشر في بيت السبكي .. وثلاثون في المطعم .. و .. و .. واغمض عينيه وراح في إغفاءة .
وفي الوقت نفسه كان « سيد » قد اخرج البلى من تحت المرتبة وفرشه فوقها وجلس يحصيه واحدة واحدة .. لقد كسبه في اسبوع ما يقرب من مائتي بلية .. كان كل ما يملك عشر بليات ، والآن قد أضحى معه ما يزيد على الثلاثمائة .. واليوم إن شاء الله سيزيدهم إلى اربعمائة .. فهذا النيكل الذي احضرته له « ام آمنة » من بائع الروبابيكيا سيقش جيدا .. ستكون اليوم معركة كبرى ، ولكن الخوف من الا يقبلوا هذا النيكل . على اى حال لديه نيكل آخر اصغر منه .. أين هو ؟ لقد وضعه في الكيس .
وصاح « سيد » مناديا بأعلى صوت :
ــ ام .
واجابته ام آمنة مهدئة :
ــ وطي صوتك يا سيد الحسن ابوك زمانه نام .
واقبل عليها « سيد » يسالها بصوت منخفض :

ـــ فين النيكل القديم ؟
ـــ وعايزه ليه القديم ؟
ـــ يمكن ما يرضوش العب بده .
ـــ ليه ؟ ماله ؟
ـــ كبير قوى .
ـــ القديم خده الراجل .
ـــ يا نهار اسود .. وايه العمل ؟
ـــ ولا اسود ولا ابيض ، استنى لبكره وانا اجيبهولك منه .. أهو بيفوت كل يوم .
ـــ استنى لبكره .. انتى مجنونه ؟ اللعب النهارده .. الساعه اربعه .. انتى فاكراها إيه ؟
ـــ وانا ايش عرفنى ان اللعب النهارده .. وانهم مش حايرضوا بده ؟ انت مش قلتلى انك نفسك فى نيكل كبير ؟
ـــ آه .. لكن ما هو الخوف لا ما يرضوش بيه ..
ـــ يمكن يرضوا .. على العموم خش دور فى صندوق الكراكيب اللى جنب القرب القديمه والسطايح يمكن تلاقى نيكل والا بنوره .
وعدا « سيد » إلى صندوق الكراكيب والذى جميع فيه « شوشة » القرب القديمة وبعض انقاض واشياء لا نفع لها .
وبعد برهة انطلق « سيد » من الحجرة المتربة المظلمة وهو يصيح فرحا :
ـــ لقيتها .. بنوره مدهشه .. فاكره ؟ مش كنت قلت لك من شهرين كدا ان بنوره ضاعت منى .. اهى هى دى .
ـــ الحمد لله .. هدى بالك ؟
ـــ انا خارج بقى .
ـــ يابنى اقعد استريح .. استهدى شويه ، دا العفاريت بيقيلوا ..
ـــ وانا عفريت ؟

ـــ العن . . اقعد الدنيا حر . . لما الشمس تهدا شويه . . دا المثل قال اتغدوا واتمدوا .

ـــ ايوه اتمدى طول النهار اللى قولى لنا فى أمثال . . فيه حاجه اسمها اتغدى واتمدى .

وانطلق « سيد » من باب الدار إلى السبيل والتوتة .

وكان أول ما فعله هو أن مد فمه على البوز المعدنى واخذ يشفط حتى اندفع الماء فى فمه فاخذ يتسلى بالشرب . وتلفت حوله عله يجد احد الصبية من الصحاب قد أتى . . فلما لم يجد احدا بدأ يتسلى بتسلق التوتة ، وفيما هو يجلس على احد فروعها لمح « دقدق الحمى » ابن المعلم « على الحمى المبيض » وهو يحمل طبقا من العسل والطحينة ويتجه إلى بيته ، فأطلق صفيرا طويلا بوضع سبابتيه فوق لسانه المثنى داخل فمه .

وعرف دقدق الصفير فتوقف والتفت تجاه السبيل ولما لم يجد أحدا هم بمتابعة السير ولكن سيدا صاح به ضاحكا :

ـــ أنا هنا يا قرل . . فوق الشجرة . . رايح فين ؟

ـــ حاودى العسل والطحينة البيت .

ـــ طيب وديهم وتعالى قوام وما تنساش البلى بتاعك .

ـــ حاضر .

ولم يكذب « دقدق » فى قوله « حاضر » فما نظن الحمامة كانت تستطيع التخلص من طبق العسل والطحينة والعودة إلى « سيد بمثل هذه السرعة .

وكان أول ما فعل سيد هو ان ابرز النيكل الجديد قاذفا إياه فى الهواء بإعجاب متناه ثم تلقفه بحركة ماهرة قائلا :

ـــ شفت ده ؟ .

ـــ إيه ده ؟ . . حتلعب بيه ؟

ـــ أيوه .

ــ ليه ؟ هيه فته ؟

ــ ماله ؟ ملعبش بيه ليه ؟

ــ ابقى العب بيه لوحدك .. ده نيكل .. والا جله حديد ؟ ؟ لا يا عم يفتح الله .. أنا مروح أودى البلى بتاعى أنا مش مستغنى عن نفسى .

ــ اقعد ما تبقاش مره .

ــ لا يا عم .. اذا جت لحد النيكل بتاعك .. أنا مره وابن مره كما .. اوعى خلينى أروح .

ــ طيب اقعد بس خلينا نتكلم .. هى الدنيا طارت .. بلاش النيكل اللى مخوفك ده .. إيه رأيك فى البنوره دى ؟ تنفع والا لا ؟

ــ أيوه كده .. معقول .

ــ طيب وإذا لعبنا شركا ينفع النيكل والا ينفعشى ؟

ــ ينفع اوى .

ــ طيب لما اطلعه قدام زكى وحريشه وعبد الله وبقيت الولاد .. ابقى اسكت انت .. واحنا نلعب شركا .. بس اسمع اما اقول لك ...

وقطع عليهما حديثهما صفير صادر من ناحية الدرب ، ثم صوت رفيع حاد يصيح تقلا بلهجة طويلة منغمة :

ــ سيد يا ويكا .

وانطلق صفير « سيد » مجاوبا الصفير وعلا صوته مجاوبا النداء صائحا :

ــ حريشه يا ويكا .

واقبل « حريشة » يعدو ويقفز من أول الدرب حتى وصل إلى السبيل فجلس على الحجر الذى افترشه زميلاه . وكان أول ما قاله « سيد » هو سؤاله :

ــ فين زكى امال ؟

ــ فى الدكان .

ـــ ليه ؟ .

ـــ المعلم سلامه ما رضيش يسيبه .

ـــ وانت جيته ازاى ؟

ـــ قاللى روح هات بقرش كرات فخدت بعضى وتنى جاى على هنا .

ـــ والكرات ؟ .

ـــ بعد اللعب يحلها ربنا .. أمال فين الباقى .. فين عبد الله الميرجى وعلى الخشت ؟

ـــ زمانهم جايين .. لسه مخرجوش من الكتاب .. شفت النيكل ده ؟

وقذف النيكل فى الهواء ، وصاح حريشة مستنكراً :

ـــ يا خبرك اسود .. ده نيكل ده ؟ . دا لو شافه المعلم سلامه يدق بيه الطعميه .

ـــ يعنى ما ينفعش ؟

ـــ ينفع والا ما ينفعش ، انا مالى يا عم .. انا معاييش ولا بليه .

ـــ امال جى تنيله ليه ؟

ـــ انا مش قلت لك الصبح .. قلت حا اسلفك .

ـــ وتردهم امتى ؟

ـــ أما ربنا يعطينا .

ـــ وامتى ربنا حا يعطيك ؟

ـــ اسأله .. أهو قدامك .

ـــ اسأله انت .

ـــ وانا مالى .. هوا انا اللى حاخد البلى ؟ .. اللى حايبعتوا ـــ إذا بعت ـــ ابقى خده .

ـــ طيب بلاش غلبه .. خد .. آدى خمسه .. عشره .. خمستاشر .. عشرين .. كفايك كده ؟

ـــ هات كما عشره .

ـــ وادي كمان عشره . . إيه رايك بقى ؟ ! تخليني العب بالنيكل ده ؟

ـــ ليه ؟ مجنون ؟ اضيع البلي بتاعي ؟ شـــوف لك نيسكل غيره والا أروح .

ـــ أما ضلالي . . احنا مش اتفقنا أن انا اسلفك والعب بالنيكل اللي يعجبني ؟

ـــ ما اتفقناش ولا حاجه .

ـــ تنفع البنوره دي ؟

ـــ آهي تمشي . . ياللا بينا .

ـــ استنى شويه أما يبجى الباقي . . وهوا دا يبقى لعب ده . . لما اكسب التلاتين بليه اللي انا مديهم لك ، والتلاتين بليه اللي جبلة الواد دقدق ، استنى لما يبجى الخشت والمعيرجي دول تلاقيهم متريشين - وحالتهم نجف .

وقبل أن يجيبه حريشة . . ظهر علي الخشت ومحمود زين ومحمد مسطرين ، وقد اقبلوا من باب الدرب يعدون بالجلاليب والصنادل والطرابيش ، وقد امسك كل منهم لوحه الصفيح بيده . . ولم يكد يراهم سيد حتى قفز واثبا وصاح فيهم :

ـــ ياللا يا وله منك له قوام ، احنا مش فاضيين لكم .

ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان زين ومسطرين قد قذفا بلوحيهما وطربوشيهما ، وخلعا صندليهما ، واقبلا يعدوان وكل منهما يشخشخ بكوم البلي في جيب الجلباب .

وهكذا انتظم عقد الصبية : سيد ، ودقدق ، وحريشة ، ومحمود ، ومحمد ، ولم يبق سوى على الخشت الذي طالت غيبته في الدار ، وعبد الله المعيرجي الذي لم يبد بعد في الدرب .

وانطلق « سيد » يستعجل « الخشت » وكان يقطن في نفس دارهم في الطابق الاعلى ، ولم يكد يبلغ الفناء ، حتى سمع صوت صياح « على » وهو يقول في عناد :

ـــ حاخده .

ـــ إياك .

ـــ والنبي لأنا واخده .

ـــ يا واد سيبه . ابوك ما عندوش غيرة ويمكن يحتاجه في مشوار كده والا كده .

ـــ ده مقطع .. ومهريد .

ـــ اديني قولتلك سيبه ، وخلاص .. لما اشوف حاتسمع الكلام والا لا .. حاكم أنت ما تجيش بالذوق ابدا .

ـــ ايه هوا ده .. هوا انتي كل حاجه لا لا .. والله لانا واخده ، واعملي اللي تعمليه .

ـــ والنبي لو خدته لانزل اعجنك ، اديني قولتلك اهو ، امشي انجر .. هوا انت كل يوم لك هليله ؟ ! لازم تفرج علينا الجسيران وجيران الجيران ، هوا ما فيش في الحته أولاد غيرك ؟ ياخي جاتك نايبه .

ـــ حاخده .

ـــ برضك بتقول حاخده ؟

ـــ امال العب بايه ؟

ـــ أنت مش امبارح لسه واخد واحده ؟

ـــ عملتها وضاعت .

ـــ وعلى كده لازم لك كل يوم فرده ، تعملها وتضيعها .

ووقف « سيد » يستمع إلى المناقشة ، وقد ضاق صدره ، واخيرا جذب « علي » من يده وصاح به :

ـــ ياللا يا اخي بلاش تضييع وقت .

ـــ اسكت انت ، لازم آخدها .

ـــ ايه هيه دي اللي لازم تاخدها ؟

ـــ بتول لها حاخد فردة شراب من بتوع ابويه ، عشان أعمل كوره شراب ، مستخسراها فيه .

ـــ يا أخي مش وقته ، احنا مش حانلعب كوره النهارده حانلعب بلي .

ـــ لا . . أنا حالعب كوره .

ـــ يا علي يا خويه ، ما تبقاش زي الشريك المخالف . . احنا كلنا حانلعب بلي .

ـــ أنا حالعب كوره .

ـــ وحدك ؟

ـــ وحدي .

ـــ ما تبقاش تلم ، خلي لعب الكوره لبكره ، ما حيكش النهارده .

ولم يجبه الخشت ، بل عاد يصيح بأمه :

ـــ احدفي الشراب يا أم .

واجابت أمه ، وقد نفد صبرها :

ـــ يا واد اسكت بقى وجعت دماغي ، امشي بالتي هي احسن . امشي لاحسن انزل انفسك ، اصحى لو مسكتك مش حاتمسكك علبة .

ـــ احدفي الشراب يا أم .

وهنا سمع وقع أقدام « أم علي » تهبط منقضة . . وكانت « أم آمنة » قد جلست في الفناء تنصت إلى المعركة . . وشمت من وقع أقدام « أم علي » بوادر خطر ، فلم تجد بدا من التدخل فصاحت بعلي :

ـــ تعالى ياخويا خد فردة شراب عندي اهي .

ثم نزعت من إحدى ساقيها فردة شراب . . كانت تقيها الروماتزم ، وقالت لام علي :

ـــ مفيش لزوم يا ام علي . . اتسري الشر ، كلهم كده دماغهم ناشفه .

واخذ « علي » فردة الشراب وانطلق يعدو من البيت هاربا .

ووصل الاثنان « على » و « سيد » إلى السبيل حيث بقية الثلة .. وصاح على :

ـــ عايزين شوية شراميط نحشي بيها الشراب .

وصاح « سيد » وقد نفد صبره :

ـــ يا على يا خويه مافيش لزوم النهارده للكوره دي !

ـــ يا أخي انت مالك ومالي .. إذا كنت عايز تلعب بلي العب وحدك .. انا حالعب كوره .. من فيكو يحب يلعب كوره معايا ؟

وانقسم الجمع قسمين : دقدق وحريشة في جانب سيد ، ومسطرين وزين في جانب الخشت .

وزاد حنق سيد فقد وجد أن الجانب السمين الذي به كل الفائدة في لعب البلي قد انحاز إلى على ، وانه لو استمر في عناده فلن يكون هناك فائدة في اللعب ، ولن أقصى ما يمكن أن يربحه هو الثلاثون بلية التي يملكها دقدق الغلبان .

ووجد أن اللين والرفق أجدى عليه ، فقال لعلى في رقة ظاهرة :

ـــ يا سيدي ما تزعلش بدل ما نقسم البلد نصين نمشي رايك ورايي .. نلعب كلنا كوره سوى وبعد ما نخلص من الكوره نلعب كلنا بلي .

ـــ أيوه كده .. مستعد .. ياالله نعمل الكوره .

ـــ اصبر شويه وأنا أجيبلك شويه شراميط .

وانطلق يعدو إلى البيت فوجد أباه قد ارتدى جلبابه النظيف وهم بالشروج لقضاء بعض المصالح والجلوس على مقهى قدوره .

ولمحه أبوه وهو يحمل بعض الخرق فصاح به :

ـــ على فين ؟ . حاتعمل أيه بدول ؟

ـــ حاعمل كوره شراب .

ثم انطلق إلى السبيل .

وكان « سيد » ماهرا في كل شيء .. ويدخل ضمن نطاق مهارته .. صنع الكور الشراب .

ودفع الخرق في قاع الجورب ودكها جيداً ثم ربط الجورب وقلبه حولها وأخذ يقرعها في حجر السبيل حتى تزداد صلابة ودكا ، وعاد يربط الجورب مرة أخرى ويقلبه . واستمر يضرب ويربط ويقلب حتى انتهى من عمل كرة كبيرة مستديرة صلبة ولم يبق سوى تخييط حافة الجورب من أجنابه .

وتطوع « دقدق » بسرقة إبرة وخيط ، وانتهت العملية وبدأ الاستعداد للعب .

وصاح « سيد » متسائلا :

ـــ حا تلعبوا بالرجل والا بالايد ؟

وصاحت الأصوات .. بردود متناقضة « بالرجل » .. « بالايد » ، « بالرجل » ، « بالايد » .

ولكن « سيد » كان ينتظر القول الفصل من صاحب القول الفصل وهو « على الخشت » .. فقد صمم على احترامه ومداراته حتى يزج به في لعب البلي ويربح منه ما تيسر ربحه .

وقال « على الخشت » في ثقة واعتداد :

ـــ بالايد .

ـــ يالله نقسمها .

وصاح دقدق :

ـــ « سيد » قصاد على .

ولكن « سيد » لم يكن يود أن يدخل في خصومة مع « على » قبل البدء في لعب البلي ، ولذا فقد فضل أن يكون في جانبه رغم رغبته الدائمة في تحديه .

وقبل « على » التحدى وقال :

ـــ نط قصادى .

ولكن « سيد » قال متخابثا :

ـــ لا يا عم .. شوف واحد قدك ينط قصادك .

وسر « علي » من هذا التراجع ، وصاح متفاخرا متحديا :
ــ مافيش فيكو جدع ينط تصادى ؟
وقفز « دقدق » أمام « الخشت » صائحا :
ــ ليه جميص ! . أنا تصادك .
ووقف كل منهما تجاه الآخر ثم أخذا يقتربان ببطء وقد وضع كل منهما قدمه أمام الأخرى ، وظلا يقتربان بالتناوب ، ولصق كعب قدمه في أصابع الأخرى ، وظلا يقتربان حتى انتهت المسافة بينهما ، وكان « دقدق » آخر من وضع قدمه فصاح :
ــ أنا حاختار .
ــ اختار .
ــ اخترت سيد .
قالها بفوز وظفر ، ولكن « سيد » وجد أنه سيصبح بهذا الاختيار الغبي خصما لعلى ، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .
فصاح بدقدق ناهرا :
ــ شوف لك واحد تاني . . بلاش مرازيه .
وفوجيء دقدق برفض سيد زمالته فصاح به في غضبه :
ــ عنك ما جيت . . يمتى القليمه . . اخترت زين .
وصاح على :
ــ اخترت سيد .
وابتسم « سيد » مرحبا :
وصاح دقدق :
ــ اخترت حريشه .
ــ اخترت مسطرين .
ولم تكد التقسيمة تنتهي حتى سمع في أول الدرب صفير طويل ، وبعد لحظة ظهر عبد الله المبرجي يعدو بأقصى سرعة ، وهو يصيح باللهجة ذات اللحن والنغم :

ـــ سيد يا ويكا .. حريشه يا ويكا .. خشت يا ويكا .. الخ .

وبعد لحظة كان يقف بينهم لاهثا ، وهو يهز البلى فى جيبه قائلا :

ـــ مين يلعب ؟

وقال له سيد :

ـــ احنا حانلعب كوره شويه وبعدين نلعب بلى .

ـــ زى بعضه .. العب معاكم .

ـــ بس مالكش محل .. عشان احنا قسمناها تلاته قصاد تلاته .

ـــ لكن انا لازم العب .

ـــ شوف لك زميل .

ـــ واجيبه منين ؟

وضاق صدر « سيد » فصاح به :

ـــ ياتشوف لك زميل يا تتنيل تقعد لغاية ما نخلص .

ـــ اتنيل انته .

ولو كان « سيد » فى غير هذه الظروف لما تردد فى ضربه ، ولكنه كان يريد أن ينتهى لعب الكرة على أية حال حتى يبدأ لعب البلى ، ولذا فقد كظم غيظه وقال له فى رفق :

ـــ الله يسامحك ، خش العب بدالى ، أنا مش حالعب .

وتأثر « عبد الله » برد « سيد » فقال له :

ـــ ما تزعلش يا سيد . العب انت .. أنا حاستنى .

ـــ لا والله لانت اللى لاعب .

ـــ مش ممكن .. انا حاقعد اتفرج .

وبدأ اللعب بعد أن انتقوا قطعة حجر صغيرة وضعوها على جانبها لتكون « ميس » وكان « تيم » سيد وعلى هو « التيم » الذى سيقف بجوار الميس وليبدأ اللعب .

وامسك على الكرة وصاح : « أول سنو » ثم رفع الكرة بيده اليسرى الى أعلى وضرب إلى الأمام باليمنى .

وكانت الضربة عالية فتلقفها « حريشة » قبل أن تسقط إلى الأرض وصاح مهللا :

ـــ انزل .

ونظر « سيد » إليه في غيظ ، ثم قال لعلى مؤنبا :

ـــ ما كانش حقك تضربها عليوى كده .

ونزل « تيم » سيد ليتلقف الكرة ووقف « تيم » حريشة بجوار الميس ، ثم بدأ حريشة الضرب صائحا :

ـــ أول سنو .

واندفعت الكرة متدحرجة على الأرض حتى لا تعطى « التيم » الآخر فرصة تلقفها ، وأمسك على بالكرة يصوبها نحو الميس ولكنها أخطأته ممرت بجوار الحجر دون أن تصيبه .

واستمر « تيم » حريشة في اللعب : ثانيه سنو .. تالته سنو .. أول شكا .. ثانيه شكا .. تالته شكا .

كل ذلك و « على » يستولى على الكرة ، يدفعها كل مرة نحو « الميس » فتخطئه حتى بلغ « التيم » أول دقو .. ثم أول ودنو .. وأول كحكو .. وهنا لم يطق « سيد » صبرا فقد كادت الغلبة تتم وقال لعلى في رفق :

ـــ أدينى الكوره أضربها المره دى .

وأعطاه « على » الكرة ، ولم يحاول « سيد » أن يدحرجها بتأن حتى يضمن الاصابة ، بل أمسك بها ، ثم قذفها بعنف قذفة عالية جعلت الكرة تهبط على الميس باصابة مباشرة أطارته من موضعه .

وهكذا قلب انتصار « تيم » حريشة إلى هزيمة ، واحتل « تيم » سيد مرة أخرى « الميس » .

وبدأ « سيد » اللعب بسرعة ، وفي بضع دقائق كان قد وصل إلى « كحكو » ، وانتهى الدور بنصر تام .

وصاح سيد :

ــ بالله بينا على البلى . ارسم الترنجيله يا حريشه .

وأسرع « حريشة » بقطعة حجر ، فخط بها « الترنجيلة » في الأرض راسما مثلثا متساوي الأضلاع .. وعلى بعد بضعة خطوات منه رسم « اللين » اي الخط الذي يبدءون منه اللعب .

ووقف الجميع حول « الترنجيلة » وصاح سيد :

ــ تلعبوا كام ؟

واجابه على الخشت :

ــ خمسه .. خمسه .

ــ وجب .. خمسه خمسه .

واخرج خمس بليات من الكيس فوضعها داخل « الترنجيلة » ، وحذا الباقي حذوه فامتلأ المثلث بالبلى . ثم بدءوا يقذف كل منهم النيكل ، وهو واقف بجوار « الترنجيلة » في اتجاه « اللين » ليروا من منهم اقرب إلى « اللين » حتى يكون البادىء باللعب .

وعندما حل دور « سيد » قذف النيكل الكبير ببساطة في اتجاه « اللين » ونظر خلسة إلى زملائه ليرى تاثيره عليهم ، ولكنه لم يكن في حاجة إلى هذه النظرة فقد صاح « على » ثائرا :

ــ إيه ده ؟ حاتلعب بيسه ؟ .. ليه ؟ .. كروديات ؟ .. شيل النيكل ده .

وبهدوء أجاب سيد :

ــ طيب ما تزعلش .. حاشيله ، حقك على .. حالعب بالبنوره ، مبسوط يا عم ؟

ثم اتجه إلى اللين فتناول النيكل وقذف البنورة بدله .

وكان « حريشة » اقربهم إلى اللين فوقف بجواره وبدأ التصويب إلى « الترنجيلة » ، ولكن النيكل مر بجوار حافتها دون أن يصيب شيئا من البلى .

وتلاه على الخشت ، ثم زين ومسطرين . وحل الدور على « سيد » . وقبل أن يقذف بالبنورة صاح فى ثقة واعتداد :

ـ عليك وعلى البلى .

وانبرى له « على » معترضا :

ـ مافيناش من قتل .

ـ كله ليك ، وكله ليه .

ـ ماقولتش م الأول ليه ؟

ـ أدينى بقول لك أهو .

ـ لا ياعم .. ما فيناش من قتل .

وتدخل « حريشة » قائلا فى ضجر .

ـ يا أخى سيبه .. يعنى نشانجى القلمه ، حايقتلك وهو على اللين ؟

واقتنع « على » فقال لسيد فى سخرية :

ـ طب العب يا روح امك .. اما نشوف شطارتك ، الظاهر انك مستغنى عن بنورتك ، إن شاء الله حادشدشهالك ، عليك وعلى البلى آل !! طب العب اما نشوف .

ويبدو ان من الخير قبل أن نستمر فى وصف المباراة أن نوضح للقارىء (الذى قد بعد العهد بينه وبين لعب البلى أو قد يكون أرستقراطيا لم يلعبه أصلا) بعض التعابير التى قد تستعصى على فهمه .

فـ « القتل » معناه أن يصوب اللاعب نيكله أو بنورته إلى بنورة الآخر فإذا أصابته أخرج من اللعب خاسرا نصيبه من البلى ، و « كله ليك وكله ليه » معناه أن اللعب مفتوح للاعب أن يلعب كيفما شاء ، و « نوكله ليك ونوكله ليه » معناه اللعب مقيد .

وأمسك « سيد » بالبنورة فى يده ونفخ فيها وصمت لحظة بدا خلالها كأنما يقرأ الفاتحة ، ثم أغمض إحدى عينيه وقذف بنورته بتؤدة

فصارت في الجو في خط مقوس ثم هبطت مستقرة بالضبط فوق نيكل « على الخشت » ، دون غيره من بقع الأرض الفسيحة المتسعة .

وسادت الدهشة الصبية ، ووقف « سيد » وقد علت شفتيه ابتسامة كبرياء استقرت في جانب شفتيه ، وبعد فترة صمت قصيرة ترك للزملاء خلالها فرصة الدهش والوجوم والتمعن صاح بأعلى صوته :

ـ حلو . . كده النشان . . شيل النيكل بتاعك ياروح امك .

وفي صمت انحنى « علي » فأخذ نيكله وانسحب وهو يضغط على أسنانه من الغيظ وصاح في استهتار :

ـ معلهش يا زهر .

وأجابه سيد :

ـ والا عليه .

وكان على « سيد » أن يتمم لعبه وأن يظل يلعب حتى يخطيء فيتبعه لاعب آخر ، فأمسك بالبنورة وقذفها بتؤدة داخل « الترنجيلة » فأخرجت خمس بليات ، ثم عاد وقذفها مرة أخرى فأخرجت ستة ، وظل يقذفها المرة بعد المرة حتى افرغها عن آخرها ، ثم قال متسائلا :

ـ تلعبوا كام ؟

وصاح « على الخشت » مندفعا :

ـ عشره عشره .

ـ عشره عشره ؟ وجب .

ولم يعترض أحد وأخذ كل منهم يضع بلياته العشر في الترنجيلة .

وتكررت العملية ، وكان « على » هو الذي سيلعب أولا في هذه المرة ، فوقف يقلد سيدا قائلا :

ـ عليك وعلى البلى .

وصاح به حريشة :

ـ يا أخي العب انت على البلى كفايه .

وقذف « على » النيكل فاصطدم بالارض . ثم ظل يتدحرج حتى استقر داخل الترنجيلة .

وهلل « سيد » مصفقا بيديه صائحا :

ــ اطلع بره يا روح ستك ، بقول لك غشيم ومتعافى .

وصاح « على » حانقا :

ــ تكس ليه .

ــ نو تكس ليك .

ــ لا تكس ليه .

ــ يعنى إيه تكس ليك ؟ هوا فيه تكس وانت جوا الترنجيله .. شيل النيكل بتاعك وبلاش غلبه .

ــ ماتيش شايل النيكل ، بلاش غلبه انت .

ــ شيل بقول لك احسن لك .

ــ ماتيش شايل .. أما اشوف حاتعمل ايه ؟

ــ حاعمل ايه ؟ طب خد .

وهجم « سيد » على الترنجيلة فامسك بنيكل « على » .. ثم قذف به بأقصى قوته وصاح بعلى :

ــ روح بقى دور عليه .

وانطلق « على » يعدو لا ليبحث عن النيكل ، بل ليهجم على الترنجيلة فياخذ كل ما بها من بلى ، ثم يعدو فارا به .

ولكن قبل ان ينطلق « على » بالبلى وهو فى قبضة يديه ، اندفع « سيد » مادا قدمه .. فاعترض بها طريق الآخر .. محاولا « شنكلته » .

وافلحت الشنكلة ، وهوى « على » مندفعا إلى الأرض ، فاردا ذراعيه ، وتبعثرت البليات ، وانطلق صراخ « على » من جراء الصدمة يدوى فى الدرب ، وما لبث حتى نهض متحاملا على نفسه متأهبا للدخول فى معركة مع « سيد » .

وعلت قهقهة الصبية عند وقوع « على » ، ووقفوا يمنون أنفسهم

بمعركة وشيكة الوقوع .. ووقف « سيد » متحفزاً منتظراً ما ينوى « على » فعله رداً على المقلب الذي أعطاه إياه .

وهجم « على » والسباب يتطاير من فمه ، ودفع بقبضة يمناه فى وجه « سيد » فأصابت أنفه .. وأحس من الإصابة بألم شديد ودمعت عيناه ، حتى لم يعد يرى ما أمامه .

وضحك الصبية وهللوا ، وصاح زين :

ـ اديلو .. كما واحده .

ورفع « على » يده ليحقق طلب « زين » ويعطى له كمان « واحده » ، ولكن قبل أن تصل إلى أنف سيد .. كان سيد قد هبط برأسه إلى أسفل متجنبا الضربة ؛ وفى نفس الوقت مد ساقه وراء ساقيه ، ثم دفعه بيمناه فى صدره دفعة شديدة .

كانت حركة بارعة من سيد إذ كان يجيد ضرب المقالب وكان المفروض أن يهوى « على » إلى الأرض فيقفز سيد فوقه ويكيل له الضربات ، ولقد هوى فعلا ، ولكن قبل أن يصل إلى الأرض مد يده بسرعة فتشبث بفتحة جلباب سيد .. فلم يكد يهوى إلا وجلباب سيد مشقوق نصفين .

وفزع سيد من تمزيق جلبابه ، ومما يمكن أن يقوله له أبوه لو أبصره على تلك الحالة ، وألهاه التفكير فى جلبابه المزق عن متابعة نجاحه والارتماء على خصمه ، وأعطاه بذلك فرصة للنهوض ، ولمعاودة الإمساك بخناقه .

وزاد حنق « سيد » وثارت ثائرته ، وهو يرى « على » يعاود الهجوم عليه بعد أن مزق جلبابه .. ومد يمناه فأمسك برقبة « على » .. ثم رجع برأسه للخلف قليلا ، وفى لمح البصر دفعها للأمام مصوبا جبينه إلى أنف « على » .. كانت « روسية » محكمة ، صفقت لها أيدى الصبية المشاهدين طربا .

ولكن الخصمين لم يصبهما منها أى طرب .. فأما « على » فقد أحس برأسه تلف وبعينيه تغيمان فلم يكن لديه قطعا أى فرصة للطرب .

اما سيد .. والذى كان يجب ان ينتشى بضربة النصر القاضية فقد نظر إلى خصمه مذعورا إذ ابصر بالدماء تسيل من انفه متساقطة على شفتيه .

ولم يكد « على » يحس بالسائل الساخن فوق شفتيه حتى مد اصابعه ليتبين ماهيته ثم انطلقت منه صرخة مدوية .. فقد افزعه منظر الدماء اكثر مما افزعه الم الضربة ، وصاح باعلى صوته :

ـ يابن الكلب .. كده عورتنى ؟

ووجد الصبية ان الموقف قد تطور ولم يعد يحتمل الضحك وأن عليهم ان يفعلوا شيئا .. فاندفع « حريشة » ممسكا بيد « على » وصاح :

ـ تعال عند السبيل لما اطس لك وشك بشوية ميه .

وصاح زين وهو يلحق بهما :

ـ ما تخافش يا على .. دي فصده .. أنا أول امبارح اتفصدت زيها وما جراليش حاجه .

وتطاير من نفس « سيد » كل إحساس بالعداوة وحل محله شعور بالعطف على خصمه والخوف من أن يكون أصابه مكروه .

ونسى « سيد » جلبابه ، ونسى البلى ، ونسى كل شىء إلا اصابة « على » وأمسك بيده يعدو به تجاه السبيل .

ولم تكن هناك من وسيلة للحصول على مياه السبيل إلا بالشفط ، فمد « سيد » فمه إلى الماسورة وأخذ يستدر المياه بفمه ثم يدفع بها فى وجه « على » حتى اغرقه .

وتدخل « زين » باعتباره مجربا للحالة وقال صائحا :

ـ اقعد على الحجر وميل راسك لورا .

وعمل « على » بالنصيحة ، ولم يكن يملك إلا ان يعمل بها ، فقد كان فى حالة من « الخضة » جعلته يطيع كل قول له .

واحاط الصبية بزميلهم الجريح يزودونه بالمياه وبالنصائح حتى انقطع سيل الدم .

وصاح حريشة ضاحكا :

ــ خلاص يا جماعه ما تخافوش ، دى حاجه بسيطه .. دى عين وصابتنا .. انا طول النهار وعينى بترف .. الحمد لله اللى جت على كده .. خدت الشر وراحت .. روسيه تفوت ولا حد يموت .

وقال زين :

ــ بس خلاص .. مافيه لبن .. كل واحد يبوس راس التانى .. ياالله يا جماعه داحنا اخوات .

وتقدم « سيد » باعتباره صاحب آخر اعتداء وامسك براس « على » وقبل شعره المبتل وقال فى ندم :

ــ معلهش يا على .. حقك على .

وقام « على » فأمسك براس « سيد » وقبلها وعيناه مغرورقتان بالدموع :

ــ الحق على انا يا سيد .. انا اللى غلطان .. معلهش آدى راسك .

وهكذا تصافى الصبيان .. وعادت المياه إلى مجاريها . إلا من أمر واحد بقى جاثما على قلب سيد وهو جلبابه الممزق .

كيف يذهب به إلى البيت !

وصاح مسطرين :

ــ ولا يهمك .. الابره اللى خيطنا بيها الكوره آهى موجوده .. وانا اجيب لك فتله حالا .. حمامه .

وبعد لحظات كان « سيد » قد خلع جلبابه وجلس « مسطرين » على حافة الحجر يرتق موضع التمزيق وحوله الصبية يرتقبونه حتى انتهى .

وكانت الشمس قد هبطت وراء الأفق والظلام قد بدأ يتسلل إلى الدرب ، وقال عبد الله المميرجى :

ــ يالله بينا يا جماعه الدنيا ليلت .

وتجاوبت الردود : « يالله » .. « يالله بينا » ..

وقال سيد :

ــ حد فيكو يحب يتسلى بالقتله واحنا ماشيين ؟

وسأله حريشة :

ــ بكام ؟

ــ الشبر ببليه والقتله باتنين .

ــ يالله .

وقذف سيد بنورته مسلحا :

ــ العب .

واخذ كل منهم يتناوب تصويب نيكله على نيكل الآخر وهم سائرون حتى دخل كل منهم داره فى الدرب ، ولم يبق سوى حريشة وعبد الله .. فسار عبد الله إلى بيته فى درب السماكين .. وتذكر حريشة الكرات فانطلق يعدو لشرائه وحمله إلى الدكان .

الفصل الرابع

مطــرود من الجنـة

دخل كل من سيد وعلى إلى البيت وقبل ان يجتازا عتبة الباب همس سيد متسائلا :

ـ مش حاتجيب سيره ؟

واجاب « على » مطمئنا وهو يرفع كتفيه :

ـ ولا كان حصل حاجه .

ولكنه استدرك متسائلا فى شك :

ـ ولكن الجلابيه بتاعتك .. حاتقول عليها إيه ؟

ـ اقول !! . اقول انها اتشبكت فى مسمار .. اقول اى حاجه .. على العموم هى متخيطه كويس ، وما افتكرش حد حايشوفها الليله دى .. انا حاخش انام قبل ما بيجى ابويا وبالنهار يبقى يحلها ربنا .

وكان الفناء قد أناره بصيص من ضوء فانوس معلق فى بير السلم ، وقد خلا من قاطنة النهار ورفاقها .. الأوتين والمساعزة التى ساقتها « ام آمنة » إلى منور داخل البيت بمساعدة زكية بنت الخشنت التى تعودت مساعدتها فى قضاء حاجتها وفى تنظيف الدار ، وكانت العجوز تعتبرها كابنتها .

وفي الفناء افترق الصبيان الصـــديقان متحـسابين كأن لم يتعاركا او يتضاربا أو يمزق أحدهما ثياب الآخر أو يريق دمه .

صعد على مي السلم وهو يترنم بقوله « يا حليله يا بليله » . واختفي شبحه الصغير بين لفات الدرج ، واجتاز سيد باب الشقة المغلق نصف اغلاقة بعد أن دفعه بقدمه وهو يهز كيس البلي ويطوحه إلى الامام والخلف ثم وقف في قاعة ضيقة مربعة رصفت أرضها ببلاط معصراني مشقق مقلقل في مستوى أرض الفناء .

ولم يكن بالقاعة من الاثاث سوى أريكة منهارة الجوانب ، مبقورة البطن ، سوداء كالحة ، ومنضدة خشبية وضع عليها مصباح غاز (نمرة ٥) يبدد ضوءه ظلمة القاعة وتسلل من الأبواب المحيطة بها إلى الحجرات المفضية إليها . وعلق على الجدران بضع لافتات حوت آيات قرآنية : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) و (الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » .

ووقف « سيد » في القاعة ، وأرهف سمعه ، وتلفت يمنة ويسرة يستطلع مكان جدته « أم آمنة » .. ثم دفع سبابتيه في فمه وصفر صفيره الطويل وصاح صيحته الندائية المعتادة :

ــ أم آمنة .. يا ويكا .

وانتظر ان تجيبه « أم آمنة » لتدله على مكانها ولكنه لم يسمع لها صوتا .. فاتجه إلى يمينه ودلف من الباب فوجد العجوز راكعة على حصيرة الصلاة وهي تنهي صلاتها ملتفتة يمنة ويسرة قائلة في صوت خفيض :

ــ السلام عليكم .. السلام عليكم .

وأجابها « سيد » كأن التحية ملقاة إليه :

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، انت بتكفرى عن ذنوبك والا إيه ؟ دي كانت ذنوب إيه دى كلها . . دانت لازم كنت شقيه أوى ؟

ونهضت العجوز متحاملة وهي تطوى الحصيرة .. ولاحت على شفتيها ابتسامة وهي تجيبه :

ـــ يعني يا مفضوح مش حاتبطل حكاية يا ويكا دى . . هو انا برضه اسمي ويكا .. والسفير بالليل .. ما تعرفش انه حرام ويطلع التعابين ؟

وكانت كلمة « مفضوح » هي اقصى ما يحوى قاموس « أم آمنة » من ألفاظ السباب ، وكانت غالبا ما توجهه إليه عندما يمعن في المزاح معها ، وهي تقصد به التدليل أكثر مما تقصد به السباب .

وأجاب سيد في رنة أسف مصطنعة :

ـــ انت زعلتي يا ستي .. حقك على .. هاتي إيدك لما ابوسها .

واقترب منها تتناول يدها ولكن العجوز ضمته إليها وانحنت حتى مست وجنته بشفتيها وقالت ضاحكة :

ـــ حد يزعل منك يا سيد الرجاله .. عايز تتعشى إيه ؟

ـــ عندك إيه ؟

ـــ عندنا طبق بصاره من خالتك أم على ، وعندنا جبنه وبطيخ .

ـــ بصاره عليها تقليه ؟

ـــ أيوه عليها .

ـــ انا ما حبش التقليه .

ـــ اشيل لك التقلية على جنب .

ـــ ولا حبش البصاره كمان .

ـــ طب كل جبنه وبطيخ .

ـــ ما فيش حاجه تانيه ؟

ـــ حاجه تانيه زى إيه .. طبيخ ؟

ـــ لا .

ـــ اعمل لك سخينه ؟ انده زكيه تولعلي الوابور واقعد اعملها لك ؟ . . والا ابعت اجيب لك منهم شوية دقيق واعمل لك عصيدة ؟

ـــ عايز زتون .

ـــ طول عمرك زي الشريك المخالف . . اقول لك يمين تقول شمال ، اقول لك ابيض تقول اسود . . خد آدي قرش تعريفه هات بيه اللي انت عايزه .

ثم مدت يدها على صدرها فأخرجت منديلا صرت به بضعة قروش وفكته واعطته منه قرشا فتناوله الصبي وانطلق يعدو إلى باب الدرب حتى وصل إلى شيحة البقال فصاح به :

ـــ خد يا عم شيحه . . هات بتلاته مليم زتون وبمليم كرمله وبمليم لب .

وهم شيحه بتعبئة الزيتون عندما صاح به سيد :

ـــ والا اقول لك . . كفايه بنكله زتون وهات بمليم سوداني وبمليم كرمله وبمليم لب .

ولم يكد شيحه يمد يده لتعبئة الزيتون في القرطاس حتى صاح به :

ـــ اسمع يا معلم شيحه . . بكم عود القصب ؟

واشار بيده إلى لبشة قصب مستندة إلى جانب الحانوت فأجاب شيحه وهو يتنهد في ضيق :

ـــ بنكله .

ـــ مافيش عود بمليم ؟

ـــ فيه .

ـــ طيب هات بمليم زتون وعود قصب بمليم وبمليم لب وبمليم سوداني وبمليم كرمله .

ـــ مافيش بمليم زتون .

ـــ يعني إيه مافيش بمليم زتون ؟

ـــ مفيش بمليم زتون . . يعني ماتبيعش بمليم زتون .

ـــ وعلشان إيه ما تبعش بمليم زتون .. ما دام بتبيع بنكله .. لازم تبيع بمليم ؟ . اقسم نص أبو نكله يبقى بمليم .. ما خدتش حساب عمرك ؟

ـــ يا بنى ما تفلانيش .. قلت لك ما ببعش بمليم يعنى ما ببعش بمليم ، عاجبك والا لأ ؟

ـــ طيب ما تتأمرش كده .. بلاش زتون .. هات مصاصه .

وبدا شيحة فى تعبئة القراطيس الصغيرة من اللب والسودانى والكرملة والمصاصة وبراغيث الست ، ثم ناول سيد عود قصب صغير ثلاثة ارباعه زعزوعة ، وانطلق سيد يعدو بمشترياته إلى الدار .

وصاح بجدته وهو يتقدم فى الفناء :

ـــ ستى أم آمنه .

وكانت « أم آمنة » تجلس على شلتة على الارض فى القاعة الضيقة امام الاريكة المنهارة .

وكانت مستندة بخدها إلى كفها كعادتها ، وكانت تبدو دائما كأنها غريقة فى بحر من التفكير الحزين ، لا يرفعها منه سوى صوت حفيدها سيد .. فهو وحده القادر على ادخال الطرب إلى نفسها واشـاعة الحبور فى وجهها .

واجابت الصبى :

ـــ أيوه يا سيد .

ـــ شايفه جبت إيه ؟

ـــ جبت إيه ؟

ـــ حاخليكى تاكلى وتمصى وتقزقزى وتبدغى وتلحسى كه ده بقرش ابيض .

ـــ ايه .. ايه .. ايه ؟ . قول تانى اعمل ايه واعمل ايه ؟

ـــ خدى عندك .. حاتكلى فول سودانى .. وتمصى قصب ،

وتقزقزي لب ، وتندغي كرمله ، وتلحسي مصاصه كل ده بقرش ابيض .. يا بلاش .

ـ ايه اصله ده ؟ ايه الكلام الفارغ اللي بتقوله ده ؟ أنت جبت الزتون اللي حانتعشى بيه والا لا ؟

ـ طبعا لا .

ـ امال حا نتعشى إيه ؟

ـ عندك إيه ؟

ـ احنا حانعيده تاني ، انا مش قلت لك عندي بصاره وجبنه وبطيخ .. قلت ما حبهمش ، ورحت عشان تشتري زتون ؟

ـ معلهش حاتعشي اي حاجه .. مش مهم .. بصاره .. جبنه .. اي حاجه .

ـ الهي يعدلها لك .. ما كنت وفرت القرش .. والا كنت جبت حاجه تربي عليك ، وانت عامل زي مصاعيص النقاريه .. حد في الدنيا يقول كده ، تروح تفرتك القرش في حبة كلام فارغ ، حبة حاجات لا راحت ولا جت .. لكن الحق على ، انا برضه الغلطانه اللي طاوعتك واديتك القرش .

ـ دا ما كانش قرش ده اللي حاتقعدي تبستفيني عليه .

ـ قلبي عليك .

ـ خلاص بقى .. حصل خير .. تاخدي شوية لب .. والا بمصاصه ؟

ـ اللي يفرقه العويل يسفه .. اشبع به انت .. إياك يقضي كرشك .

ـ ماقولنا خلاص بقى ما ترعليش ، هه وادى راسك .

وهجم عليها فطبع قبلة على راسها الابيض المغطى بطرحة سوداء ، وضحكت العجوز .. وكان الصبي الصغير واثقا من النتيجة .. كان يعرف انها ـ على حد قوله ـ ديتها بوسه .

وقالت العجوز :

ـــ استنى بقى .. ما تسدش نفسك بالحاجات دي قبل ما تتعشى .
ـــ مش مهم العشا .
ـــ مش مهم ازاى ؟ . عايز تنام على لحم بطنك .. لازم تتعشى ، قوم هات طبق البصاره والجبنه والبطيخ من المطبخ وهات الطبليه عشان نتعشى مع بعض .

وقبل ان يتحرك « سيد » سمع وقع اقدام ابيه تطرق ارض الفناء .. فتوقف في محله .. منتظرا دخوله في شيء من اللهفة .

لقد اتي مبكرا .. وهو لا يكلف نفسه مشقة العودة مبكرا من القهوة .. إلا إذا كان قد قبض نقودا مكنته من أن يحضر معه شيئا مفرحا .

ودخل المعلم « شوشة » مرتديا الجلباب البلدى المخطط ، واللبدة السمراء ، والبلغة الفاسي الصفراء .. وفي يده لفافة تحوى الشيء المفرح .

والقى شوشة تحيته المقتضبة :

ـــ مساء الخير يا ام .

واجابت ام آمنة في صوتها الحنون :

ـــ خير عليك يابنى .. أحضر لك تتعشى ؟

ـــ اتعشيت .

ولم ينتظر سيد بقية الحديث ، بل مد يده فتناول اللفافة من أبيه في صمت بعد أن ادرك بعينيه الثاقبتين ما يمكن أن تحتويه .

كانت لفافة من الورق الأبيض الخشن .. تناثرت عليها بقع لامعة شفافة .. هي آثار سمن نضح من الداخل .

« كفتة » ؟ . لا .. فالرائحة لم تفح .. انه يميز رائحة الكفتة ولو كانت على باب الدرب .

« بسبوسة » ؟ . لا .. فهي لا تنضح مثل هذا النضحان ، إن الورقة تكاد تكون مغرقة بالسمن .

« فطير » ؟ اجل ! اجل !

وصدق ظنه .. إذ لم يكد يتناول اللفافة من أبيه .. حتى قال :

ـــ دول فطيرتين لك انت وستك .. واحده بالزيت ، وواحده بالسمن .. والسكر ملفوف فى ورقه لوحده .. حاسب يتكب منك .

وأخذ « سيد » فى فتح الورقة ، وقد جلس على الشلتة بجوار العجوز .. وبدت عليه الفرحة .. انه كان فى اشد اللهفة إلى الفطيرة .

بارك الله فى ابيه .. فهو دائما يحضر الشىء المطلوب فى الوقت المناسب .

وبدا الفطير لامعا متوردا ، وازدرد الصبى لعابه وهو يقول لجدته :

ـــ انا حاخد ام زيت ؟

ـــ خد اللى تعجبك .

ـــ انهى ام زيت يابا ؟

ـــ اللى فوق .

ورفع سيد الفطيرة « أم زيت » وقد فاحت منها رائحة شهية ، وبدت تحتها « أم سمن » أشهى واروع ، فأخذ يقارن بعين لهفى بين الاثنين وقال لجدته محاولا كسب الوقت حتى يعطى لنفسه فرصة الأختيار :

ـــ تحبى ام سمن ؟

ـــ كله كويس .. اللى يعجبك خده .

وبدا عليه التردد ، وكان عليه أن يبت بسرعة .. فهو لا يقوى على الانتظار كثيرا ، واخيرا مد يده بالفطيرة العليا للعجوز قائلا :

ـــ خدى ام زيت .. وأنا حاخد ام سمن .. احط لك عليها سكر ؟

ـــ حط .

ورش عليها بعض السكر ومد يده بها ، ولكنه سحب يده فجأة في منتصف الطريق قائلا :

ـ والا اقول لك .. انا حاخذ أم زيت .

وضحكت العجوز وقالت :

ـ ربنا ما يحير مؤمن .

واحس بشيء من الخجل لتردده وحيرته . فرفع يده بالفطيرة قائلا في حزم :

ـ خلاص خدى دى .. انا حاخذ أم سمن .

وامسكت العجوز بالفطيرة في يدها وتناولت منها قضمة جعلت تلوكها ببطء في فمها ، وانشب سيد اظافره في فطيرته واطبق فيها اسنانه ، واخذ يقضم منها بنهم وسرعة ، وعندما اتى على معظمها ولم يبق منها سوى قطعة تبلغ الربع ، صاح بالعجوز :

ـ مش عايزه تدوقي الفطيره أم سمن ؟ تاخدي حته ، وتجيبى حته ؟

وكانت العجوز لم تأكل سوى قطعة صغيرة لا تزيد عن الربع .. ولم يكن هناك شك في ان بطئها في الاكل كان بطئا مقصودا ، وانها تستعد للخطة التي كانت تعلم سلفا أن حفيدها سيدبرها في نفسه .

ومد سيد يده بربع الفطيرة التي معه ، واخذ منها ثلاثة ارباع الفطيرة وبدأ يقضمها .. ولمحه أبوه وهو في طريقه إلى دورة المياه ليتوضأ ، فصاح به مؤنبا :

ـ انا قلت لك ايه يا سيد ؟ مش كل واحد فطيره ؟

ـ وانا مالى .. ما هي اللى عايزه تبادل .

وضحكت الجدة وقالت لشوشة :

ـ يا خويه سيبه .. دا اللى في بطنه بيشبعني اكتر من اللى في بطني .

وكانت العجوز صادقة في قولها مخلصة .. فما اشبعها شيء

كاللقمة التي ياكلها حفيدها .. كانت تشعر في نفسها انهما لو أصيبا بمجاعة في قفرة فليس أسهل عليها من أن تقطع جسدها قطعة قطعة كي تطعمه له .

ليس هناك في الدنيا أحب إليها منه ، ومن أبيه .

لقد كانت كل الأسباب تدعوها لحب أبيه ، كان رجلا قويم الخلق ، حنونا طيبا صادقا وفيا .. لا تجد به عيبا ولا هنة .. هذا ما كان يحببها في أبيه .. أما ما كان يحببها فيه هو ، فلا شيء .. كانت تحبه بلا تفكير ، ولا بحث ، ولا استقصاء .. كانت تحبه كما هو ، بشقاوته وعفرتته ، وخفة دمه ، وبكل تفاصيله ودقائقه ، وشروره وذنوبه .

وانتهى سيد من اكل الفطيرة والنصف .. وانتهت العجوز من اكل نصف الفطيرة .. وانتهى شوشة من الوضوء ، وخلا بنفسه في حجرته يؤدي فريضة الصلاة .

وبدأ سيد يتثاءب ، وقال لجدته :

— مش حاتنام ؟

— مش حاتاكل حاجه من اللي انت جايبها دي ؟

— لا خليها للصبح .

— ولا عايز بصاره ولا جبنه ولا شقة بطيخ ؟

— لا شبعت خلاص .

— طيب قوم عشان تغسل ايديك وتتشطف .

— إيديه نضيفه .

— والزيت بتاع الفطير ؟

— مسحته في الجلابيه .

— أيوه عشان تيجي التعابين تشمك .. أنا مش بطلتك الوساخه دي .. قوم أشطفك واغير لك الجلابيه .

— يا سلام عليكي يا ستي لما تضايقيني بقى .. هوه كل يوم

التشطيف ده .. زهقتيني .. دي حاجه تطلع الروح .. بقى لي كام سنه باغسل ايديه ووشي .. يعني كان نايبته إيه ؟

ـ قوم نز .. هوه كل ليله لازم تقول الموال ده ، مش ممكن تتشطف من سكات ؟

ولم يجد سيد بدا من النهوض ، لا سيما بعد أن نهضت جدته متحاملة على نفسها .

وسارت العجوز إلى دورة المياه ، دون حاجة إلى أن يقودها الصبي ، فقد كانت تسير بحاسة التوجيه في انحاء الدار كأنها مبصرة .

وصاح بها سيد وهو يتبعها :

ـ أسبقيني لما أجيب اللمبه .

ـ مفيش لزوم ، خليها عندك .

ـ انا مش شايف حاجه .

ـ مفيش لازمه تشوف .. انا شايفه كل حاجه .. قرب هنا .

ولمت العجوز اطراف ثيابها وجلست على مقعد خشبي واطيء صغير أمام صفيحة بها مياه ، وكانت دورة المياه لا تزيد على طرقتين إحداهما مرحاض وحمام والأخرى مطبخ وكان ليلهما نهار ونهارهما ليل ، فما كان الضوء يعرف سبيله إليهما إلا من نافذة عالية تطل على المنور ذات قضبان حديدية كأنها نوافذ السجون ، وكان بياض الجدران منهارا من نضح المياه ، وقد ظهر شق متعرج واضح عميق في الجدار المواجه للباب كأنه هابط من عل نتيجة لمياه دائمة النز في الطابق العلوي .

وصاحت العجوز بسيد وهي تبدأ أشق عملية تقوم بها في يومها :

ـ اقلع الجلابيه .

ـ انتي حاتحميني ؟

ـ لا حاشطفك .

ـ حاتغسليلي راسي بالصابون ؟

ـــ أيوه .

ـــ عشان ايه ؟ . انتى مش غاسلاها أول امبارح .. هى سوره .. كل يوم غسيل غسيل .. دي لو كانت دماغي حجر كانت باشت .

ـــ قرب يا بنى بلاش مناكفه .

ـــ حاقرب .. بس بلاش الصابونه .

ـــ هو الصابون بيقرصك ؟

ـــ ما بيقرصنيش .. لكن بيخش فى عنيه .

ـــ أبقى غمض عنيك .. وهو ما يخششى .

ـــ بغمض ، وبرضه بيخش .

ـــ غمضهم كويس .

ـــ بغمضهم قوى .

ـــ خلاص يبقى مش حايخش .

ـــ برضة بيخش .

ـــ قرب بقى يا خويه الله يهديك ، فلقتنى ونبحت حسى ...

وبدأ يقرن حديثه ببكاء مصطنع :

ـــ هو إيه أصله ده ؟ .. كل يوم صابون .. أنا عارف ربنا عمل الصابون دا ليه ؟ .. عشان يخش فى عنين الواحد .. ده حتى ظلم .

ـــ ظلم .. ظلم .. بس قرب .. ناولنى إيدك .

ومد سيد يده فأطبقت يدها وجذبته نحوها فأجلسته قائلة فى غيظ :

ـــ اقعد هنا .. قرب راسك من الصفيحه ..

وقبل ان يمد سيد رأسه من الصفيحة لمح الصابونة موضوعة على الأرض بجوار المقعد الذى تجلس عليه فمد يده فى حذر وأمسك بها فأخفاها وراء ظهره .

وملأت العجوز الكوز من الصفيحة ثم صبته .. فوق رأس سيد ، ثم مدت يدها تتحسس الصابونة فى الموضع الذى تعودت ان تضعها

فيه بجوار المقعد ، ولكنها لم تجدها .. وظلت تتحسس برهة هنا وهناك ، ولم تلبث حتى ادركت ما حدث فامسكت اذن الصبي بين سبابتها وإبهامها ، وقالت مهددة :

ــ هات الصابونه .

ــ صابونة إيه ؟

ــ هات الصابونه بالتي هي احسن .

وأجاب سيد في عناد :

ــ ما شفتش صابون .

وضغطت باصبعيها على اذنه .. فصاح :

ــ آي .. آي .

ــ هات لحسن أنده لأبوك يدشدشك .. انت عارف لما يمسكك ما يخليش فيك نفس .

ــ خدى اهه .. اشبعى بيها .

وقبل أن تضع الصابونه على راسه بدأ في البكاء المصطنع واخذت تدعك راسه ، وهي تقول :

ــ بس بقى بلاش زن .. اسكت بقى .

وبدأت تدعك وجهه فاغمض عينيه بشدة .. وبعد طول دعك صبت المياه على راسه لازالة الصابون ..

وسألها في خلال « زنه » :

ــ خلاص ؟ . افتح عينيه ؟

ــ استنى شويه .

ــ أستنى إيه ؟

ــ حاغسلها لك دور تاني .. دي عليها راقات طين .. ولا اللي بيمشى على راسه مش على رجليه .

ــ دور تاني ؟ إيه هو الظلم ده .. هي امك كانت بتغسل لك راسك دورين ؟

ـــ وانا كنت أوسخ نفسي زيك كده !

ولخيرا انتهي دور الراس وبدا دور السافين والذراعين وكانته المهمة أسهل كثيرا إذ لم يكن بها ما يغضبه .

وأخيرا انتهى التشطيف ، وارتدي سيد جلبابا نظيفا ، وكان هذا هو اهم ما في الأمر .. إذ تخلص مؤقتا من جلبابه المزق المرتوق الذى يحمل آثار المعركة بينه وبين « على الخشت » ثم سار بجوار العجوز إلى حجرتهما .

وكانت الشقة تتكون من ثلاث حجرات ضيقة مظلمة رطبسة مرصوفة كالقاعة بالبلاط المصراني ذي القلاقل والشقوق ، في كل منها نافذة ذات قضبان حديدية ، وكان شوشة ينام في إحداها على فراش خشبي تعلوه مرتبة رقيقة ويوجد في ركن الحجرة مشجب علق عليه بعض ملابسه ، وفي الركن الآخر دولاب صغير وضع فيه البقية الباقية منها .

وكانت العجوز والصبي ينامان في الحجرة المجاورة فوق مرتبة وضعت على الأرض واستبدل بالمشجب فيها حبل دق بين الجدارين في إحدى الزوايا ونشرت عليه بضعة أثواب للعجوز والصبي ووضع في أحد الأركان طشت وأبريق كانت تستعمله العجوز للوضوء والغسيل .

اما الحجرة الثالثة فلم تدو غير صندوق الكراكيب ، وكانت تكاد لا تفتح إلا عندما يحلو لسيد العبث في أنقاضها علّه يعثر على شيء ينفعه في لعبه .

ونظر سيد خلال باب حجرة أبيه فوجده جالسا جلسته المعتادة فوق فراشه الملاصق للنافذة متكئا بمرفقه على حافته مستندا بذقنه إلى كفه متطلعا ببصره إلى السماء أو إلى الشريط البادى منها أعلى حافة النافذة وأعلى حافة الدور المقابلة في الدرب الذى يظهر كأنه سقف فوق الدرب ، وكان يمسك بيسراه سيجارة يقربها من شفتيه بين آونة

واخرى ليمتص دخانها قيلاً به صدره ، ثم يدفعه فى نفس طويل وزفرة حارة .

تلك كانت جلسة ابيه الدائمة كل ليلة قبل ان يتمدد فى فراشه ويغمض عينيه ، وهى شديدة الشبه بجلسة جدته كلما خلت بنفسها من حيث الإطراء والوجوم والسرحان والشرود وامارات الحزن التى ترتسم على وجهى كل منهما .

كان كلاهما يسير فى تيار الحياة فلا يكاد يتوقف به التيار حتى يرسب إلى اغوار عميقة من الحزن والتفكير .. كانا شديدى الشبه إذا ما خلا كل منهما بنفسه .. صلاة .. واطراق .. وحزن .. وتطلع إلى السماء .. كأنما تجمع بين ذهنيهما فكرة واحدة .

ولكن سيد لم يحاول ان يبحث ما وراء ذلك ... ولا اهتم بأن يسأل عن سبب ذلك الهبوط إلى القاع إذا ما توقف بهما تيار الحياة .. لانه لم يكن لديه وقت للتفكير فى ذلك ، ولأن تيار الحياة لم يتوقف به قط .. فهو لا يكاد يكف عن الحركة .. فإذا كف جسده عن الحركة فان ذهنه يواصل نفس الحركة .. بلى .. وكرة شراب .. وحريشة وشجرة الجوافة .. و .. و .. مما لا يتركه إلا وقد استسلم إلى الرقاد .

ورفع رأسه محولا بصره من ابيه المتطلع إلى السماء من وراء قضبان النافذة إلى جدته التى تتلمس طريقها إلى فراشها .. مناديا :

ـ ستى .

ـ هه .

ـ مش حاتحكيلى حدوته ؟

ـ حاحكيلك بس ...

ـ بس إيه ؟

ـ تبطل الزن لما اغسلك راسك بالصابون ؟

ـ هو انتى لسه حاتغسليلى راسى بالصابون تانى ؟

ـ تصدى المره الجاية .

ـ يا ستى يحلها ربنا لما تيجى المره الجايه .. انتى يعنى مستعجله قوى .. على العموم .. انا مش حاوسخ راسى ابدا عشان اريح قلبك .

ـ يعنى برضك نلوى تزن ؟

ـ طب مش حازن .. حاتحكيلى بقى ؟

ـ ايوه .. كده .. لما تبقى ولد طيب وابن حلال .. وامبر .. وتستحمى من سكات ولا تتخانقش مع ولاد الجيران .. ولا توسخشى هدومك ولا تتطمهشى اقوم احبك واحكيلك اللى انت عايزه .

« ولا تتطمهشى !! » هنا بيت القصيد .. ترى متى ستكتشف تمزيق الجلباب ؟ طبعا عند الغسيل !! ولكن ماذا تراها ستفعل ؟ . ستناديه « يا مفضوح » وتقرص له اذنه ؟ .. هذا اقصى ما ستفعله .. انها متسامحة كريمة .. وهى لا شك لن تبلغ اباه .

دار بخلده كل هذا بسرعة وانتهى بطمأنة نفسه واجابها قائلا :

ـ حاتحكيلى إيه ؟

ـ اللى انت عايزه .

ـ قولى انت .

ـ احكيلك « خششبان اعمى طرشى ما بيتضرشى » ؟

ـ لا .. انتى لسه حاكياها امبارح .

ـ احكيلك « يا حوريه الرغيف وراس البوريه » ؟

ـ لا .. دى زهقت منها .

ـ اقول لك يا سيدى لما انته .. حدوته كسبره ؟

ـ ايوه .. قوليها لى دى .. بقى لى زمان ما سمعتهاش .

ـ طب يا الله بينا .

وهبطت العجوز إلى الفراش الارضى وتمددت على جنبها الايمن وفردت ذراعها فتوسده الصبى وقبل ان تبدأ القص ضمته إلى صدرها

واخذت تتحسس راسه وتقاطيع وجهه برفق وحنان ، وقال هو بصبر نافد :

ــ يالله بقى احكى .

ــ كان ياما كان يا سعد يا اكرام .. ما يتم الحديث إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام .

ــ عليه الصلاة والسلام .

ــ كان فيه يا سيدى ...

وبدأت « الحدوتة » والصبى ينصت ، وأنفاسه تتصاعد فى هدوء ، وصدره يعلو ويهبط ببطء ، ولم يطل الحديث بالعجوز حتى أحست بيد الصبى التى احاطت بها قد تراخت وراح هو فى سبات هادىء عميق .. يريح به جسدا انهكه طول السير واللعب وحمل القرب والعراك .

وضمته العجوز إلى صدرها وعادت مرة اخرى تتحسسه كما يتحسس البخيل كنزه ، وطال بها الشرود والتفكير قبل ان يبسط عليها النوم سلطانه ، واخيرا اغفى كل من فى البيت ، وانحصرت كل مظاهر الحياة فيه فى أنفاس تتردد فى سكون .

* * *

كان الاب اول من استيقظ ، وكان ضوء الفجر ينساب من النوافذ رماديا باهتا قد اختلطت ببياضه رواسب الظلمات .. ثم اخذت الرواسب تصفو شيئا فشيئا .. حتى أضحت الخيوط الهابطة إلى الدار بيضاء صافية .. وانتهى الاب من وضوئه وصلاته وارتدى جلباب العمل والسطيع واللبدة ، ثم دلف إلى حجرة العجوز ونادى الصبى بصوت رقيق :

ــ سيد .. سيد ..

واستيقظت العجوز قبل ان يستيقظ الصبى وهتفت بالاب :

ــ يابنى لسه بدرى أوى .. خليه ينعس شويه .

وكانت « أم آمنة » تعارض الأب فى محاولة دفع الصبى إلى العمل وفى محاولة ابلاغه مبلغ « الرجالة » أو كما يقول شوشة « توديكه » . . وكانت ترى أن هذا شىء مبكر جدا ، وأن عود الصبى لم يصلب بعد .

ولكن شوشة لم يكن يلقى إليها بالا . . كان كلاهما يحب الصبى ، ولكن بطريقته الخاصة .. الجدة : تود ألا يفارق أحضانها ، فهى تخشى عليه من كل شىء ، وتكره له كل جهد وتريد الترفق به كل الترفق . . أما الأب .. فكان يريد أن يسبق الزمن فى خلقته وتكوينه .. يريد أن يغمض عينيه ، فيراه رجلا .. وكما كانت العجوز يمتعها أن تضمه إلى أحضانها ، كان هو يمتعه أن يرى الصغير ، وقد ارتدى السطيح وحمل القربة وسار بخطوات رزينة ثابتة يفرغها فى المكان المطلوب .

وهكذا طلبت أم آمنة من شوشة أن يتركه ينعس قليلا ولكنه لم يستمع لها ، بل استمر ينادى الصبى ولكن بلهجة أشد :

ــ سيد .. سيد .. اصحى يا وله .

وفتح سيد عينيه ، ولم يكد يبصر أباه ويسمع صوته ، حتى قفز واقفا بعينين مغمضتين وهو يقول :

ــ أيوه يابا ، حاضر أهو يابا .

كان سيد يعرف أنه يستيقظ على عمل يلذ له .. ولو كان يعرفه أنه يستيقظ للذهاب إلى الكتاب ، لتمطى وتثاءب .. وتطلب المزيد من النداء والزجر والنهر .. أما لبس السطيح وحمل القربة ، والذهاب به إلى السراية وسقى التمرحنة .. وما بعد ذلك من أعمال جليلة ممتعة ، فقد كان عملا يستحق أن يقفز من الفراش ، وأن يضحى من أجله بأحلى نومة .

وأسرع سيد يغسل وجهه ، أو على الأصح يبل وجهه بأطراف أصابعه ، ثم ارتدى السطيح ، وسار يهرول وراء أبيه ، وقبل أن يعبر الباب صاحت أم آمنة :

ـ ما تتغدوش بره ، أنا حاطبخ لكم .

ووقف « شوشة » في مكانه ، ثم عاد القهقرى ، وأخرج حافظته وأخرج منها قطعة ذات الخمسة قروش ووضعها في كف العجوز في صمت .

واجابت المرأة :

ـ أنا معايا فلوس .

ـ معلهش ، خلي دي معاكي ، يمكن تعوزي حاجه . . تحبي أبعت لك حاجه ؟

ـ لا . . زكيه بتشترى اللي انا عايزاه ، مع الحاجه اللي بتشتريها .

ولم تكن زكية تشتري فقط ، بل كانت ، كما سبق القول تؤدي للعجوز كل ما يمنعها بصرها الخابي من ادائه .

وخرج الرجل وابنه بتواثب حوله ، وسار الاثنان يدفعان أمامهما العربة المحملة بالقرب الفارغة ، عابرين الدرب متجهين سويا إلى كشك الصنبور في أول درب السماكين .

ووصلا إلى الكشك . . ولكنه كان مغلقا . . فالمعلم لم يصل بعد . . وكان في انتظاره امرأتان بصفيحتيهما . . وعبد العزيز السقا بقربته .

واوقف شوشة العربة بجوار الرصيف ، واتكأ عليها منتظرا في صبر وغيظ مكظوم ، والقى تحية مقتضبة إلى الثلة المنتظرة قائلا :

ـ صباح الخير .

وردوا عليه التحية ، وبدا على عبد العزيز انه يريد تسلية نفسه بالثرثرة ، فبدأ الحديث قائلا :

ـ المعلم على لازم راحت عليه نومه .

واجابت إحدى المرأتين :

ـ ويسيبب مصالح الناس متعطله كده ؟ وهي دي تبقى أصول ؟ احنا ورانا شغل .

وعلقت الأخرى بقولها :

— ودى لطمة إيه ياختى دى ، هوا أحنا ماشيين له ؟

ورغم أن شوشة كان أكثرهم غيظا ، إلا أنه كان شديد السيطرة على لسانه ، فلم يفه بكلمة ضجر ، أو تعليق سوء ، بل اكتفى بأن أطلق تنهيدة طويلة .

ولكن ابنه لم يكن كذلك .. لقد كان كل ما فيه طليقا متحررا ، لا سيما لسانه ، فصاح مشتركا فى الحديث .. نيابة عن أبيه :

— لازم كان سهران فى زفه .. مش مطيباتى ؟

وقهقه عبد العزيز .. وضحكت المراتان .. وكتم شوشنة ضحكته ، وقال لابنه ناهرا :

— اقصر لسانك ولا تداخلش فى اللى مالكش فيه .

— ودا كمان مالياش فيه ؟ أنا مش سقا زيى زيكم ؟ هى دى مش عطله ؟ واحنا ورانا مصالح ناس .. حد قال يجيبوا مطيباتى يعملوه بالش سقا .. ويمسكوه حنفيه ؟ . دا حقهم يمسكوه رق .. يرقصوه عشره .

وقاطعه أبوه بصيحة ناهرا :

— بس يا واد بلاش قلة أدب ، قلت لك اقصر لسانك يعنى اقصر لسانك .

ولم يجد سيد بدا من الصمت على مضض ، وعاد يلعب بقدميه فى مجرى المياه المنحدر إلى البالوعة .

وبعد برهة اقبل « على دنجل » ، أحمر العينين .. منتفخ الأجفان ، مهدل الشارب ، والقى تحية متجهمة على الجميع فأجابوه بأكثر منها تجهما .. واتخذ مكانه على المقعد فى الكشك وراء الصنبور .

وملأت المراتان .. ثم ملأ عبد العزيز .. وقال شوشة مخاطبا ابنه :

— قرب خذ قربتك واملا .

فلما ملأ سيد قربته أردف قائلا :

— اسبقنى على السرايه .. وفتح عينيك كويس .. خلى عينك فى راسك .

وكان تحذيرا ثقيلا لم يبتلعه سيد بسهولة .. بل اعتبره نذير سوء ، ولكنه لم يملك إلا أن يجيب :

— حاضر .

وسار سيد بحمله الصغير ، محنى القامة ، مبلل الثوب ، تشوب سعادته المطلقة صدى انذار ابيه وتحذيره إياه بأن يضع عقله فى راسه .

— ماذا يقصد أبوه بأن يضع عقله فى راسه ؟ . أيعنى الا يمد يده إلى شيء من الثمار ؟

سخافة ! . إن هذا هو بالضبط عدم وضع العقل فى الراس .. إنه الجنون بعينه .. ان يذهب إلى حديقة السراى ولا يمد يده إلى ثمارها ؟ . ولو كان ينوى ان يفعل ذلك .. لكان اجدر به أن يجنب نفسه كل هذه المشقة .. مشقة الصحيان المبكر ، وحمله القربة ، والعدو ورأءه فى الطرقات .

أجل ! إذا كان ابوه يظن أنه تربر بكل هذا من أجل خاطر عيون التمرحنة .. فهو ، ولا مؤاخذة ، مغفل كبير .

ولكنه يربأ بأبيه أن يكون كذلك ، إنه لا شك يقصد بقوله له « خلى عقلك فى راسك » ، الا يرتكب حمقا كالذى ارتكبه بالأمس .. فلا يتسلق شجرة . ولا يكسر فرعا ، ولا يقع من الشجرة على رقبـــة « عم جاب الله » فيقصفها .

هذا بالطبع ما يقصده أبوه .. ومعه حق .. فمن الغباء أن يرتكب جناية قتل من أجل جوافاية .. او بلحاية ، او حتى قشطاية .

يجب أن يضع عقله في رأسه .. فلا يتهور .. بل يأخذ ما يشاء من الثمار يلقي هي أحسن .

وهكذا فسر سيد انذار أبيه .. وأزاح بذلك التفسير العبء الذي اثقل ضميره ، واقبل على باب السراى وسعادته مطلقة لا تشوبها شائبة من خوف أو شك ، واطل ببصره من باب السراى فلمح عم جاب الله مغرقا في صلاته .. وكان اكثر ما يحبب سيد في الله هو أمره عبيده بالصلاة .. وتحديده لهم قبلة تربطهم باتجاه معين لا يتحولون عنها . فلولا هذا ما استطاع أن يتسلل بسهولة من وراء « عم جاب الله » الراكع أمام القبلة ، المعطى ظهره للباب ، المنهمك في الركوع والسجود ، والقراءة والتمتمة .

وهكذا تسلل سيد إلى الداخل في سكون .. حامدا الله شاكرا عبده المطيع جاب الله .. واتجه في صمت وسكون إلى شجرة التمرحنة مصوبا فوهة القربة إلى الحفرة المحيطة بها ، وترك المياه تنحدر إليها حتى نفد كل ما في القربة فخلعها عنه ووضعها على الأرض وخلع المطبع ووضعه بجوارها حتى يتحرر من قيودهما وتخف حركته .

إن أمامه فسحة من الوقت يستطيع أن يتمتع خلالها بالحديقة . فأبوه ما زال يملأ بقية القرب ، وسيمر في طريقه على بضعة بيوت قبل أن يصل إلى السراية .. أما عبد الله المطيع المدعو جاب الله .. فسيظل مقيدا نفسه إلى القبلة إذ ليس هناك ما يدعو إلى حله .. فهو لم يحس بدخوله .. وهو لا شك مطمئن ، أربعة وعشرين قيراطا .

ونظر حوله يفحص الحديقة بعينيه ليرتب في ذهنه خطة موضوعة للاستمتاع بها .. فرفع بصره على الفسقية ولما يزل بها بعض المياه التي لم تتصرف بعد في مجاري الأشجار فعزم على أن ينتهزها فرصة ويلقي بنفسه فيها .

وشمر الجلباب حتى أرجل سرواله القصير واضعا ذيله في

« عبه » .. ثم قفز إلى المسقية وأخذ يعدو فيها ضاحكا ضاربا الماء بساقيه ، محدثا عاصفة من الرشاش أغرقت بقية جلبابه ، منشدا أحب الأغنيات إلى نفسه « حالى يا حالى .. بس أن مريت .. ع الدبه والقول أبو زيت » .

وهكذا استمر يعدو ويرقص ، متمما بقية الأغنية صائحا : « مر على الباشسجان وغمزنى بعلبة دخان » .

ولمح فى وقفته شجرة لوف ، تتسلق جذع إحدى النخلات وأبصر بين أوراقها الخضراء العريضة ، وزهرها الأصفر كوزا كبيرا من اللوف فى متناول اليد .

ودون أن يفكر ماذا يمكن أن يصنع بالكوز قفز من المسقية ووثب نحو النخلة ، وفى لمح البصر كان قد نزع الكوز من موضعه وأخذ يتسلى بتقشيره ولوث نفسه بمائه اللزج وما عتم حتى قذف به إلى الأرض وراء النخلة .

مغفل !! ما هكذا يضيع الوقت فى الحديقة ؟ . إن أباه قد نصحه بأن يضع عقله فى رأسه ، وما فعله نموذج لتصرف رأس بلا عقل .

وعاد يتلفت إلى الأشجار فوجد الأرض تحت شجرة الجوافة ملأى بالثمار .. فتناول واحدة . ثم تناول ثانية وثالثة .. وما لبث حتى أحس بالشبع .

لقد اتبع قول أبيه ، إنه لم يتسلق الشجرة ، ولم يقصف رقبة عم جاب الله .. ولكنه شبع .. فماذا يفعل بعد ذلك ؟

ليأكل بلحا .. ولكن النخلة ليس تحتها شىء .

ورفع بصره إلى أعلى فإذا بأربع سباطات حملت بالتمر الأحمر ، وقد تهدلت متثاقلة حول جذع النخلة .

وأخذ سيد يفكر بسرعة .

إذا وضع عقله فى رأسه كما قال أبوه .. فعليه أن ينتظر تحت النخلة حتى يمن الله عليه ببلحة أو بلحتين تسقطهما حداة أو غراب أو نسمة من ريح .. ومن يدريه أن الحداة والغراب والنسمة سيهديهم الله إلى إسقاط البلح قبل حضـور أبيه أو قبل انتهـاء جاب الله من صلاته .

أما إذا لم يضع عقله فى رأسه فعليه أن يتسلق النخلة .. وفى هذه المرة .. إذا سقط .. ستدق عنقه هو .. بدل عنق جاب الله .

واخذ يقيس النخلة ببصره وقد أصابته حيرة شديدة .

أيصعد النخلة .. أم لا يصعدها ؟ يصعد أم لا ؟ . يصـعد أم لا .

إن اللوفة ستساعده ، ولكن من يدرى أنها لن تتهاوى تحت ذراعيه .. لا .. لا .. إنه لن يغامر بتسلقها ، ولكنه مع ذلك يريد بلحا .

ويرق فى ذهنه خاطر ، يغنيه عن المغامرة وينيله مآربه .

لم لا يقوم هو مقام الغراب أو الحداة أو النسمة ؟ . انه يستطيع بحجر أن يسقط أضعاف ما يسقطه ثلاثتهم معا دون حاجة منه إلى تسلق النخلة ، وإخراج عقله من رأسه .

وتلفت حوله فوجد بجوارا لمسقية حجرا صغيرا .

هذا حجر مضبوط .. أن الله موفقه هذا الصباح .. صلاة عم جاب الله ، والمياه فى المسقية ، والجوالة جاهزة تحت الشجرة ، والحجر جاهز تحت النخلة .. كل هذا توفيق من عند الله .. او الشيطان .

وقذف بالحجر بأقصى ما لديه من قوة ، واندفع الحجر من يده مرتفعا إلى قمة النخلة ، متجنبا الجذع ، والسباطات ، والزعف ، مارا بجوار كل ذلك فى دائرة ، عبر بها قمة النخلة مندفعا من الناحية الأخرى تجاه البيت ، تاركا كل واجهة البيت الحجرية ، رافضا أن يستقر إلا على

زجاج إحدى النوافذ ، وسقط الزجاج مهشما محدثا صوتا مريعا ، وفي نفس اللحظة هب « جاب الله » من صلاته مندفعا إلى الداخل ، ووراءه المعلم شوشة حاملا قربته ، ونظر « سيد » إلى النافذة المتهاوية في يأس ، ونظر إلى السطيح والقربة ثم اندفع بعدو تجاه الباب هاربا بأقصى سرعة ، وصاح به أبوه في دهشة :

— على فين ؟

وأجابه « سيد » وهو يعدو :

— على الكتاب .

بيدي لا بيد عمرو .

الفصل الخامس

في الكتـــاب

اندفع « سيد » يعدو كالمجنون فلم يتوقف إلا أمام دارهم في درب القط ، وعدا في الفناء مرتميا في أحضان جدته « أم آمنة » وهو يلهث من فرط التعب .

وصاحت به العجوز متسائلة في دهشة وفزع :

ــ مالك ؟ . حصل إيه كفى الله الشر ؟

واستمر « سيد » يلهث دون أن يجيب ، وعادت أم آمنة تستحثه بسؤالها :

ــ مالك ؟ بطحت حد ؟

ــ يا ريته .

ــ قتلت قتيل ؟

ــ ابدا . . كسرت لوح قزاز في السرايه ؟

ــ يا ندامه . . وايه اللي يخليك تقل عقلك وتكسر اللوح . . خبطته فيه ؟

ــ ابدا دا في تاني دور . . وانا كنت في الجنينه بسقي التمرحنه .

ــ وايش جاب التمرحنه للقزاز اللي في تاني دور ؟

ــ اللي حصل . . انا واقف كده تحت النخله لقيت طوبه راحت خبطه في الشباك تشدشته .

ــ ومين اللي حدف الطوبه ؟

ــ انا عارف بقي .. الله اعلم .

ــ كان فيه حد غيرك في الجنينه ؟

ــ لا .. عم جلب الله كان بيصلي في البوابة .

ــ يعني انت اللي حدفتها ؟

ــ ما عرفش .. انا لقيت الطوبة جت في إيدي من غير ما احس .. جبيت ابعدها عني .. رحت حادفها بعيد . عليته لفوق .. لفوق .. عدت النخله ، ولفت ، ومالقيتش حته تنزل عليها في الدنيا الواسعه دي .. غير لوح القزاز .. اعمل لها إيه ؟

ــ مالهاش حق .. كان حقها نزلت تاني ترف على دماغك .. عشان تبطلك الشقاوه وتكسير شبابيك الناس .

ــ وهوا انا كان قصدي ؟

ــ نهايته .. وبعدين عملت إيه ؟

ــ ولا بعدين ولا قبلين .. حطيت ديلي في سناني وقلت يا فكيك ، والا حاستني لما آخد العلقه ؟ . انا عارف انها حاترسي في الآخر على إني أروح الكتاب .. قلت يا واد خدها من قصيرها وروح من نفسك .. فين المندل والطربوش واللوح المسيح ؟ ...

ــ اهم مطرح ما بترميهم .. يعني حايروحوا فين ؟ .. انا لا بعرف اقرا ولا اكتب .

ــ انا حاطلطهم على الصحاره اللي في أودة الكراكيب .

ــ اهم لازم هناك ما حدش شالهم .

وقفز سيد من احضانها مندفعا إلى الصحارة .. فلم يجد عليها شيئا ، وتذكر انه فتح الصحارة عندما كان يبحث عن البنورة ، وتذكر ان عدة الكتاب لابد أن تكون قد سقطت من غطاء الصندوق فوقعت في المسافة بين الصندوق والحائط فصعد فوق الصندوق ومد ذراعه يتحسس الحيز الضيق فاصطدم بالطربوش واخرجه وقد تكور وتطبقت

جوانبه وانهارت أركانه وعلته الأتربة ، وخيمت عليه العناكب ، ثم عاد يتحسس بذراعه مرة أخرى فاصطدم باللوح الصفيح . . . أما الصندل فوجده مختفيا في ركن الحجرة تحت إحدى القرب القديمة .

وأخذ يستعدل الطربوش وينقر قرصه بأصبعه ثم يمسحه بطرف كمه ، فلما عاد إلى أصله وضعه على مؤخـرة رأسه وأخـذ يلبس الصندل ، وأمسك اللوح بيده وصاح بجدته :

ـــ أنا ماشي .

ـــ استنى لما تفطر .

ـــ عندك إيه ؟ أظن حاتقولي طبق البصاره ، والجبنه والبطيخ ؟ .
لا يا ستي يفتح الله . . حسد الله بيني وبين البصـاره بتاعتك . . أنا ماشي .

ـــ أمال حتاكل إيه ؟

ـــ آكل اللي آكله . . معاكي فلوس ؟

ـــ معايه . . عايز كام ؟

ـــ هاتي قرش صاغ . . أفطر بتعريفه وأتغدى بتعريفه .

ـــ آدي قرش صاغ أهو . . بس اشترى حاجه تربي عليك . . مش تروح تبعزقه في الكنافه اللي انت بتشتريها حمص ولب وكرمله . . الحاجه اللي اشتريتها بالليل اهي قاعده زي ما هي ما حدش داقها .

ـــ خليها لما ارجع . . أنا ماشي .

ـــ مع السلامه . . حاسب على نفسك ، وامشي على الرصيف ، وخد بالك وانت بتعدي الشارع . . روح ربنا يهديك ويحبب خلقه فيك . . روح ربنا يجعل السعد في قدمك ويبقيك ويهنيك . . يا سيد يابن شوشه .

وانطلق « سيد » قبل أن يسمع بقية الدعوات . . إذ كان يحفظها عن ظهر قلب . . كما كان يحفظ دعوات السوء التي تفيض بها جعبة خالته « الحاجة زمزم » ، وكان يسائل نفسه أحيانا : هل يسمع الله

فى عليائه مثل هذه الدعوات ؟ .. وهل يفكر فى الاستجابة إليها احيانا ؟ . من يدرى ؟ .. على انه يجب أن يكون على حذر من دعوات زمزم .. فلو فكر الله مرة فى الاستجابة إليها لأودت بالمصاب بها إلى اسفل سافلين .

ولم يكد يتجاوز الباب حتى سمع وقع أقدام تهبط السلم ، ثم سمع صوتا يناديه فى دهشة :

ـــ سيد .. رايح فين ؟

وتلفت وراءه فأبصر « على الخشت » هابطا فى طريقـــه إلى الكتاب .

وتوقف فى مكانه واجاب فى لهجة لا تخلو من مرارة :

ـــ رايح للفقر الازلى .. رايح للشيخ كفته بتامكم .. الواحد افتكر إن ربنا تاب عليه .. لكن معلهش .. أهم يومين وينقضوا .

وعاد « على » يسأله فى دهشة فرحة :

ـــ صحيح رايح الكتاب ؟

ـــ أيوه رايح الكتاب .. إيه ؟ عجيبة ؟ . والا بعد ما شطب ودوه الكتاب ؟ . بلاش ما روحش ؟

ـــ ما تروحش ازاى . انا فرحان عشان حانروح سوا .

وسار الاثنان فى الدرب وقد وضع كل منهما يده على كتف الآخر وامسك بالاخرى اللوح الصفيح ، وزاد على اللوح الصفيح الذى يحمله « على » لفافة ربطت بمنديل محلاوى .

ونظر إليها « سيد » وقال متسائلا :

ـــ دى إيه دى يا واد يا على ؟

ـــ اكل .

ـــ فطار والا غدا ؟

ـــ الاتنين .. وانت .. امال فين الاكل بتاعك ؟

ـــ معايا ساغ اهوه .

ـــ يا بختك ، وحتاكل إيه ؟
ـــ حاخد طبق بليله من عند ابو دومه .
ـــ آدي نكله .
ـــ وبتلاته مليم شقة وطعميه سخنه من عم سلامه .
ـــ يا بختك . . آدي تعريفه . وإيه كمان ؟
ـــ واتغدى بالتعريفه التاني من عند عم جراده .
واطرق « على » وقد بدا عليه الأسف ثم قال متنهدا :
ـــ قولتلها تديني ساغ وبلاش القرف اللى هي مديهولى ده . . ما عجبهاش . . قالت لا . . خدلك حاجه تربى عليك ، وبلاش الرمرمه اللى بتلمها من الشارع . . رمرمه آل ؟
ـــ ادتك إيه ؟
وكان معروف بداهة ان « هي » هذه هى « أم على » ، واجاب « على » فى حنق :
ـــ أنا عارف مديالى إيه ، لازم كفته ورز ولحمه . . وعك م اللى بيعملوه في البيت .
واحس « سيد » بشهيته تتفتح للكفتة واللحمة وغيرها من الكبدة والمخ أو ما يسميه على « عك » ، وكان « على » يكرهها لأن أباه قصاب ، وهو مغرق فى اللحوم إلى اذنيه . أما « سيد » فكان الحال يختلف عنده اختلافا بينا .
ولكنه لم يشأ ان يظهر لهفته على ما يحمل « على » فى لفافته وعزم على أن يتفاخر بما ينوى ان ياكله رغم انه يعلم جيدا ماذا يبيعه « عم جرادة » من أصناف المأكولات .
قال « سيد » وهو يقلب شفتيه فى اشمئزاز مصطنع :
ـــ أخص . . كفته ولحمه ورز . . حاجه تقرف . . الله يكون فى عونك . . أنا برضه أم آمنه جبت تعملها معايا . . لكن على مين . دول صنف ما يخفش إلا من العين الحمره .

وعاد « على » يتنهد كأنه ينوء بأثقال من الحزن .. ونظر إلى « سيد » بطرف عينيه وبدا عليه التردد برهة ، ثم قذفه بطلبه في صوت وجل قائلا :

ــ تشارك .

وأحس « سيد » من قول صاحبه طربا شديدا ، ولكنــه تجاهل مقصده وسأله :

ــ ف إيه ؟

ــ فى الأكل !

ــ ازاى ؟

ــ نشترى حاجات بالمساغ بتاعك سوا ، وناكل أكلى سوا .. إيه رايك ؟

ــ لا يا عم .. حد الله بينى وبينك .. انا ما حبش الملك .

ــ طيب يا سيد .. ابقى اعرفها .. لما يبقى معايا حاجه ما تبقاش تيجي تتوللى هات حته .

ــ انت زعلت ؟

وأجاب « على » بصوت مختنق كأنه يوشك على البكاء :

ــ وازعل ليه ؟ كل واحد حر .

ــ طب ما تزعلش .. خلاص قبلت الشركة .

وضحك على وانفرجت أساريره وأردف سيد قائلا :

ــ تحب نشترى إيه فى الفطار ؟

ــ كل واحد طبق بليله .. وبعدين يحلها ربنا .

وكانا قد وصلا إلى ناصية « درب مجور » ولاحت لعينيهما دكان « أبو دومه » ، وقد وقف الرجل على بابها وأمامه « قروانة البليلة » يتصاعد منها البخار ، وقد أمسك بكبشته وأخذ يقلب البليلة فى القروانة وبين آونة وأخرى يملأ بها إحدى السلاطين ويمد بها يده إلى أحد

الزيتن . وبجوار « القروانة » استقرت صينية « بسبوسة » وبجوارها سلطنية صغيرة بها سمن ، وصينية أخرى بها « بلح الشام » .

وكانت الساعة قد جاوزت السادسة والنصف ، وقد التف حول الحانوت بعض الصبية والعمال : وكان من بينهم « محسود زين » و « دقدق الحمى » في طريقهما إلى الكتاب ، وما كادا يبصران « سيدا » مقبلا ، وهو يرتدى الطربوش والصندل ويحمل اللوح ، حتى بدت عليهما الفرحة وهشا له ، وصاح « زين » مرحبا به مظهرا دهشته :

ـــ إيه ؟ سيد ؟ إيه اللى جابك ؟ يا ميت مرحبا .

والقى « سيد » التحية في تؤدة بصوت كساه من الغلظ ما استطاع :

ـــ السلام عليكوا يا رجاله .

واجابت أصوات متفرقة من هنا وهناك :

ـــ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم انبرى له صوت آخر يقول :

ـــ ما سلامشى ليه ؟ انت صغير .

وقال « الحمى » مؤديا واجبه فى الترحيب :

ـــ أهلا . . أهلا . . دا الكتاب حاينور .

وأردفه « زين » قائلا :

ـــ دا الكتاب من غيرك ما يسواش بصله ، ما ضحكناش ضحكه واحده من يوم ما غبت والشيخ كفته مورينا الويل .

وقبل أن يجيب سيد على حديث زين صاح بأبى دومه :

ـــ اديتا اتنين بليله وحياة أبوك يا معلم .

وغرف « أبو دومه » البليلة فى الطبقين . . وسلم لكل من الصبيين طبقا . ولم يكن « سيد » ليترك الفرصة تمر دون أن ينتهزها ، فقال بصوت مرتفع ، وفى لهجة الرجل :

ـــ على حسابى الاتنين دول .

وضحك الرجل وأجاب يقلد لهجة سيد :

ـــ حاضر يا معلم .. تعيش وتصرف .

وهم « على » بان يعلن ان المسالة شركة .. وانه هو ايضا سيعطيه من الكفتة التي معه ، ولكنه فضل الا يثير غضب « سيد » حتى لا يفض الشركة ، وعزم على ان يحتمل كل شيء في سبيل طبق البليلة .

وفي خلال تناول البليلة بدأ استفسار الصبية عن سر عــودة « سيد » إلى الكتاب ، بعد أن اعلن في عزم وإصرار انه لن يذهب إليه ، لان اباه لا يستطيع الاستغناء عن مساعدته ، وأنه ينوي ان يجلس في كشك الصنبور ويترك له العربة والترب .

كان « زين » اول السائلين :

ـــ ايه بقى يا سيد .. ما قولتلناش إيه اللي حصل .. إيه اللي خلاك ترجع الكتاب تاني ؟

ـــ والله ما عجبنيش الشغل .

ـــ ازاى ؟

ـــ اهو محصلش قسمه .

ـــ حد زعلك ؟

ـــ أبدا .. سوء تفاهم بسيط بيني وبين أبويه .

ـــ وإيه السبب ؟

ـــ ولا حاجه .. كل شيخ وله طريقه .. ما اتفقناش قلت له سلامو عليكم .. قال لي عليكم السلام .. يا جماعه الله الغني .

ـــ لازم فيه حاجه حصلت ؟

وشاركهما « على الخشت » في التأكيد بقوله :

ـــ ما تقول يا سيد .. احنا فيه بيننا وبين بعض سر ؟

وبدأ الحاح الصبية .. ووجد « سيد » انه لابد أن يقول شيئا فهز راسه في شيء من الاسف ، وبدأ يحضر في ذهنه اكذوبة يثير بها نفوس الزملاء ، قال :

ـــ والله يا جماعه أصل الحكايه مش مستاهله ..

ـ قول يا شيخ .. قول .

ـ النهارده الصبح .. قمنا احنا الاتنين زتينا العربيه ورحنا على الكشك مليت انا قربتي وتني رايح على السرايه دخلت السرايه وفرغت القربه وجيت خارج لقيت الفسقيه اللي هناك مليانه سمك .. بقشفى .. ما اهتمتش .. انا اصلي ما احبش السمك .. لكن بصيت لقيت في وسط السمك سمكه كبيره كده تطلع اد الواد « على » .

وصاح على في دهشة :

ـ صحيح يا سيد ؟

ـ أمال بكذب عليك !

ـ وبعدين ؟

ـ وقفت على حرف الفسقية .. ورحت ماند إيدي ماسكها من رقبتها .. قعدت تتلفص .. لكن على مين .. حبت تروح كده والا كده .. ما يمكنتش .. رحت شايلها من الفسقيه ، ورحت فاتح بق القربه ومدخلها فيه .

ـ ودخلت ؟

ـ ما تدخلش ليه ؟ حاتعصى ؟ حطيت السمكه في القربه واتدورت كده عشان أعدل السطيح ، بصيت لقيتها راحت مطلعه دماغها وجاريه في الجنينه .. جريت وراها لقيتها جت عند النخله وراحت طالعة بالقربه عليها .

ـ طلعت على النخله ؟

ـ بالقربه !! ما هو دا اللي مجنني .. لو كانت طلعت لوحدها .. ما كانتش همني .. انا اصلي ما حبش السمك .. لكن القربه .. امشي من غير قربه ؟ ما يمكنتش .. (ثم بدأ يلقى بحكمة ابيه) : اصل السقا الأصلي ما يتلعش السطيح والقربه ابدا .. انتم شفتم عسكري ماشي وقالع بدلته ؟

وأجاب الصبية بصوت واحد :

ــ لا .

ــ اهو كده السقا مننا .. لازم تبقى مماه قريته .. السمكه طلعت على النخلة وانا وراها .

ــ وعرفت ؟

ــ إلا عرفت .. حمامه .

ــ ومسكتها ؟

ــ لا .. مامسكتهاش .

ــ ليه بقى ؟

ــ انا يدوبك وصلت طرف النخله ، لقيتها نطت من النخله ووقفت على حرف الشباك .

ــ وبعدين ؟ نطيت وراها ؟

ــ اقول لكم الحق .. انا اصلى ما حبش النتش .. انا خفت .. المسافة بعيده بين النخله وبين الشباك .. قلت يا واد تنط ما تنطش .. تنط ما تنطش !! لقيت نفسي كشسيت .. وبعدين ؟!!! وبعدين في القريه !! انا اصلى اللى يهمنى القريه اصل السقا الأصيل (وعاد يكرر جملته) .

ولكن الصبية اخذوا يستحثونه بقولهم :

ــ وبعدين ؟ .. عملت إيه ؟

ــ ولا قبلين .. النخله مليانه بلح .

ــ احمر والا سماني ؟

ــ احمر .

ــ فيه مرطب ؟

ــ ماخدتش بالى .

ــ هيه وبعدين ؟

ــ رحت مادد إيدي قاطع سباطه ، ورحت مطوح دراعى وهابد بيها السمكه .

ـــ وقعتها ؟

ـــ لا . . كسرت القزاز .

ـــ والسمكه ؟

ـــ نطت على الأرض رحت ناطط فوقها ، السمكه قلعت القربه وجريت على الفسقيه . . في نطتي طب أبويا ومعاه عم جاب الله . أبويا افتكر ان انا بالعب والا بقطع بلح ، وعم جاب الله قعد يزعق على القزاز ، وانا كنت زهقان وروحي طالعه من الجسرى ورا السمكه ما استحملتش حد يكلمني كلمه واحده ، رحت سايب لهم القربه والسطيح وتني ماشي .

وكان الصبية قد انتهوا من أكل البليلة ودفع « سيد » الاربعة المليمات ، وسار الصبية في طريقهم إلى الكتاب ، وهم يمطرون « سيداً » بوابل من الأسئلة من السمكة أم قربة ، وعن البلح المرطب والفسقية .

وأخيراً وصل الركب إلى الكتاب .

* * *

والكتاب يقع في أحد الدروب المتفرعة من درب السماكين ، أو على الأصح في أحد الفجوات المسدودة التي شبهناها بحرف U القائمة على جانبي الدرب . والكتاب ذو اسمين : اسم رسمي معقد ملتوى مكتوب على اللافتة الزرقاء الكبيرة المعلقة على بابه ، واسم دارج سهل جرت به الألسن وتعودت نطقه الشفاه . . أما الاسم الأول فعبثا تحاول قراءته من اللافتة فقد زاده الخطاط ـــ بطريقة كتابته ـــ تعقيداً فوق تعقيد ، فأنت ترى الحروف متشابكة ركب بعضها البعض والتف بعضها حول البعض الآخر فهي بالتأكيد لم تكتب لتدل على اسم الكتاب ، بل هي لغز يعجز عن حله إلا من له سابق معرفة بالحل ، فإذا وقفت أمام اللافتة ، وأنت تعرف اسم الكتاب فانك قد تستطيع

قراءته ، أما إذا نويت أن تعرف الاسم من اللافتة ، فليرحمك الله قبل أن تعرفه .

وبعد كل هذا ، أظن من الخير أن أذكر الاسم لك . حتى أكون عونا لك لو تذفت بك الظروف السيئة أمامه وامتحنت في قراءته .

الإسم الكريم هو .. هو .. كت .. خوند .. لعن الله الذاكرة .. لقد نسيته .. خد نداخ .. إنه اسم تركى قديم أغلب ظنى أنه صاحب الوقف الذى به الكتاب .

تذكرته .. أجل .. أجل .. إنه الأمير كتخدا خوندا طولباى .. هل سمعتم بهذا الأمير ؟ .. ولا أنا ، احفظوه إن أردتم ، وإن استطعتم .

تصوروا هذا الاسم مكتوبا بتلك الطريقة المعقدة ، ثم اعذروا بعد ذلك أهل الناحية إذا ما طلقوا اسم كتاب « الأمير كتخدا خسوندا طولباى » ثلاثا ، اقسموا وراسهم والف سيف الا يسموه بغير « كتاب الشيخ كفتة » .

أى والله اعذروهم ، فالكفتة اسم له معنى ، وهو بلا شك أطعم من الكتخدا خوندا .. الخ .. والكفتة اسم يجرى على لسانهم بسهولة . أما الكتخدا فهو اسم لا يعرفون له معنى ولا يستطيعون له نطقا ، وبعد كل هذا ، أن الكتاب هو فعلا كتاب « الشيخ كفتـــة » ، فهو ناظـره ومدرسه ، وهو كل شيء فيه ، أما صاحبنا الأمير كتخدا فما عاد له وجود في الكتاب ولا على ظهر الأرض ولا يعلم إلا الله مثواه .

اجتاز الصبية الأربعة باب الكتاب ، كتاب الشيخ كفتة المفتوح على مصراعيه ، وكان أول ما صادفوه هو « الشيخ كفتة » نفسه واقفا على باب حجرته يمسح بكفه على شاربه وشفتيه بعد بصقة كبيرة ختمت سعالا طويلا .

وكان « الشيخ كفتة » يرتدى جبته وقفطانه ويضع عمامته على رأسه الكبير ووجهه المتفنخ الأجفان المتاكل الأنف من آثار الجدرى .

وكان يشرف من باب حجرته على مدخل المدرسة وساحتها ، وعلى الفصول المحيطة بالساحة .

ولم يكد « الشيخ كفتة » يبصر « سيد » حتى تجهم وجهه وصاح بسيد :

ـــ انته ياواد انت .. ايه اللى جابك ؟

وأجاب « سيد » ببساطة :

ـــ رجليه .

وزاد تجهم الشيخ وقال محتدا :

ـــ وكنت غايب ليه ؟

ـــ ما كانش ليه كيف يا سيدنا الشيخ .

ـــ يعنى إيه ما كانش لك كيف ؟ هى المدرسه بالكيف ؟

ـــ تصدى كنت عيان شويه .

ـــ وفين أبوك ؟ .. انا مش حا اقبلك فى المدرسه من غير ما تجيبه أبوك .

ـــ أبويا وراه شغله .. ما يقدرش يعطله .

ـــ انا اصلى عارفك ولد لعبى وبطال .

ـــ الله يسامحك .

ـــ متردش .. انا حاقبلك المره دى .. والمره الجايه لو غبت مش حدخلك من غير ابوك .. مفهوم ؟ .

ـــ مفهوم يا سيدنا الشيخ .. على عينى وراسى .

ـــ جالك خابط فى راسك .. خش انجر .

ـــ حاضر .

واتجه « سيد » لاحقا برفاقه وهو يدمدم :

ـــ طيب يابن الاروبة .. الصبر طيب .. كله بطلع فى الغسيل .. والنبى لاطلع على جتتك البلا .. واخلص الموشح اللى صابح تجيهولى على الصبح .

وسمع الشيخ الدمدمة ، ولم يشك فى انها سباب ، فصاح بالصبى :

ـ بتقول إيه يا ولد ؟ .

ـ بدعيلك يا سيدنا الشيخ

ثم همس لاصحابه :

ـ ادعو له .. ادعو له .

واجابه أصحابه فى مثل همسه :

ـ الله يخرب بيت أبوه .

ـ دا راجل طيب .

ـ الله يخرب بيت أبوه .

ثم انطلق الاربعة يتهتهون ويتواثبون امام « الشيخ كفتة » .. ولم يجد الرجل بدا من الانزواء فى حجرته .

وكانت ساحة المدرسة رحبة مربعة الأضلاع ، الضلع الاول منها يتوسطه باب الدخول والدهليز الذى يعبر بين حجرتين حجرة الناظر على الميسرة ، اما حجرة الميمنة فكانت كشكول يحوى مخزن المدرسة والكانتين والإدارة والمصلى وعم جراده والشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت .

أما الثلاثة الأضلاع الباقية المحيطة بالساحة ففى الضلع المواجه توجد حجرة بها « سنة ثالثة » ودورة مياه مكونة من مرحاض قذر مرطوب ملوث الجدران مشققها ومسقى (أعنى حجرة للشرب) بها حوض من الزنك قائم على سيقان خشبية ربطت به بعض أكواز من الصفيح .. وكان السقا يملأ الحوض كل صباح ويشرب منه الأطفال بالكيزان بعد أن ترسب الرمال فى قاعه أو بعد أن يرشحونها بمناديلهم بوضعها على فوهة الاكواز .

وفى الضلع القائم على يمين الداخل توجد « سنة أولى » وفى الضلع القائم على اليسار توجد « سنة ثانية » .

وكانت تتوسط الساحة نخلة تعتبر في المدرسة بمثابة الشيطان في الدنيا .. ولولاها ما وضعت في « الفلسكة » سيقان وما هوت « الفرقلة » على ابدان .

كان الصبية يبكرون للحصول على ثمرها .. وكان الشيخ « كفتة » يبكر لضبطهم متلبسين بجريمتهم فلا يكاد حجر يتصاعد إلى النخلة حتى يكون « جرادة » قد قبض على عنق قاذفه ووضع ساقه في الفلكة ؛ ويكون الشيخ كفتة رافعا يده « بالفرقلة » هاويا بها على قدميه .

ولم يكن أصحابنا في وصولهم هذا الصباح إلى المدرسة بالمبكرين ولا بالمتأخرين ، وكانت الساحة قد تترق فيها بضعة صبيان يتحادثون ويلعبون ، وكان عم جرادة قد اتخذ مكانه وسط مطعمه المتنقل تحت النخلة .

كان « عم جرادة » عماد المدرسة والقاسم المشترك الأعظم فيها .. والقدير على كل أعمالها .. كان من ناحية الشكل أشبه بالجرادة ؛ فهو رفيع الأطراف طويلهما ، تبدو أسنانه السوداء المدببة كأنها المنشار وهو يسير حاملا صفيحتيه المدلاتين من حبلين ربطت نهايتهما في نشابة خشبية محملة على كتفيه .

كان « عم جرادة » كفراش يقوم بنظافة المدرسة وإصلاح أدواتها وإعدادها ، وكان كمتعهد كانتين يقوم بشراء الأطعمة والحلوى وبيعها للأطفال ، وكان كضابط يقوم بعقاب التلاميذ إذا ما أخطأوا إما عقابا مباشرا بسبهم وضربهم من تلقاء نفسه ، وإما عقابا غير مباشر بتقديمهم إلى سيدنا الشيخ ، وكان كمدرس يقوم مقام الشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت اذا ما تغيب أحدهما أو تغيبا كلاهما ، وكان كناظر يقبض المصروفات ويحل ويربط في المدرسة إذا ما غاب الشيخ كفتة .

وأخذ الصبية يتوافدون على المدرسة زرافات ووحدانا حتى اكتظت بهم ساحة المدرسة ، وعلا الصراخ وارتفعت الضجة حتى أصبحت الساحة كأنها عش الزنابير ، ووسط هذا الخليط الصاخب اللاعب

كان « سيد » يتوسط جماعة منهم وهو يحاول ان يقف على يديه بعد ان اعطى لوحه لعلى .

ونجح « سيد » فى الوقوف على يديه والسير بضع خطوات وقد سقط جلبابه على رأسه وسقط طربوشه على الأرض وبدا عاريا مقلوبا باللباس والفانلة . وصفق الأولاد ، واعتدل هو منتصبا على ساقيه وتناول الطربوش فوضعه على رأسه .. وتناول اللوح من « على » وصاح متفاخرا :

ــ ها .. حد فيكو يعرف يعملها ؟

واحجم البعض وانبرى البعض محاولا محاولات فاشلة . واخيرا وضع « على » ذراعه فى ذراع « سيد » وسحبه من بين الجمع قائلا فى تفاخر :

ــ دانت ابو السيد والاجر على الله .

وما كادا يسيران خطوة حتى قال « على » :

ــ مش هاتشترى لنا حاجه ؟ .

ــ حاجه إيه ، إحنا مش لسه واكلين البليله ؟ .

ــ قصدى تشترى حاجه من عم جراده .. انا شايف عنده موز حلاوه كويس .

ــ لا يا شيخ .. انا ملحبوش .

ــ طب إيه رايك فى الطعميه اللى قدامه .. شامم ريحتها .. حاجه تشبع النفس .

واخذ « على » شهيقا طويلا مغريا « سيدا » .. واخذ « سيد » مثله فنفذت رائحة الطعمية إلى خياشيمه وكانت الرائحة تملأ اخاذة فقال ضاحكا :

ــ معاك حق .. يا الله ناخد كل واحد بنكله .. انت مش معاك ميش ؟

ــ معايا .

ـــ طيب ياالله بينا .

ووقف سيد امام عم جرادة وقال متخذا لهجته الرجالية :

ـــ صباح الخير يا عم جراده .. ازاى الحال ؟ .

ولكن « عم جرادة » لم يكن لديه الفراغ لكي يأخذ معه في الحديث ويمطى ، فقال له في اقتضاب :

ـــ عاوز إيه ؟

ـــ عاوز باربعه مليم طعميه ، كل بتكله لوحده .

ـــ مافيش طعميه لوحدها ، لازم طعميه وعيش الشقه وطعميتين بتلاته مليم .

ـــ مين قال كده ؟

ـــ اللى حصل .

ـــ لكن انا عاوز طعميه بس .

ـــ مافيش ، روح بقى بلاش خوته خلينا نشوف غيرك .

وملأ الغيظ « سيدا » وبدا اليأس على وجه « على » وهو يرى « سيدا » يهم بالانصراف فقال له :

ـــ معلهش يا سيد .. اشترى وخلاص .

واجابه « سيد » هامسا :

ـــ إذا كان معانا العيش .. اشترى طعميتين بتلاته مليم !! . دا نصاب ، دا ابن كلب حرامى .

ـــ وحانعمل إيه بقى يا سيد ، ماأحنا مافيش أدامنا غيره .

ولكن سيدا جذب يده وهم بالانصراف ، فقال « على » في لهجة آسفة :

ـــ أنا لو كان معايا فلوس .. كنت اشتريت .

وأحس سيد بجرح لكبريائه من كلمة « على » ، فاستدار في حدة وقال لعم جرادة في غيظ :

ـــ هات شقتين .

وامسك عم جرادة الشقتين فوضع في كل منهما طعميتين وناولهما للصبيين .

وامسك كل منهما بشقته ووضع « سيد » يده في جيبه لاخراج النقود ثم اخرجها ووضعها في جيبه الآخر واخذ ينقلها من جيب لآخر بسرعة وارتباك وحيرة ، وقد علا وجهه الاصفرار وهمس لعلى قائلا :

— اسمع ، انا مش لاقى الفلوس .

— يمكن الراجل بتاع البليله ما اداكش الباقى ؟

— لا ، اداني .

— افتكر كويس ؟

— فاكر كويس قوى .

— امال يعني راحوا فين ؟

وضع « سيد » كفه على جبينه كأنه قد تفكر .. وقال لعلى رافعا سبابته :

— لازم وقعوا وأنا باتشقلب .

وكان « عم جرادة » يرقب ترددهما وحيرتهما ، فصاح بهما حانقا :

— الفلوس .

وقال « على » مهدئا :

— استنى شويه يا عم جراده لما ندور عليهم .. الظاهر انهم وقعوا .

ولكن « جرادة » لم يتمهل بل قفز من وسط الصفائح والصواني واطبق بكلتا يديه على الشقتين واستعادهما من بدى الصبيين صائحا :

— لما تبقوا تلاقوا الفلوس .. ابقوا تعالوا اشتروا .

وتابط « على » ذراع « سيد » ، وقال وقد أطرق برأسه ذليلا محسورا :

— معلهش يا سيد .. تعال ندور عليهم هناك مطرح ما كنت بتتشقلب .

ووقف الاثنان يبحثان عبثا في منطقة الشقلبة ، واخيرا قال « سيد » في صوت مهدد :

ـــ انا حاوريه .. تعال .

وجذب « علي » من يده .. واتجها إلى عم جرادة ، وقال « سيد » هامسا :

ـــ اسمع يا علي خليك واقف ورا النخله .. وكل اللي عليك تعمله إنك أول ما تلاقي « عم جراده » سايب مطرحه مد إيدك خد اللي يعجبك .

ـــ وإذا شافني حد ؟

ـــ ما تخافش .. مافيش حد حايشوفك .

ـــ لكن دي سرقه ؟

ـــ سرقه سرقه .. مالكش دعوه انت .. ربنا يبقى يحاسبني أنا .. الراجل « عم جراده » بقاله خمس سنين بيسرقنا . لما نسرقه مره .. ما افتكرش ربنا يزعل .. فاهم .. كل اللي عليك انت تقف ورا النخله وتاخد اللي انت عايزه ، ومافيش حد يشوفك أبدا .

وذهب « علي » فاخذ يسير متلكئا حول النخلة حتى استقر وراء « عم جرادة » .. واتجه « سيد » إلى الحجرة المشتركة بين المدرسين والمخزن و « عم جرادة » والكائنة أمام حجرة الناظر حتى وقف بجوار نافذتها المطلة على الساحة ، واطل برأسه فلمح الشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت وقد جلسا على إحدى « الدكك » وقد دس كل منهما يده في طبق فول مشترك .

وعلى حين غرة صاح « سيد » بأعلى صوت :

ـــ حريقه .

وقفز الشيخان من مكانهما مذعورين وصاحا في نفس واحد بأعلى صوت :

ـــ حريقه .

ووصلت صيحتهما إلى « الشيخ كفتة » فاندفع من حجرته وهو

يصيح باعلى صوت وهو لا يرى شيئا :

ـــ حريقه .

وهاج الطلبة وماجوا واندفعوا نحو الباب يتدافعون بالمناكب والايدى ويصيحون :

ـــ حريقه .

واندفع « عم جرادة » بلا وعى إلى اتجاه الباب ليتبين اين الحريقة .

وهكذا اندفع كل من بالمدرسة وراء الحريق ، ووجد « على » نفسه « بقدرة قادر » وقد وقف وحده امام أصناف الاطعمة بلا رقيب ولا حسيب .

وهم ان يأخذ ما يريد ، ولكنه وجد الكل مندفعين إلى باب المدرسة فى هياج وجنون ، فلم يدر إلا وهو يندفع وراءهم ويصيح هو ايضا :

ـــ حريقه .

واحد فقط هو الذى لم يكن يجرى مع القطيع ، وهو « سيد » ، فقد انزوى فى أحد الاركان ، وكانت دهشته شديدة حين راى صاحبه الغبى يجرى وسطهم مذعورا .. وهتف لنفسه فى اسى :

ـــ يخرب بيتك .. انت كمان بتجرى ورا الحريقه وانا عاملها علشانك ؟

ثم اندفع بسرعة إلى الماكولات المستقرة تحت النخلة ، واخذ يعبىء فى جيبه بسرعة ما خف وزنه وغلا ثمنه .

ورويدا رويدا هدأ القطيع عندما أعياهم البحث عن مكان الحريق الذى افزعهم كل هذا الفزع .. وبدأ الناظر تحقيقه عن مصدر هذا العبث .

نشهد الجميع ومن بينهم جرادة ـــ الذى لم يكن الناظر يشك فى شهادته ـــ ان اول من استغاث من الحريق هما الشيخ ثابت والشيخ عبد الرسول .

وحاول الشيخان عبثا أن يقنعا الشيخ « كفتة » أنهما سمعا الاستغاثة من الداخل ، وانهما كانا ضحية مؤامرة .. ولكن الشيخ اندفع في تقريعهما قائلا :

ــ دي مسخره .. دا لعب عيال .. أنا لازم اشوف شغلي معاكم .. انتم عاملين زي تنابلة السلطان .. اكل ونوم .. والواحد منكم آخر الشهر يقبض الماهية وهو نايم .

وفي تلك اللحظة كان « سيد » و « علي » قد انزويا في حجرة الشرب ، واخذ « سيد » يخرج الطعمية من جيبه قائلا في لهجة خليط من الفرحة والسخرية :

ــ خد اتسمم .. الطعمية نقعت على الجلبيه واللباس ، حضرتك بتجري ورا الحريقه ؟

ــ والله أنا لما لقيت المدرسه كلها بتجري .. قلت لازم حريقه صحيح .

ــ معذور .. أنا كمان الفار لعب في عبي ، وكنت حاجري .. ولكن قلت يا واد عيب .. خليك تقيل .. خد يا عم .. وادي كمان موز من اللي كنت عايزه .. وادي شوية براغيت الست ، وادي حتتين خيار مخلل للغدا .. مبسوط يا عم .. إيه رأيك ؟

وقبل أن يبدى « علي » رأيه كان « جرادة » يدق الجرس وكان الصبية يصطفون استعدادا للدخول إلى الفصول .

اصطفت الطوابير الثلاثة في ثلاثة أضلاع ، كل طابور امام الفصل الذي سيدخله ، وفي الضلع الخالي وقفت ادارة المدرسة وهيئة التدريس وجميع المهيمنين على مرافقها .

وقف الاربعة الكبار .. كفتة وعبد الرسول وثابت وجرادة وقد امسك كل منهم باحدى ادوات الارهاب : كفتة بالفرقلة يطرقع بها على جانب فخذه ، وثابت وعبد الرسول كل منهما بخيزرانة ، وجرادة بالفلكة يعيد ربط أحبالها جيداً .

وكان « على » يهمس فى اذن « سيد » :

ــ الطعميه سخنه .. اعمل فيها إيه ؟

ــ اثبت .. اوعى تتحرك .. لحسن ننكشف .

ــ حافضل مخليها لامتى ؟

ــ لغاية ما تخش الفصل .

ــ وبعدين ؟

ــ ناكلها .

ــ ازاى ؟

ــ اول حصه عندنا قرآن ، وربنا يسهل ويخلى الشيخ عبد الرسول ياخد له تعسيله زى عوايده ، وناكل زى ما احنا عايزين .

ــ لكن افرض ...

ولكنه لم يتم سؤاله فقد أسكته صوت « الشيخ كفتة » يصيح نامرا قبل ان يبدأ خطبته الصباحية :

ــ الواد اللى بيتكلم ده يسكت احسن له لحسن آجى اكسر الفرقله على دماغه .

وكان هذا هو انذاره العام الطبيعى قبل ان يبدأ حديثه ثم بدأ الحديث قائلا :

ــ اسمع يا واد يابن الكلب منك له .. بقى انا بقالى تلاتين سنه فى المدارس ماوردش على اللى حصل النهارده . تلاتين سنه ماشفتش هيجان وزيطه زى اللى حصلت دلوقت ، وعلى إيه .. على الفاضى .. حريقه .. حريقه .. انا بدى اعرف مين اللى عمل الفصل ده عشان انمسه قدامكوا هنا ... اشرحه .. انا كنت ناوى اجلدكم كلكم .. لكن حاسبكم المره دى .. عشان انا عارف مين اللى يستاهل الجلد حقيقى (ثم نظر بطرف عينيه إلى ثابت وعبد الرسول) ، ودلوقت عايزكم تخشوا الفصول من سكات .. يالله .

ودارت الطوابير وبدأ أفرادها يدخلون الفصول فرادى متخذا كل منهم مجلسه فوق التختة الخشبية .

وجلس « على » بجوار « سيد » واضعا كل منهما لوحة الصفيح وقلمه البسط على ظهر التختة ، داعما بمحتويات جيبه في باطنها ، ولم يتح لهما دخول « الشيخ عبد الرسول » في أعقاب التلاميذ فرصة التمتع بشيء من محتويات الدرج ، فجلس كلاهما في قلق ولهفة يرقب فرصة غفلة من الشيخ حتى يدفع في فمه بقرص طعمية أو بقطعة خيار .

وأمسك « الشيخ عبد الرسول » بقطعة الطباشير وكتب التاريخ الهجرى ، ثم كتب في منتصف السبورة « قرآن كريم » .

والتفت إلى التلاميذ قائلا في تؤدة :

ـــ النهارده حنبتدى « سورة عبس » .

وهمس « على لسيد » :

ـــ وعبس دا يبقى مين دا كمان ؟

ـــ انا عارف ؟ لازم يبقى واحد من أعداء النبى زى أبو لهب وأبو جهل . . باين كده من اسمه .

ولم يقتنع « على » ورفع أصبعه إلى أعلى صائحا :

ـــ سيدنا الشيخ ؟

ـــ عايز إيه يا واد ؟

ـــ عبس دا يبقى مين ؟

ـــ مش ضرورى تعرف . . أنت عليك انك تحفظ من سكات ، ومن غير غلبه . . فاهم والا لأ . . ناقص بقى تقول لى مين تولى ومين الأعمى .

ثم وجه القول إلى التلاميذ :

ـــ دلوقت امسحوا السوره القديمه من على الألواح .

وكان قوله هذا بمثابة أمر بالبصق : فقد أطلق كل منهم أكبر بصقة جاد بها لعابه على السورة القديمة كان بينهما ثأرا ، ثم أمسك بخرقة قذرة

سوداء من كثرة ما علق بها من مسح الكتابات السابقة وأخذ في تحريكها على صفحة اللوح بحركة دائرية سريعة ماحيا كل أثر لبقايا السورة .

وترك « الشيخ عبد الرسول » فرصة للمسح ثم بدأ حديثه :

ـــ دلوقت كل واحد منكم يكتب التاريخ فوق ويكتب في وسط السطر قرآن كريم وتحتها جزء عم . . خلاص . . اكتب بقى . . « بسم الله الرحمن الرحيم . . عبس وتولى . . أن جاءه الأعمى » .

واستمر « الشيخ عبد الرسول » في الإملاء وهو يلوك الكلمات في فمه كأنه يمضغها مضغا ويحرك شفتيه بمخارج الحروف في حركات مبالغة كأنه ممثل في سينما صامتة .

وفي خلال الإملاء همس علي لسيد في ملل وضيق :

ـــ لسه فاضل كتير ؟

ـــ علمي علمك . . يعني هوا أنا كنت دخلت جوا السوره . . أنا لا أعرف عبس ولا عمري شفته .

ـــ لكن أنا بطني نونوت .

ـــ استنى شويه .

ـــ والطعميه حاتبرد .

ـــ معلهش استحمل .

وأخيرا بدأت التباشير عندما صاح الشيخ عبد الرسول « صدق الله العظيم » . وهمس « علي » في فرحة شديدة :

ـــ يا سلام . . أهي دي أكتر حاجه بإحبها في السوره .

وقال « الشيخ عبد الرسول » معقبا على السورة :

ـــ دلوقت خلصنا كتابه وعايزين نبتدي الحفظ . . مش عايز واحد منكم يون وإلا يسكت . . يالله ابتدي .

وكان أمره هذا بمثابة إطلاق للألسنة من عقالها . . أو إيذانا بثورة ، فقد اندفع الصبية بالصياح مرة واحدة هاتفين :

ـــ عبس وتولى أن جاءه الأعمى .. عبس وتولى أن جاءه الأعمى .

وأخذوا يكررونها وهم يحركون جذعهم الأعلى إلى الأمام وإلى الخلف فى ذبذبة سريعة أشبه بحركة بندول الساعة ، ووقف الشيخ عبد الرسول يرقبهم ، وأخذ يحرك بصره بينهم علّه يكتشف مكسالا لم يشارك الجمع فى ضجته وصياحه فلما اطمأن رفع عصاه وهزها فى حركة انذارية قائلا :

ـــ مش عايز واحد صوته يوطى .. بكره حاسمعها لكم كلها .. واللى مش حالاقيه حافظ .. حاقطع نفسه .. أنا حاوصل لحد دورة الميه .. عايز اسمع صوتكم من هناك .

وخرج « الشيخ عبد الرسول » ليقضى حاجته وأصوات الزنابير تطن فى انحاء المدرسة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

ولم يكد الرجل يختفى حتى بدأت الضجة تخفت وأخذ الصياح يتضاءل ، حتى انتهى إلى سكينة نسبية لا يسمع فيها إلا أحاديث الصبية بأصواتهم العادية وتعليقاتهم ونكاتهم .

وكان أول ما فعله « على » بعد خروج الشيخ أن هتف لصاحبه :

ـــ هيه .. اطلع ؟

ـــ أصبر شويه .. لحسن الراجل يرجع : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

ـــ خلاص مشى .. ماتخافش .

وعندما اطمأن سيد إلى ذهاب الرجل كف عن ترديد السورة ، ومد يده فى الدرج فأخرج الطعمية وقال لعلى :

ـــ مش معاك عيش ؟

ـــ أيوه .. مربوط فى اللفه .

ـــ طب هات لقمه .. والا حناكلها حاف ؟

ـــ مافيش وقت للفتح والتفل ، ناكلها حاف أحسن .

ـــ على رأيك .. العيش أهو بناكله فى كل وقت .

ولمح دقدق الحمى — وكان يجلس فى أقصى الفصل — تكى الصبيان وهما يمضغان ، فصاح بسيد :

— بتاكل إيه يا وله يا سيد ؟

— طعميه .

— هات حته .

— خلصت .

— اخص عليك .. انا مش مديك امبارك بطاطايه ؟

ونظر إليه « سيد » فى غيظ وصاح به :

— دى ما كانتش حتة بطاطايه دى اللى حاتزلنى عليها .. انا مش ادينك تصادها حتة نبوت غفير .. كل شويه تقوللى البطاطايه .. يلعن ابو دى بطاطايه .. لابو اللى ياخد منك حاجه بعد كده .. خد .

واخرج من الدرج قرص الطعميه الباقى .. ثم قذفه بقوة فى اتجاه دقدق .

ولم يكد « سيد » يقذف القرص ، حتى انبعثت فى الفصل ضجة مفاجئة ، واندفع الصبية فى ترديدهم الجنونى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

كان الشيخ عبد الرسول قد عاد ، وفى اللحظة التى وطئت قدمه عتبة الباب كان قرص الطعمية ينطلق كالقذيفة ، عابرا الفصل من ادناه إلى اقصاه .

ولمح الشيخ عبد الرسول القرص الطائر ، ورآه يهبط فيستقر على درج « دقدق » دون ان يعنى الصبى بأخذه .. بل تركه يتدحرج ليسقط على الأرض ، وهو مستمر فى ترديد السورة ، والتراجع إلى الامام وإلى الخلف ، كأن القرص لا يعنيه .

وضرب « الشيخ عبد الرسول » بالخيزرانة على اقرب درج له .. فكف الصبية عن الصياح ، وحملقوا فى وجهه منصتين .

وصاح الشيخ مشيرا بطرف عصاه إلى دقدق :

ــ هات ده .

وهز دقدق راسه كأنه لا يفهم ما يعني الشيخ ، وعاد يصيح ناهرا :

ــ هات الطعميه اللي وقعت دي .

ونظر « دقدق » حوله في دهشة كأنه لا يعرف شيئا عن قرص الطعمية .. ثم مد يده فرفعه وأحضره للشيخ .. وعاد الشيخ يصيح متسائلا :

ــ إيه ده ؟

ــ طعميه .

ــ جت منين ؟

ــ إيش عرفني .

ــ مين حدفها عليك ؟

ــ مش عارف .

ــ انا شفتها طايره في الهوا ووقعت عليك .

ــ وانا برضك شفتها زيك كده .

ــ يعني ما تعرفشي مين حدفها ؟

ــ أبدا .

والتفت الرجل إلى الصبية وصاح بهم متسائلا :

ــ مين اللي رمى دي ؟

ولم يجبه أحد .

ــ ما فيش حد شافه ؟

واستمر الصبية في صمتهم .

وزاد غضب الرجل ، وازداد هديره وصاح مرعدا :

ــ يعني السما بمطر طعميه .. طيب انا حاوريكم .. قوم اقف منك له .

وبدأ الرجل بتفتيشهم وتفتيش أدراجهم .. ولم يكد يقترب من « سيد » حتى توقف أمامه ثم أخذ فى شمه قائلا له :

ـــ افتح بقك .

وشم الرجل فمه وقد بدت عليه علامات الفوز وأردف قائلا فى شماتة :

ـــ افتح درجك .

ولم يكد يلقى بنظرة على درجة حتى قبض عليه من عنقه صائحا :

ـــ انت ما فيش غيرك .. انا عارفك كويس .. افتح إيدك .

ولم يجد « سيد » بدا من تحمل العقاب ففتح يده راضخا ، ثم ركع على ركبتيه كما أمره الشيخ مواجها الحائط .. رافعا يديه إلى أعلى وذهنه يعمل بسرعة يفكر فى وسيلة للثأر من الشيخ عبد الرسول .

وحانت الفرصة سريعا عندما وجد الشيخ يقترب منه معطيا وجهه للتلاميذ موليا ظهره له فمد يده بسرعة ونزع دبوسا يشبك به زر طربوشه .. ثم وضعه عموديا فى جبة الشيخ ووضع الزر فى جيبه .. ثم رفع يديه كما كان .

ولم تمض لحظة حتى اتجه الشيخ إلى كرسيه ثم هبط عليه مادا أطرافه محاولا إراحة جسده ، ولكنه لم يكد يستقر على الكرسى .. حتى قفز صارخا صرخة حادة مستغيثا بقوله « آى » .

وقبل أن يبدأ التحقيق كان الجرس قد قرع ، وانطلق الصبية يعدون فى الفناء .

ومرت الحصة تلو الحصة حتى حلت فسحة الغداء قبل الثانية عشرة ، وجلس « سيد وعلى » على عتبة أحد الفصول واضعين بينهما لفافة « على » ، وقد فتحاها وأخرجا ما بها من رز ولحم وكفتة وبليح .

وأخذا يتناولان طعامهما ، وهما يتسامران .. ويعدان المدة لما

ينويان ان يتملاه بعد الظهر ، ومر بهما « دقدق » فصاحا به متشبثين ، وقال « سيد » داعيا :

ـ تعال يا دقدق كل .

ـ انا رايح اشترى غدا من جراده .

ـ تعال يا شيخ ، الاكل كفايه ، لقمه هنيه تقضى ميه .

ـ طيب اما اشترى حاجه وآجى آكل معاكم .

وذهب دقدق إلى مطعم « جرادة » تحت النخلة وقد تزاحم حوله الصبية . . واخذ الرجل يغرف من صفيحتيه التى امتلأت إحداهما بالفول النابت وماء الفول النابت . . والاخرى امتلأت باللفت وماء اللفت ، وكانت الصفيحتان هما عماد مطعم جرادة والحاويتان الأهم اغذيته .

وبعد برهة عاد « دقدق » إلى صاحبيه ، حاملا بيديه طبق الفول وعليه العيش وباليد الثانية طبق اللفت .

وبينما هم منهمكون فى الاكل صاح « سيد » فجأة :

ـ يا خبر . . دانا كنت ناسى !

وساله دقدق :

ـ ناسى إيه ؟

ـ النهارده المولد . . النهارده الليله الكبيره .

ـ أيوه حقيقى . . لازم نروحه . . انا شايفهم ناصبين تياترو فى الخرابه اللى ورا الجامع . . وشايف شوادر تانيه . . ما اعرفشى فيها إيـه .

ـ حقنا نقول للشله كلها عشان نروح سوا .

ـ دلوقت نقول « لزين » و « عبد الله » و « سيد » . . واحنا مروحين نفوت على « حريشه » و « زكى » .

وانتهى الصبية من الطعام ، وانتهت الفسحة وعادوا إلى فصولهم لاتمام دراسة اليوم . . ما بين قرآن ، وحساب ، ولغة عربية .

واخيرا انتهى اليوم الدراسي وخـــرج الصـبية متزاحمين على باب المدرسة .. وما لبثوا حتى تفرقوا في الدروب والطرقات .. وســار « سيد وعلي » وبقية الثلة عائدين إلى درب القط وهم يتواثبون في الطريق ... وإن كان « سيد » لا يفتأ يتذكر حادثة الصباح بين آونة واخرى ، فتثقل على نفسه ، ويزداد تثاقلها كلما قربت المسافة إلى البيت .. وقرب منه طيف أبيه وما ينوي أن يفعله معه .

وأخذ يطمئن نفسه .. مبعدا عنها طيف عقاب قادم .

ماذا يمكن أن يفعل به أبوه ؟ إن أقصى ما كان يهدده به هو إعادته إلى الكتاب ، وقد اقدم عليه هو بنفسه دون حاجة منه إلى انتظار حكم أبيه ، والواقع أن الكتاب ليس بالشيء الكريه إلى هذا الحد .. حقيقة أنه سيحرم من حديقة السراية ومن البلح والجوافة ، ولكن أي متعة دائمة في هذه الحياة ؛ وأي نعمة مقيمة ؟

ولكن هل ترى الأب سيكتفي بهذا العقاب ؟ أم تراه سيضربه ؟ . وحتى لو كان ينوي أن يضربه .. فليضربه .. علقة تفوت ولا حد يموت .

واخيرا وصلوا إلى الدرب ، وتفرق كل منهم إلى بيته بعد أن اتفقوا على اللقاء تحت « التوتة » ودخل علي وسيد بيتهما فاندفع علي يصعد السلم وسار سيد في الفناء مسترقا الخطى .

كانت الساعة تقرب من الثالثة والنصف ، وكانت أم آمنة في جلستها الشاردة الحزينة وقد أسندت خدها على كفها وأمسكت عصاها بيدها الأخرى ملوحة بها على الأوزتين في حركة لا ارادية ، ولكنها لم تكد تسمع خطا الصبي المتسللة حتى انفرجت أساريرها وصاحت منادية :

ـــ سيد ؟

ـــ إيه يا ست .. ما تزعقيش كده .. هو أبويا هنا ؟

وضحكت « أم آمنة » وقالت :

ـــ ما تخافش .. أنا استسمحته خلاص أول ما جه .. وسامحك .. هو فيه أطيب من قلبه .. قلبه أبيض زى حتة البفتة .. بس إياك ربنا يهديك وتبطل الشقاوه .. أنا ما رضيتش أقول له على الجلابيه اللي انت مقطعها .. أنا جيت النهارده اغسلها لقيتها طلعت فى إيدى .. انت اصلك معجون بمية عفاريت .. تعال هنا عندى .

واقترب منها وارتمى فى أحضانها فضمته فى لهفة وشوق وقالت له :

ـــ جعان ؟ أجيب لك تاكل .. والا تستنى لما أبوك يصحى .. هو مارضاش ياكل إلا لما تيجى ونقعد ناكل سوا .. وزمانه حايصحى .

ـــ أنا مش جعان قوى .

ـــ كلت إيه ؟

ـــ كلت مع على .. امه كانت مديالة كفته ورز ولحمه وبلح .

ـــ وعملت ايه بالساغ ؟

ـــ اشتريت باربعه مليم بليله .

ـــ والسته مليم ؟

ـــ وقعوا منى وأنا بتشقلب .

ـــ ان شاالله تتفضح .. الشقلبه دى لزومها إيه .. ربنا خلقك عدل تتشقلب انت ليه .. بس اعمل فيك إيه ؟ . ربنا يهديك .. ويجيب خلقه فيك .

ثم استمرت فى دعائها الطويل ، فلم تنته منه إلا على صوت طرق بالباب .

الفصل السادس

في المــــولد

كان الطارق هو شحاتة أفندي ، وقد وقف بالباب بنفس منظره الذي كان عليه بالأمس .. ينقصه الجاكتة ويزيد عليه لفافة كبيرة في احدى الصحف القديمة قد وضعها تحت ابطه . . .

وقبل أن يجيب على سؤال أم آمنة التقليدي « مين ؟ » . كان « سيد » قد ترك أحضان جدته واندفع إلى الرجل مرحبا به ترحيب صديق او قريب ، وهو يهز يده ويقول :

ـ أهلا وسهلا عم شحاته .. اتفضل .

لقد أحب « سيد .. عم شحاته » لأنه كان بادي الطيبة ، سليم الطوية ، مرحا مهزارا طروبا .. كان من نوع لا يمكن إلا أن يحب .

ولكن « أم آمنة » لم يبد على وجهها كثير ترحيب ، فقد كانت الصورة التي ارتسمت في ذهنها عن « شحاتة » (مما قصه عليها « شوشة » باختصار عن واقعة الأمس) هي صورة محتال نصاب تسبب في خسارة « شوشة » أربعة قروش ذهبت سدى بلا أمل في استردادها .

وكان أول ما فعله « شحاتة » عندما اندفع إليه « سيد » مرحبا هو أن مد يده في جيب جلبابه واخرج منه نايا صغيرا واعطاه « لسيد » قائلا :

ـــ ايه رايك في الصفاره دي ؟

ـــ لمين ؟

ـــ لك .. انا جايبها لك مخصوص .. كويسه ؟

ـــ هايله .

وقلب « سيد » الناي الصغير في يده ، ثم نفخ فيه بشدة ، ولكن « شحاتة » تناوله منه واخذ ينفخ فيه برفق ويحرك عليه اصابعه مصدرا نغما لطيفا راقصا .. قائلا لسيد :

ـــ كده .. انا حاعلمك ازاى تزمر بيه .. امال فين ابوك ؟

ـــ ابويه جوه .. كان مقيل شويه .. اصحيهولك ؟

ـــ لا ماتقلقوش .. أفوت عليه كمان شويه .

وهنا سمع صوت « شوشة » يصيح من الداخل :

ـــ مين يا واد يا سيد ؟

وما لبث حتى بدا بباب الشقة ، ولم يكد يرى « شحاتة » حتى صاح به مرحبا :

ـــ اهلا وسهلا .. اتفضل .

واقترب « شحاتة » مصافحا « عم شوشة » وجذبه معه إلى داخل البيت ، بينما انهمك « سيد » الصغير بالناى .

واستقر الرجلان على الشلتة المواجهة للأريكة المنهارة . وبعد تبادل التحيات مد « شحاتة » يده إلى جيبه واخرج منه بضعة قروش سلمها إلى « شوشة » قائلا :

ـــ الاربعه صاغ اهم يا معلم .

ـــ وليه التعب ده .. انا مش قلت لك على مهلك قوى .. انا مش مستعجل عليهم .

ـــ كتر خيرك . انا عمرى ماليش دين تعبنى اد دينك انا مش حانسى جميلك أبدأ .. انت عملت جميل في راجل ما تعرفوش ..

ولا تعرف إذا كان حايرده والا لأ .. انت عملت معروف .. الله .. ودا المعروف الحقيقى .

وضحك « شوشة » قائلا :

— ولا معروف ولا حاجه يا أخى .. انت أصلك راجل طيب ورزقك فى رجليك دى كل الحكايه .. ربنا هو اللى بيبعت .. مش العبد .

ولم يجد « شوشـــة » بدا من أخذ النقـود ، وهم « شحاتة » بالنهوض ، ولكن « شوشة » صاح به مجلسا إياه :

— على فين ؟

— نقوم نشوف شغلنا .

— والله ما انته آيم دلوقت ... اقعد اما ناكل لقمه سوانا .. احنا لسه ما تغدديناش .. انا كنت تعبان شويه ، وقلت استنى « سيد » لما يرجع من الكتاب .

ثم صاح مناديا ابنه :

— يا سيد ، واد يا سيد .

وكف سيد عن النفخ فى الناى ودخل ملبيا نداء أبيه :

— قول لستك تحضر لنا الاكل .. انا حاكل انا و « شحاتة المندى » .. هات الطبلية هنا .

ثم نهض إلى الفناء متجها إلى « أم آمنة » وقال فى صوت خافت :

— الراجل الغلبان بتاع امبارح جه يرد الدين .. شفتى بقى الامر من كده .. انا حاخليه ياكل لقمه معايا .. مش فيه أكل كفايه ؟

— فيه يا خويا أوى .. لازم تمسك فيه .. انا كنت كارهاه لما حكيت لى عنه امبارح افتكرته نصاب .. ظلمته .

— على العموم ابعتى « سيد » يجيب لنا حتة جبنه وربطين بلح مع الاكل الموجود .

— اطمن يا خويا عندنا كل حاجه .. خيرك كتير .. الجبنه موجوده والبلح موجود ، وزكيه نزلت عملت لنا كام طبق كشك بالكبيبه ، وملفلت

شوية رز .. خش بس انت مع الضيف ، وانا ابعت لك كل حاجه .. اقعد في أودتك لغاية ما قوم انا أوضب لك الطبليه .

وعاد « شوشة » إلى « شحاتة » فنهض معه إلى حجرته ، وجلس الاثنان على حافة الفراش يتسامران .

وكان ذهن « شحاتة » قد شرد في الآيات القرآنية المعلقة في مدخل البيت .

وعاد يستعيدها في ذهنه :

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

هذه الآيات لم توضع سدى .. ولم تعلق اعتباطا .. ان واضعها ينشد بها الصبر ، ويريد بها اقوالا تشد ازره وتخفف عنه وقع مصاب نزل به .

« والصابرين في البأساء والضراء » .

اجل .. اجل .. ان صاحب الدار لابد أن يكون احدهم .. احد أولئك الصابرين في البأساء والضراء .. والذين ابتلوا بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

ودار الحديث بينهما عن زمزم .. وعن السقايين .. وعن « سيد » وما فعل في الصباح .. حتى دخل « سيد » يعلن أن الأكل جاهز .

ونهض الرجلان وجلسا حول الطبلية التى رص عليها طبقان من الكشك غرس في باطنهما بعض كرات من الكبيبة وطبق من الارز وحزمتان من الفجل وقطعة جبنة وطبق به بلح امهات .

واتخذ « سيد » مجلسه بين الرجلين وهو يقول لابيه :

ـ شفت الصفاره اللي جابها لي عم شحاته ؟

وأمسك شوشة بالناي يفحصه ثم قال :
ـــ د ناي كويس .. مش خسارة تدهوله يكسره ؟
وأجاب شحاتة :
ـــ ده عندي من أيام زمان .. ده أعز صديق لي ، ولما أزعل انفخ فيه يضيع زعلي ، أحسن واحد يجاوبني وينسيني همومي .. لكن دلوقت اقدر استغنى عنه لأني لقيت أعز منه .. كنت محافظ عليه .. عشان ما كنتش فاكر فيه مروءة بين الناس ، لكن دلوقت غيرت رأيي .
وضحك شحاتة ثم أردف :
ـــ على العموم أنا حاعلمه عليه ، واظن لما أحب أصفر فيه شويه مش حايقول لأ .. والا إيه يا « سيد » ؟
ـــ طبعا يا عمي .
وأخذ الثلاثة في التهام ما في الأطباق .
وفي الخارج كانت أم آمنة تتناول نصف رغيف به قطعة من الجبن وهي قريرة راضية ، حامدة الله أنه سترها مع الضيف .
وانتهى الجميع من الطعام .. وأحضر « سيد » الطشت والابريق فغسلوا أيديهم ثم توضأ الرجلان لصلاة العصر ، وقاما للصلاة .
وانتهز « سيد » الفرصة ، فانطلق إلى الخارج ، وقد أخذ كيس البلي وصاح بأم آمنة قبل أن يخرج :
ـــ أنا رايح العب .
ـــ ما تتأخرش .
ـــ لأ حتأخر .. النهارده مولد الخواص .
ـــ يعني حتتأخر لامتى ؟
ـــ أنا عارف بقى .. أنا حاروح مع العيال ولما يرجعوا حارجع معاهم .
ـــ استنى لما اقول لأبوك .
ـــ خليكي عاقلة .. لما أخرج ابقي قوليله .

ـــ بس متتأخرش لبعد العشا .. يعنى اسمع أدان العشا مع رجليك .

ـــ طيب .

ثم اطلق صفيره الطويل مناديا « عليا » ولم يغته الصغير حتى كان « على » واقفا بجواره ، وعدا الاثنان إلى نهاية الدرب حيث ملعبهما بجوار السبيل .

* * *

لندع الصبيين فى لعبهما اليومى وعراكهما الطبيعى ولنعد إلى المعلم « شوشة » و « شحاتة افندى » ، انتهى الاثنان من الصلاة وكانت الساعة قد شارفت الخامسة .. وارتدى « شوشة » ملابس الخروج وتهيأ شحاتة للاستئذان والانصراف قائلا :

ـــ ربنا يجعله عامر ، وربنا يقدرنا على رد جمايلك .

ـــ برضك بتقول جمايل ؟ أنت رايح فين ؟

ـــ ولا .. أهو حاتمشى لغاية القهوة يمكن ربنا يرزقها .

ـــ طيب ما تيجى تاخد لك تمميره على القهوة بتاعتنا . تعرف تلعب طاوله ؟

ـــ اعرف أوى .

ـــ طيب تعالى ناخد لنا تمميره ، ونلعب لنا دورين .. وبعدين نزق على المولد .. نسهر عند الشيخ عبيد .. راجل أمير وطيب ، وعودنا كل سنه يعمل لنا ختامه فى المولد .. شوية اكل على شوية تصاليق وتفاريح .. يا الله بينا .

وتذكر شحاتة ان الاربعة قروش التى اعطاها لشوشة هى آخر ما يملك من حطام الدنيا .. وتذكر انه بات ليلته السابقة على الارض .. بعد ان باع كل ما يملكَ من أثاث الحجرة التى كان يقطن فيها فى شارع

الخليج .. وأن الأثاث البالي والجاكتة الممزقة قد سددت ما عليه من ديون ، وأنه أضحى بعد ذلك لا يملك سوى عدة الشغل التي ضمتها اللفافة .

كل هذا جعله يعدل عن صحبة « شوشة » حتى لا يكون عبئا عليه وحتى لا يعود فيكلفه مرة أخرى بضعة قروش لا يعرف متى يستطيع ردها .

وأخيرا قال :

ـــ عاقبنى النهارده .

ـــ عشان إيه ؟ انت مش قلت ما وراكش حاجه .. ورايح تقعد على القهوة . آهى قعده بقعده ، يالله قوم بينا .

ـــ واللفه اللى معايا دى .. اقدر اسيبها هنا .. لغاية ما نرجع ؟

ـــ اوى ، هات أحطها لك جوه على الصحاره ، عشان محدش يلعب فيها .

وهكذا ترك شحاتة اللفافة .. الحاوية لكل ممتلكاته فى الدنيا ، وخرج مع شوشة ، متجهين إلى المقهى فى شارع البغالة .

ووصل الاثنان إلى المقهى والشمس قد خفت حدتها ومالت إلى الغروب و « عماره » القهوجى قد رفع « التنده » وأخذ فى رش الأرض ، حول المقاعد التى قد رصت على الرصيف وهو يغدو ويروح فى خطوات سريعة وقد افتر ثغره الواسع عن ضبب عيار ٢٤ ، وأخذ يصفق بيديه بين آونة وأخرى مرحبا بكل من هب ودب .. وكل من قام وقعد ، أو راح وغدا .

وانتهى « عماره » من عملية الرش وسقى بضع قصارى الصعتر والريحان وحصا اللبان المرصوصة بجوار الحائط وعلى الرصيف .

وجلس « شوشة » على مقعد أمام احدى المناضد النحاسية الصفراء الموضوعة على الرصيف فى أحد الأركان ، وجلس « شحاتة » على

المقعد المواجه له .. وأقبل « عماره » مفترا عن الثغر الذهبي ، مصفقا بيديه طربا وهو يصيح :

ـــ يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. القهوه نورت يا معلم شوشه .. يا مرحبا بضيفنا الجديد .

وقال شحاتة موضحا اسمه :

ـــ محسوبك شحاته .

ـــ ومحسوبك عماره .

ـــ عاشت الأسامي .

ـــ انعم واكرم . خدامكم .. طلبات السيادة إيه ؟

وكان على « شوشة » أن يجيب فقال بسرعة :

ـــ اتنين حمى .. وطاوله .

ولم يتحرك « عماره » لاحضار المطلوب ، بل استمر في مكانه .. ولكنه ادار جذعه الأعلى .. وعوج رقبته تجاه القهوة .. ثم رفع كفه إلى صفحة وجهه ، وأغمض عينيه ، وصاح بأعلى صوته كأنه يؤدي الأذان :

ـــ اتنين تعميره حمى .

ثم اندفع هو بخطواته السريعة فاحضر الطاولة ووضعها على المنضدة ، واندفع مرة اخرى ليحضر « الجوزتين » بعد ان اعطى انذارا باعدادهما .

وبدأ رواد القهوة يتوافدون الواحد بعد الآخر .. المعلم مسطرين ، والمعلم على الحمى ، والاسطى محمود الخشت ، وزكى زين ، وغيرهم أصدقاء شوشة وجيرانه ، وتبادل القوم التحيات الطائرة أو المصافحة باليد ، ثم اتخذ كل منهم مكانه المختار ، منهمكا في الحديث أو في لعب الطاولة أو الدمينو .

وكان المعلم « جوده » القهوجي واقفا وراء البنك النحاسي يعد الجوز والقهوة والشاى وغيرها من الطلبات ، ولم يكن المقهى متسعا

To: www.al-mostafa.com

من الداخل ، فقد كان يكاد لا يتسع إلا للبنك والزير بجواره .. وتعرية لباب تسلقت الحائط حتى وصلت إلى نافذة عالية ذات قضبان حديدية تطل على فناء وراء المقهى ، ودكة خشبية أمامها منضدة .. هذا كل ما يحويه داخل المقهى .. أما خارجه فقد امتد على الرصيف وفي الشارع في مساحة تبلغ خمسة أمثال الدكان ه

وبدا اللعب بين الاثنين : شحاتة وشوشة ، وقد امسك كل منهما بطرف غابته يمتص منها نفسا بين آونة وأخرى ، وبصره موجه لحجارة الطاولة .

وكان المتباريان من نوعين مختلفين ، فشوشة لعيب صامت وشحاتة لعيب لا يكف لسانه عن الحركة بين شدقيه .

ورويدا رويدا زالت رهبة شحاتة من المقهى الجديد والزملاء الجدد ، وبدا اللعب على حد قوله « يحمى » وبدا لسانه ينطلق مثرثرا .

ورمى الزهر وهو يصيح :

ـــ سايق عليك النبى شيش بيش !

ولكن الزهر اظهر دوبارة ، فصاح شحاتة :

ـــ برضك كويس .. نعمه من ربنا .

ورمى شوشة الزهر في صمت ولعب لعبته في صمت .

واندفع شحاتة في الحديث لا ينتظر ردا ولا جوابا :

ـــ أيوه كده .. دانا شحاته والأجر على الله الشهير في الاربعتاشر مديريه ، أمال ، دوباره يا بنت الكلب ، اتصلحي بقى .. ايوه كده .. دش يا قرعه يا بنت القرعه . أمال !! ما يجيبها إلا رجالها ، وراك .. برضك وراك .. مش حاسيبك أبدا .. هي إيه .. سايبه .. حلوه دي .. يا دين محمد .. انا حالعبلك لعبه ما يلعبهاش عنتر بن شداد ، ولا الزبير بن العوام .. شفت دي .. يا وله يا شحتوت يا حلو تسلم ايدك .. أمال .. مش نازل من بطن أمك ماسك زهر . يا جماعه عيب ده شحتوت والأجر على الله .. ولا كل من ركب الحصان خيال ..

ولا كل من مسك الزهر لعيب ، جوهار ياك ، أختشى على دمك يا زهر ، خلى عند أملك دم . أخص ، يا نتن .. اتفوه ، عليك زهر هزق .. لا .. خليهم الاتنين فى خانة الجوهار .. أخص .. على الفقر الدكر .. يا أم هاشم نظره .. يا أم هاشم عيب .. دى مش لعبه دى ، طيب بلاش أم هاشم يمكن ما كانتش تعرف تلعب طاوله ، يا سيدنا الحسين .. عايزين دش .. اخص ، دى لعبه دى . هاتيك .. يا خساره رحت بلاش .. لكن معلهش يا زهر ، والا عليه ، العشره راحت بلاش .

وكسب شوشة العشرة فى صمت وسكون ، وخسرها شحاتة فى ضجيج وصخب ، وفرح شوشة وإن كان لم يظهر فرحته .. فقد كان اكثر ما يسره كسبه فى الطاولة ، ولكنه كان حريصا دائما على اخفاء مشاعره سواء كانت فرحة أم حزنا .

ولم يحزن « شحاتة » على خسارته فى اللعب وإن أظهر بضجيجه أنه قد حزن .. لقد كان على النقيض من شوشة غضوب فى ظاهره ، أما فى باطنه فقد كان سعيدا راضيا .

ولم يخف على « شحاتة » أن صاحبه قد سر من الكسب ، فزاد ذلك من رضائه عن نفسه وأسعده أن يسبب للرجل الكريم الطيب نوعا من الفرحة ولو بطريق غير مباشر .

وهم الاثنان بلعب عشرة أخرى ، ولكن شحاتة لم يكد يمسك الزهر حتى فغر فاه فجأة وسقط الزهر من يده وأخذ يحملق أمامه بذهول ، وهو يتبع بعنقه ذلك الشىء الذى روعه .

ودهش « شوشة » من ذهول صاحبه ، وسأله فى عجب :

— ايه الحكاية ؟ .. مالك ؟

وهتف « شحاتة » وهو يأخذ نفسا طويلا كأنه يوشك أن يغرق :

— يا قوة الله .

ــ إيه ؟ . فيه إيه ؟
ــ يا جاه النبي .
ــ إيه بس فيه إيه ؟
ولم يجد « شوشة » بدا من أن يستدير بمقعده ملتفتا إلى الإتجاه الذي يحملق فيه شحاتة ليرى علة ارتياعه .
ولم يستطع أن يكتم ضحكة أفلتت من شفتيه .. وهتف بصاحبه مؤنبا :
ــ إيه ده يا سيدنا ؟
ــ ودي تبقى مين دي ؟
ــ دي عزيزه نوفل .
ــ عزيزه إيه ؟
ــ نوفل ..
ــ يا أخي قول عزيزه زبده .. عزيزه قشطه .. عزيزه شهد .. عزيزه مهلبيه .. آل نوفل آل !
واستمر شحاتة محدقا في الجسد الممتلىء الملتف في الملاءة التي انحسرت عن ثوب أحمر انجليزي قد بدت منه ذراعان بيضاوان ناصعتا البياض ، وكشفت فتحة صدره عن ملتقى الثديين المكتنزين المتوثبين .. وبدا الوجه أبيض مستديرا ، والشفتان ملتهبتين حمراوين ، والعينان متسعتين داعيتين غامزتين .. فإذا ما ولت وجهها بدا ظهرها على قلة تفاصيله أشد تفصيلا وتفسيرا وإقناعا وإغراء واستدعاء .
وهز شحاتة رأسه كالمنتشي وهو يصفق بيديه وينادي بأعلى صوته :
ــ يا رفاعي مدد .. أموت في اللبن أبو قشطه .. هز يا وز .
وضحك القوم السامرون في المقهى ، وأحس شوشة من مجون صاحبه وضحك القوم ، شيئا من الحرج ، فما كان ذلك مما يلائم طبيعته الجادة ومظهره المتزن المحترم .
ورغم أنه في قرارة نفسه لم يثر على « شحاتة » أو يحس من عمله

غضبا عليه ، إلا أنه ترك علامات التجهم تكسو وجهه حتى يوقف الرجل عند حده ، وحتى يمنعه من الاسترسال فيما بعد حديثه الغزلى كلما مرت امرأة بالمقهى .. وفوق هذا كله حتى يقنع القوم الضاحكين انه ليس شريكا فى حملة الغزل والبصبصة ، وانه لا يقر صاحبه عليها .

ولاحظ شحاتة تجهم « شوشة » ، وأدرك ما سببه له من حرج ، فتمتم معتذرا وقد أطرق برأسه وهو يشيع الحسناء الغاربة بطرف عينيه :

ـــ عدم المؤاخذه يا معلم .. ما تآخذنيش . أنا أصلى لسانى فرط شويه .. ما اعرفش بيجرالى إيه لما بشوف صنف الحريم .. طول عمرى كده .. اصلى دنى أحب اللحمه .. داء يا معلم ما يسبنيش أبدا .. وكل ما قول بكره الواحد يكبر ويعقل .. ما بعقلش أبدا .. بالعكس الحكاية بتزيد وبلاقى نفسى بحبهم اكتر .. خفة عقل .. والا خفة قلب ما تعرفش .. لو تقعدنى كده طول اليوم أتفرج على نسوان ما ازعقش أبدا .. يسيبولى انبساط وفرفشه زى الخمره والحشيش .. الجنس كله يعجبنى .. كله يعمر دماغى . انما اللى بيدوخنى حقيقى الصنف اللى فات .. اهو ده بقى بيطير برج من عقلى .. ما ببقاش حاسس بنفسى .. أعذرنى يا معلم ، متآخذنيش ، أوعى تزعل منى ، أنا برضه غلطان ، كان حتى أمسك نفسى شويه قدام الناس الغرب وخصوصا ان انا عارفك راجل عاقل ما تحبش الهلس والمسخره . يا بختك بعقلك صدق من قال : أصحاب العقول فى راحة . تلعب كمان عشره ؟ .

ثم نظر حوله ليرى ما إذا كان الجمع ما زالوا فى مراقبتهم ولكنه وجد كلا منهم قد انصرف إلى ما كان عليه .. فعاد إلى زهره من كان يلعب الطاولة ، وعاد إلى حديثه من كان يسمر ، إلا واحد قد ظل معلقا به يرقبه بعينيه بنظرة فاحصة متسائلة .

كان رجلا أسمر ، حاد التقاطيع ، مبروم الشارب ، مفتول العضل ، يرتدى جلبابا بلديا من الصوف الأزرق ، بدا من فتحة صدره الصديرى

الخطط وقد وضع ساقا على ساق مظهرا الحذاء الاصفر ذا الرقبة الاسك ، كاشفا عن جورب من الحرير «ابو حربة» ، وقد اتكأ باحد مرفقيه على منضدة امامه ، وترك كم الجلباب المتسبع يسقط عن ذراعه فيكشف عن كم الفانلة الفلتكوس البمبة المشغولة بالاجور ، وقد امال اللاسة على أحد حاجبيه حاجبا بها نصف العصفورة الخضراء التي وشم بها صدغه .

واحس «شحاتة» بقلق من مراقبة الرجل وخشية من نظراته ، وخيل إليه ان الرجل لابد وأن يكون على صلة بالمرأة ، وانه قد ساءه منه أن يغازلها بمثل هذ الطريقة الفاضحة .. وبدا له ان الرجل لابد سينتهي به الامر إلى أن ينهض فيوسعه ضربا ويعطيه درسا قاسيا في احترام النساء .

ولم ير «شحاتة» خيرا من تجاهله والتشاغل بالحديث مع شوشة او لعب الطاولة وأمسك بالزهر يهزه في راحته قائلا :

ـ المره دي مش حاتخليك تاخد أبن واحد . حاجيبالك صابيه .. انا اصلي حبيت اجر رجلك بالعشره اللي فاتت .

ثم انطلق بقهقهته مرسلا نظرة مسروقة بطرف عينيه إلى الرجل إياه الشاربه المبروم ، المفتول العضل ، فرآه ما زال يرمقه بنظراته المزعجة .. فسرت رجفة في أوصاله وراح يحدث نفسه وهو يهز الزهر في يده :

ـ «والله أجلك حان يا شحتوت الكلب ، اهو ده حقيقي اللي حايجيب اجلك .. لو لهفك بونيه مش حاتاخد غيرها وده باين عليه صعيدي ما يعرفش عربي ، وحكاية الشرف عنده مهمه أوي .. مين عارف يمكن الوليه تطلع مراته ، والا اخته والا قريبته والا رفيقته ، يعني كان لازم تتسحب من لسانك .. اهو ده تلاتيه حاجه نوفل .. عيده نوفل .. والا رزق نوفل» .

وعاد يسترق إليه النظر .. فوجده ما زال يرمقه وهو يبرم شاربه .

« وآخرتها ؟ باينها مش حاتتم على خير أبدا .. الراجل حياكلك .. اذا كان شوشة نجاك من ايد زمزم .. فالمره دي مافيش حد حاينجيك أبدا .. غير ربنا .. وربنا ما انكرش حايرضي يحشر نفسه بينك وبين ابن الصرمه ده . يا منجي يارب .. مافيش طريقه غير « الزوغان » .

وعاد يهز الزهر ويزدرد ريقه ويقول لشوشة :

— هه .. مش حاتلعب ؟ .

وجاءه الجواب المنقذ من فم « شوشة » وهو يغلق الطاولة ويجبيه قائلا :

— كفايه النهارده .. يالله بنا على المولد .. الدنيا ليلت .

وهتف شحاتة في حماس قائلا :

— يالله بينا .

ودفع شوشة الحساب ونهض الاثنان مغادرين المقهى ، وبحركة غير إرادية التفت « شحاتة » ليلقي نظرة أخيرة على مطارده ومراقبه ليرى ما إذا كان مستمرا في مطاردته بنظرته الصارمة .. أم صرف عنه نظر .

ولكن العين المحدقة كانت ما تزال تحدق ، والنظرة الصارمة الفاحصة ما تزال تطارد وتلاحق .

وأسرع « شحاتة » فأمسك بمرفق صاحبه كالمستغيث وناداه متسائلا :

— يا معلم شوشه ؟

— أيوه يا شحاته افندي .

— الراجل ده يبقى مين ؟ اللي قاعد جنب باب القهوه على إيدك اليمين ؟

— انهي ده ؟

— الراجل ابو دقنه .. اللي عاوج اللاسه ولابس جلابيه كحلي . اللي بيزغر لنا قوي زي اللي حياكلنا .

ـــ قصدك .. شرف .

ـــ اسمه .. شرف ؟

ـــ ايوه .. مش اللى دافق مصفوره ؟

ـــ هوه هوه .. وده يبقى إيه ؟

ـــ ده ، شرف الدين .. شرف الدين الدباغ .

ـــ يا باى .. دباغ .. دباغ .. يا مغيث ..

قالها شحاتة بفزع وهرول فى مشيته كالهارب .. مما جعل « شوشة » لا يمنع ضحكة انطلقت من شفتيه وهو يقول :

ـــ حيلك يا عم شحاتة ما تخافش .. السراجل ما بيدبحش ولا حاجه .

ـــ ما خافش ازاى ؟ وهوا من ساعة ما فاتت البت عزيزه ولقحت عليها بالكام كلمه اللى قولتهم وهوا ما رفعش عينه عنى ، وبيزغرلى كانى قتلت ابوه ... وبعدين اسالك اسمه إيه تقولى شرف الدباغ ، وبعد كده انت عايزنى ما خافش ؟ طب مد بينا مد .

وعاد « شوشة » إلى ضحكه ، وهو الجاد الرزين ، ودهش « شحاتة » وساله :

ـــ هوا فيه حاجه بينه وبينها ؟ . فيه معرفه ؟ . قرابه ؟ .

ـــ أكتر .

ـــ اكتر يعنى إيه .. أبوها ؟ .. أمها ؟

ـــ حاجه زى كده .

ـــ يعنى إيه مش فاهم ؟

ـــ ولى امرها يا شحاته افندى .

ـــ يعنى إيه ولى أمرها ؟

ـــ يعنى ولى أمرها .. ما تعرفش لما تلميذ يروح المدرسه ويكون ابوه ميت يقوموا يقولوا مين ولى امرك ، اهو ده ولى أمرها .. يعنى

المسئول عنها .. يعني بالعربي بيشغلها .. مش بس هي لوحدها ، ودسته زيها .

وتوقف « شحاتة » في محله من فرط الذهش وأخذ ينظر إلى « شوشة » محملقا ، وقد تسمر في مكانه ، ثم قال مذهولا :

ـ شرف الدين .. الدباغ .. بيشغل عزيزه نوفل ؟ الراجل الفحل . ابو الشنبات المبرومه ، يشتغل الشغلانه دي ؟

ـ وإيه دخل الشنبات المبرومه .. في الحكايه دي ؟ . دي حاجه .. ودي حاجه .

ـ مش معقول .. مش ممكن .

ـ إيه هوا اللي مش ممكن ؟

ـ دا باين عليه الشهامه .. وكان بيبص لي البصه يخليني اترعش ، وكنت فاكر إن احنا لو طولنا شويه كان قام كسر دماغي .

ـ احنا لو كنا طولنا شويه كان جه جنبك وجيالك .. وقال لك احنا في الخدمه .. عندنا حاجات نضيفه أوي .. احسن من اللي فاتت .

وقاطعه « شحاتة » بقوله .

ـ وهوا فيه أحسن من اللي فاتت دي حاجه.؟

واستمر « شوشة » متمما حديثه :

ـ لكن الظاهر انه مالقاش فيك الرمق ، عشان كده قعد يفحص فيك ويدقق .. بدل ما يقوم ويتعب نفسه .. وبعدين ييجي نقبه على شونه .

وسار شحاته بجوار شوشة ، وقد شرد ذهنه .. وان كانت مظاهر الفزع والخوف قد غادرت وجهه .. وحلت محلها مظـــاهر الارتياح والغبطة .

اذا .. فعزيزة نوفل « ماشية » ، وشرف الدين الدباغ « قوادها » أو السبيل إليها . ومعنى هذا أن عاملا الاستحالة والخطورة قد زالا .. وأصبحت المسألة سهلة هينة ، ولم تعد « عزيزة نوفل » أملا متعذرا ،

أو صيدا طائرا .. بل هي رجاء يستطاع تحقيقه ، وعصفور يمكن أن يكون في اليد .. ولم يعد هناك ثمة خطورة من هذا الوحش المفترس المدعو « شرف الدين الدباح » بعدما تبين انه نباح اعراض .. وأن بينه وبين الشرف ما صنع الحداد .

وتجهم وجهه فجأة ، وعلته سحابة هم .. أن المسألة حقا ليست مستحيلة ، ولكنها كذلك ليست سهلة المنال كما يتصور فهي تحتاج إلى نقود .. فهذا « القواد » لا يمكن أن يشكك بضاعته .. بل هو لابد ان يقبض الثمن مقدما ؛ وهو لا يملك مليما واحدا .. وهو لا يملك ثمن اكلة تقلية .. ولا نومة مقبلة .. انه لا يملك إلا نفسه ، والصرة التي بها عدة الشغل التي تركها في بيت شوشة .. لقد باع كل ما يملك لكي يسدد دينه على صاحبه الكريم .. فهو أول دين يحس بثقله .. كانت الديون السابقة كلها ديون غير مستحقة الدفع .. أما هذا الدين الذي دفعه عن طيب خاطر .. دون ان يطالبه صاحبه برده .. فقد حرك مشاعره ، وايقظ ضميره فلم يصل إلى حجرته .. حتى باع كل ما بها وسدد ديونه ؛ ثم غادرها نظيفا خفيفا إلا من « صرة الشغل » والاربعة قروش التي دفعها إلى « شوشة » .

والآن ، وهو صفر اليدين ، تسنح له هذه الفرصة الهائلة ، وتلوح له « عزيزة نوفل » وصاحبها الدباح ؛ أمنية مستطاعة ورغبة محققة .. ولكن بالنقود .. يعني .. أمنية محققة ، بشيء مستحيل ، وثمن غير كائن .

وضرب كفا بكف وقال بصوت مسموع :

ــ عليه العوض .

والتفت إليه « شوشة » متسائلا :

ــ خير ؟ إيه هو اللي عليه العوض ؟

ــ ولا حاجه .. الحمد لله على كل حال .

« أجل .. الحمد لله .. انها على اية حال أمل مستطاع .. ومسيرها ترزق » . وبهذا طمأن شحاتة نفسه ، وعاد إلى سابق ضحكه ومرحه ، وهما يوشكان على الدخول إلى المولد .

وأحس الرجلان باشتداد الزحام وازدياد الضجيج وارتفاع الطبول والدفوف والمزامير . كانت مظاهر المولد بادية في الحي كله .. فقد انتشرت الاعلام ، وعلق البطيخ الزجاجي الملون ، ولكن المظاهر كانت تزداد تركيزا كلما ازداد المكان قربا من ضريح المحتفى بمولده .

واضطر « شوشة وشحاتة » إلى التنحي عن الطريق والتزام الرصيف عندما بدت بشائر أحد المواكب ، وقد تعالت وسطه الاعلام الملونة ، المزركشة بالآيات والكتابات المختلفة مثل : « الله أكبر » و « لا إله إلا الله » وأسفل هذه الآيات الإلهية كان عبيد الله يتراقصون ويتواثبون ويتصايحون ويدقون الدفوف ، حتى بدا كأن الله لا يمكن الوصول إليه إلا بتخت أو بزفة .. ومر موكب عبيد الله المنتشين بذكر الله الراقصين تحت أعلام الله . وعاود « شوشة » وصاحبه السير متخذين طريقهما وسط الأجساد البشرية ، ولكنهما ما لبثا حتى توقفا مرة ثانية لزحام أشد من زحام الموكب الراقص .

كان السبب في هذه المرة ، ليس ذكر الله ، ولكنه كان ذكر البطون ، أو ذكر « الفول والعيش » .

كان حانوت « الحاج عمار » تاجر المانيفاتورة يباشر عمليته السنوية في تفريق شقق الفول النابت والعيش التي كان ينذرها الحاج في كل مولد ، وكان الناس يتقاتلون حول الحانوت في سبيل الوصول إلى الشقق المليئة بالفول ، وكان أحدهم يصيح بالآخر :

ـــ أمسك دي ، أنا خدت لغاية دلوقت خمس شقق ، الحاجات دي عايزه دراع ، لو قعدت هنا عمرك ما انت طايل حاجه ، خش عافر زي الباقي .

واستطاع الصاحبان تجاوز موكب الفول والعيش ولكنهما لم يسيرا بضع خطوات حتى اصطدما بموكب الشيخة « زبيدة » .

فى دكان حجب بستارة قذرة خضراء وقف رجل اشعث وبجواره رسم لرأس امرأة على منضدة كتب فوقها لافتة « الشيخة زبيدة .. المعجزة البشرية » واندفع الرجل يصيح باعلى صوت :

ــ قرب هنا .. شوف الست العجيبة .. الشيخه زبيدة بقرش ابيض . الرأس اللى بتتكلم من غير جسم . يا بلاش .

وبجواره وقف رجل آخر يقرع الطبلة وثالث ينفخ فى مزمار .

ومر الرجلان بالشيخة زبيدة ، ثم اتجها يمينا وتجاوزا رحبة متسعة اقيمت عليها « المراجيح » بكافة انواعها ... مرجيحة الوزة ، والمروحة ، والمركب ، وقد اخذت تزن وتطن كأنها عش الزنابير .

وبعد مسيرة بضع دقائق وصلا إلى حانوت « الشيخ عبيد العطار » . وكان الحانوت يجاور الضريح اى فى قلب معمعة المولد .

كان « الشيخ عبيد » قد رص الارائك حول مدخل الحانوت وعلق الاعلام والزينات ، وفى ركن منعزل فرش بعض الحصر على الارض استعدادا لحلقة الذكر .

وحيا شوشة القوم المتناثرين على الارائك وعلى الحصر ثم تجاوزهم إلى مدخل الضريح وقد تبعه شحاتة ، ودلفا من ممر ضيق قادهما إلى الميضة وكانت لا تزيد على مجرى فى الارض مليء بالمياه يجلس المتوضئون على حافته فيتناولون منه الماء بأيديهم للوضوء وبعد ان تجرى المياه على اطرافهم وتقوم بواجبها فى ازالة الاتربة العالقة بها والقاذورات المتراكمة عليها تعود فتهبط مرة اخرى إلى المجرى نفسه يصاحبها ما تيسر من البصاق والمخاط الذى يستعمل فى وضوء من يليهم من عباد الله المتوضئين .

وانتهى الرجلان من الوضوء وصليا فريضة المغرب ثم خرجا للانتظام فى عقد المدعوين فى ختمة الشيخ عبيد .

وجلس شحاتة على الحصير بجوار المعلم شوشـــة ، وقد اخذ يتلفت يمنة ويسرة محاولا اكتشاف ما عسى أن يحصل عليه من جلسته هذه ، ولم يبد لعينيه شيء ينبىء بخير .. لا اكل ولا نساء ولا طاولة ، ولا اى نوع من انواع الطرب والتسلية .. صبرا .. فربما « جرت ستحا طير الحوادث باليمن » .

وبدأ نقيه فى تلاوة القرآن ، وفى خلال التلاوة بدت ثلة اطفــال مقبلة على الحلقة ، ولم تكد تقترب حتى اندفع منها سيد ، فلما وصل إلى ابيه همس فى اذنه :

ــ عايز تعريفه .

ــ ليه ؟

ــ اضيع فى المولد .

ــ عايز تعمل به إيه ؟

ــ اروح الشيخه زبيده ، واتفرج على خيال الضل واتمرجح ، واشترى كبده وكشرى .. مش كل ده عايز فلوس .. والا يعنى كده اخرج م المولد بلا حمص ؟

ومد الاب يده إلى جيبه فى صمت فاخرج كيس النقود واعطى منه قرشا لابنه ، وانطلق سيد مرة اخرى إلى صحبه بين الصبية صائحا بهم :

ــ ياالله بينا على خيال الضل .

* * *

ولنترك شوشة يستمع إلى القرآن ، وشحاتة محملقا بعينيه فى النقيه ، شاردا بذهنه فى « عزيزة نوفل » ولنعد وراء سيد فى جولة لاهية بالمولد حتى تنتهى تلاوة القرآن فى شادر الشيخ عبيد .

انطلق الصبية يتواثبون ويصرخون إلى خيمة خيال الظل ودفع كل

منهم مليما عند الباب ، وبعد لحظة كانوا يصطفون على بضع دكك امام الستارة .

وكانت الخيمة المهلهلة قد قسمتها الستارة الدمور البيضاء قسمين قسم حوى النظارة وقسم حوى المسرح ، او الملعب ، او سمه كما شئت .. وكان كل من القسمين مضاء « بلمبة جاز » ولم يكن الصبية يدرون شيئا عما يدور في القسم الآخر وراء الستار ، ولكنهم كانوا يتوهمونه عالما صاخبا مليئا بالحياة والحركة مختلف الأشخاص ، وكانوا يجلسون وذهنهم عامر بشتى الأوهام .. ولو تجاوز احدهم ببصره إلى ما وراء الستار لأصيب بخيبة شديدة ولانهار ذلك العالم الموهوم المليء بالحياة والحركة .

كان يجلس وراء الستار رجل .. وهو الكائن الحي الوحيد الذي يحرك بقية الكائنات الصامتة من الورق المقوى وينفخ فيه الروح .

كان وحده رب العالم الموهوم .. هو خالقه وهو محركه وهو منطقه ، وهو راسم مصائر مخلوقاته .

كان الرب مرتديا « فانلة ولباس » قد انهمك وتتذاك في خلق بعض المخلوقات الجديدة من الورق ولم يكد ينتهي منها حتى دق بكعب « برطوشته » على ظهر صندوق خشبي انذارا ببدء العمل .

وتشبه هذه الدقات إلى حد كبير الدقات التي تؤذن ببدء التمثيل ورفع الستار ، ولكن في مسرحنا الصغير لا ترفع الستار ، لأن رفع الستار — كما قلت — يعد كارثة فهو يكشف عن ضآلة العالم الموهوم وحقارته ويظهر للنظارة ربه ذا القميص واللباس ممسكا بيده البرطوشة يدق بها .

أجل .. كان هذا كل ما وراء الستار قبل البدء في العمل . وعلى ذلك فقد كان الستار .. ستره .

وعندما انتهت الدقات دخل الرجل الواقف على الباب والذي جمع

النقود ، فاطفأ المصباح الكائن فى قسم النظارة . فبدا الستار مضاء بالمصباح الكائن خلفه .

وقبل أن يبدأ التمثيل صاح سيد :

ـــ عايزين حكاية الشيخ عبد الرسول لما سيد رقعه علقه .

وهكذا كانت الروايات تملى من النظارة فى لحظتها ، وعلى الرب الكائن وراء الستار القادر على كل شيء .. اخراجها حسب ما يشتهون .

وظهر « الشيخ عبد الرسول » على الستار ، وكان الرب قد جلس فى الارض وراء الحاجز الخشبى الكائن اسفل الستار حتى لا يظهر ظله على الستار وحتى يبدو الابطال متحركين من تلقاء انفسهم . وكان يمسك بقطعة من الورق مقصوصة على هيئة شيخ معممٍ يرفعها بين المصباح وبين الستارة فيقع ظلها على الستارة ، ويبدو للنظارة من الجانب الآخر كما تبدو الصور فى الشاشة البيضاء ولكن بلا تفاصيل سوى التفاصيل الخارجية للظل .

وتكلم الرب بصوت غليظ قائلا :

ـــ انا الشيخ عبد الرسول .. المهول .. اشرب على طول .

ثم يرفع الرب بيده الاخرى صورة طفل صغير .. ويقول بصوت رفيع :

ـــ وانا سيد السقا .. لابس خلقه زرقه .. واديلك دقه بحقه .

وضج الصغار بالضحك .. وصفقوا بأيديهم مشجعين الطفل الصغير صائحين :

ـــ ول سيد .. اديله يا سيد .. اديله فى عين زنبيله .

❋ ❋ ❋

لنترك الصبية متحمسين للمعركة الدائرة وراء الستار .. ولنعد إلى شوشة وشحاتة ، فنجد الفقيه يوشك أن يختم قراءته ونجد شحاتة قد أنتهى من جولته مع « عزيزة نوفل » فى الوهم مع انتهاء القراءة .

وهمس شحاتة فى اذن شوشة متسائلا :

ـــ وبعد كده فيه إيه ؟

ـــ نصلى العشا .

ونفخ شحاتة نفخة ملل ، وحدث نفسه :

ـــ « وآخرتها ، صلاة وقرآن ، وذكر .. لا .. يفتح الله ، أنا ما قدرش على الحكايات دى » .

ولكنه لم يملك سوى القيام وراء الجماعة المتجهة إلى الجامع ، وبعد انتهاء الصلاة عادوا مرة أخرى إلى أماكنهم ولكنه فى العودة وجد أن « العود أحمد » .. فقد فوجىء بوعاء كبير من الثريد تعلوه قطع كبيرة من اللحم المسلوق ، قد وضع على الأرض وسط الحلقة كأنما نبت بقدرة قادر من الأرض أو هبط من السماء .

وجرى ريقه .. وتمنى لو هجم فانشب اظافره فى اللحم وعبب من الثريد .. ولكن كان عليه أن ينتظر حتى ينتظم العقد ويدعو صاحب الدعوة ضيوفه إلى الأكل فيتمنعون ويدعون شبعا ، فيعيد الدعوة ويعيدون التمنع ، حتى تكون روحه قد بلغت التراقى قبل أن ينهضوا للأكل .

ومرت الفترة العسيرة « بعم شحاتة » على خير .. وبدأ الطعام ، واندس « شحاتة » بين جمهرة الآكلين و « هبر » قطعة من اللحم تذف بها فى جوفه فلم تترك إلا فراغا يسيرا للثريد .

وأخيرا انتهى الطعام ورفعت القصعة وبدأ الاستعداد للذكر واصطف القوم جلوسا فى حلقة دائرة ، وبدأ شيخ منهم فى الانشاد والجمع يردون عليه ، ولم يحاول « شحاتة » أن يركز ذهنه لمعرفة ماذا ينشد الشيخ ، ولم يكلف نفسه مشقة الترديد مع الجمع حتى بدأ الكل يرددون بطريقة ملحنة .. « يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف » كأنهم كورس يردد اغنية ، وهنا لم تعد المسألة صعبة فاندفع معهم يردد مغنيا « يا لطيف .. يا لطيف » .

وفجأة نهض الشيخ ، فنهض القوم معه ، ثم بدأ يردد فى صوت

خفيض اخذ يرتفع شيئا فشيئا « الله حى .. الله حى » وكان الترديد مصحوبا بترنح للأمام وللخلف .. واحيانا لليمين ولليسار ، ولم يكن هناك بد من أن يقلد « شحاتة » القوم فى صياحهم وترنحهم ، ولم يكن الأمر بالعسير فقد كان الترديد والتقليد من السهولة بمكان .

وهكذا ظل شحاتة وشوشة يترنحان ويضجان مناديان « الله حى » .. ولم يحاول « شحاتة » أن يفكر فى المسألة كثيرا ولا ان يتناول صياحه وترنحه بالبحث والتمحيص .. ولكن عندما طال الامر .. وكلت حنجرته ، وخذلته ساقاه ، بدأ يفكر فى قوله « الله حى » ، واخذ يسائل نفسه ماذا يريد هو وصحبه من الله .. ولم يصحبون اسمه بوصفه حى .. وهو أبسط ما يمكن أن يوصف به مخلوق .. فهم يشركونه فى الوصف مع أحقر المخلوقات الحية ، التى تملأ رحاب الأرض .. وماذا يفيد من اصرارهم على وصف الله — الذى لا يمكن ان يكون غير حى — بأنه حى .. واستمرارهم على الصياح بمثل هذا الصراخ ؟

وتصبب العرق من وجهه .. ودعا الله الحى .. ان ينزل على المخابيل « نقطة » تسلبهم الحياة حتى يكفوا عن هذا الصياح والترنح ، ونظر إلى الشيخ عبيد صاحب الدعوة وهز راسه آسفا ، وهو يقول لنفسه :

— « يا شيخ عبيد يابن الحرام .. كأنك فعلت بنا معروفا .. لقد سلبت بالذكر ما اعطيت بالثريد .. انت والحياة صنوان .. كلاكما يسلب باليد ما يعطى بالاخرى .. كلاكما يسترد النعمة بالربح المركب .. ان الثريد واللحم الذى ملأت به بطوننا قد هضمه الذكر .. فكأنه ما كان .. يا ليتنا ما اكلنا وما ذكرنا » ! .

« الله حى .. الله حى » .

— لا .. لا .. لا يمكن أن يكون حيا .. ولو كان حيا اكان يسكت عن كل هذا الصراخ ، دون أن يصيب القوم بصاعقة تسكتهم .

« الله حى .. الله حى » .

وآخرتها .. عرفنا انه حي .. والله العظيم حي .. يا ناس ارحمونا .

وأخيرا .. جدا .. بدأ الترنح يخف ، والصياح يهبط .. حتى صمت القوم تماما وهبطوا إلى الأرض .

وهمس شحاتة في اذن شوشة :

ـــ هه .. مش خلاص ؟

ـــ ايوه خلاص .. بس حانصلي ركعتين .

ـــ لا وحياة أبوك .. كفايه بقى .. انا مش عاجز عن الصلاه .. بس انا صعبان على صراخ الناس دول .. كفايه اللى عملناه ده .. يالله بقى وحياة أبوك لحسن بعدين يدخلونا الذكر تاني .. يالله يا معلم الله لا يسيئك .

ونهض « شوشة » وغادر الاثنان الحلقة وسارا في الطرقات التي اخذ الزحام يخف عنها رويدا رويدا .

وعندما وصلا إلى تقاطع « درب عجور » توقف « شحاتة » قليلا ومد يده مودعا وهو يقول :

ـــ تصبح على خير يا معلم .. متشكرين خالص على السهره اللطيفه دي .

ـــ على فين ؟

ـــ نروح باه .

ـــ انت ساكن فين ؟

وتمهل شحاتة برهة قبل أن يجيب بضحكة قصيرة ساخرة ويقول :

ـــ كنت ساكن في شارع الخليج .

ـــ ودلوقت ؟

ـــ دلوقته ماليش ساكن .. دلوقته انا كده زي ما انا يعني ماليش متعلقات ابدا .. ساكن على رجلي ، أو سارح .. زي القطط والكلاب .

ـــ مالكش حته تبلت فيها ؟

ـــ كان ليه أوده وسيبتها .. عزلت منها .

ـــ ليـــه ؟

ـــ والله مش قد المقام .. البحرى بتاعها مش خالص وانا راجل احب الطراوه فقلت اعيش فى الخلا .

ـــ اتكلم جد يا شحاته .. إيه الحكايه ؟

ـــ أنا بتكلم جد .. كان ليه أوضه وسيبتها النهارده .. الحال واقف بقاله مده ، وكان متكوم علّى ايجار كام شهر ومديون بكام قرش .. لكن ما كانش هاممنى ، ولا كان على بالى .. لغاية ما دايفتنى أنت بالاربعه ساغ .. فحسيت بتقل الدين .. الديون اللى فاتت كلها كانت كوم ، ودينك كوم .. الديون اللى فاتت جتتى تلمت عليها من كتر الحاح أصحابها ومطالبتهم بيها ، ما بقاتش تهمنى ، بقى عندى مقاومة ضدها .. زى الرجل الحافيه لما تبقى عندها طبقه واقيسه من الزلط والحصى والقزاز من كتر الدوس عليها .. أصل كتر المطالبه تولد التلامه .. ولما الواحد ما بيلاقيش حد يرحمه أحساسه بيعدم ولا يبقاش عنده دم ، وكنت مستريح على كده .. لغاية ما جيت انت وعملت فيه الفصل بتاعك ده ، ودفعت لى الاربعه الساغ من غير ما تعرفنى ومن غير ما تنتظر منى ان أدفع .. الله يسامحك ، انت السبب فى اللى حصلى ده .. وريتنى إن فيه فى الدنيا انسانيه ورحمه وتضحيه .. وان البنى آدم ممكن انه يعمل معروف من غير ما ينتظر منه مقابل .. خليتنى احس ان فيه قلوب رقيقه ونفوس رحيمه ، وكانت النتيجة انك ضيعت الطبقه الواقيه من التلامه والبجاحه ، وخلتنى أرجع زى ما كنت .. أشعر واتالم وانكسف واحزن .. الله يسامحك ، زى ما بيعتنى اللى حيلتى ، وخلتنى داير من غير ماوى زى الكلاب اللى من غير أصحاب .. يعنى لو كنت سبتنى فى أيد زمزم ، مش كنت زمانى خدت العلقه وانتهيت ، وعلى

راى المثل علقه وتفوت وما حد بموت .. واهو كان الواحد بعد العلقه حا يرجع يلاقى أوده تتاويه .

واحس شوشة أن الدمع قد قفز إلى مقلتيه .. وأنه يراودهما على الانسكاب .. لقد أصاب حديث الرجل منه مقتلا ؛ ولكنه كان يكره البكاء فاستعان بالظلمة على أخفاء تعابير الالم التى علت وجهه وجاهد حتى قهر الدمع وأعاده إلى منابعه .

وبعد فترة صمت قصيرة .. قال لصاحبه وهو يحاول أن يضحك :

ــ معلهش يا شحاتة افندي حقك على ، وعلى العموم هي ملحوقه .. انا عندي أوده فاضيه ما حدش بينام فيها تعال بيت فيها لغاية ما ربنا يفرجها .

ــ لا يا عم كفايه جمايل بقى .. انت عايز تعمل في أكتر م اللى عملته .. عايز تقضي على شوية النلامه والبجاحه اللى فاضلين ؛ واللى اقدر آكل بيهم لقمة تصلب عودي .. لا يا عم .. حد الله بيني وبينك .. انت غرقتني جمايل .. وخلتني بنى آدم ذوق حساس ؛ رقيق .

ــ ايه الكلام اللى بتقوله ده ؟ . جمايل إيه وبتاع إيه ؟ الاوده فاضيه ، وبدال ما تروح تنام في السكه تعال نام فيها .

ــ لا يا عم أنا حنام في السكه أحسن .

ــ ما تبقاش مجنون ؟

ــ لا .. لا .. كفايه ضايقتك طول النهار .. آجى كمان اشاركك في نومك .. ليه .. هو انت ابتليت بيه .

ــ يا راجل ما تقولش الكلام ده .. الأوده فاضيه ، والله العظيم .. ما فيهاش غير الصحاره وشوية التراب .

ــ لا .. لا .. السلام عليكم .

ــ طيب تعالى اجرها ؟ .

ـــ أنا معاييش ولا نكله .

ـــ معلهش بكره ربنا يفرجها ، وتبقى تدفع الحساب ، يالله يا اخى .. ما تعملش تكليف . دا انت حتى حاتونسنى .

وتردد شحاتة برهة ، ولكن شوشة جذبه من يده جذبة لم تترك له فرصة الهروب وسار الاثنان متجهين إلى البيت .

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ، ودرب عجور قد أغلقت حوانيته وخفتت ضجته ، وساد السكون على دوره حتى يخيل للسائر انه قد بات يسمع حفيف الأنفاس متصاعدة من النوافذ .

واقترب الرجلان من درب القط ودلفا فيه يخوضان وسط ظلماته المعتمة وقد سار « شوشة » بالتوجيه بخطوات ثابتة واخذ « شحاتة » ينقل قدميه فى حذر متمثلا قول الشاعر « قدر لرجلك قبل الخطو موضعها » .. وكانت التوتة تبدو فى نهاية الدرب كشبح داكن يحجب بصيص الضوء الذى يتسرب من اشعة النجوم .

ودخل الاثنان الدار ، وبدا باب الشقة مفتوحا ، وقد لاحت من خلاله « أم آمنة » متربعة على الأرض وهى تجلس جلستها المطرقة الواجمة ، كأنها تمثال للصبر واليأس والجمود ، مسندة خدها براحتها متكئة بمرفقها على ركبتها ، ولم تكد تسمع وقع الخطوات حتى رفعت راسها كما يرفع الكلب الحارس راسه فى تحفز وصاحت :

ـــ مين ؟

وأجاب شوشة فى رفق :

ـــ أنا شوشة .

ولكن الأقدام كانت أكثر من اقدام شوشة ، فعادت تسأله فى دهش :

ـــ حد معاك ؟

ـــ أيوه ، شحاته افندى جايبات معانا عشان الوقت متأخر .

ونهضت العجوز متثاقلة وتحسست طريقها إلى الحجرة التى يرقد فيها « سيد » ثم أغلقت الباب نصف اغلاقة وهى تقول :

ــ أحضر لكم عشا ؟

وأجاب شوشة :

ــ كتر خيرك .. اتعشينا فى المولد .

ــ بالهنا والشفا .

وأحس « شحاتة » أنه قد أزعج المرأة الآمنة الطيبة فهمس لصاحبه :

ــ أنا قلقتكم .. ما تسيبنى أروح .

ــ خش يا جدع .. الأوده فاضيه .

ودخل « شحاتة » يشق طريقه بين جلود القرب القديمة والفرش الصحارة .. وبعد لحظة كان أهل البيت يغطون فى نومهم .

الفصل السابع

قهـــوة لفنـــدية

استيقظ شحاتة فى الصباح وقد غمر ضوء الشمس الحجرة وتلفت حوله وفرك عينيه ومضت برهة قبل ان يستبين معالم الحجرة ويكتشف اين هو .. واخيرا تذكر دعوة « شوشة » له للمبيت فى داره فتحامل على نفسه ونفض عنه غبار النوم ، وهبط من فوق الصحارة ووقف فى منتصف الغرفة واخذ يقلب البصر فى أرجائها .

كانت الغرفة ضيقة مشققة الجدران ذات نافذة حديدية تطل على « منور » ترتع فيه أوزتا « أم آمنة » ومعزتها .. ولم تكن محتويات الحجرة لتزيد على الصحارة التى قضى ليلته منكمشا فوقها وعلى قطع الجلود القديمة من بقايا القرب والسطايح وبعض متخلفات لسيد من كرة شراب إلى هيكل من بوص لطائرة قديمة إلى نحلة .. الخ .. وكان يوجد غير هذا كله .. صرته العتيدة .. جامعة ممتلكاته فى الدنيا .

وانصت شحاتة عله يسمع صوت « شوشة » او « سيد » ، ولكن الدار كانت مغرقة فى صمت لا يقطعه غير صيحات متقطعة من الأوزتين بين آونة واخرى ، واحس بكثير من الحرج ولم يدر ماذا يفعل وخشى ان يخرج من الحجرة فيجرح حريم الدار .

واقترب ببطء من الباب محاولا ان يصدر بقدميه صوتا ينبىء عنه

ويحذر منه اهل البيت ، ولكن أحدا لم يأبه له او يسأل عنه .. فوقفه بجوار الباب وطرقه بضع طرقات فلم يجده الطرق نفعا فتجاوزه إلى التصنيق بيديه صائحا :

ــ يا ساتر .. يا ساتر .

واخيرا مد عنقه من فرجة الباب فوجد القاعة خالية فتقدم بساقيه ووقف يتطلع ببصره فيما حوله .. عجبا ! .. ليس هناك من مخلوق يوحد الله .. طبعا .. لقد تأخر في نومه ، و « شوشة » قد ذهب إلى عمله ، و « سيد » ذهب إلى مدرسته .. فهما ليسا مثله نئومي الضحى .. ولكن اين ام آمنة ؟

وتقدم قليلا إلى باب الشقة واخذ يتلفت حوله عندما سمع :

ــ صباح الخير يا شحاته افندى .

واخيرا ، ظهرت ، كانت ام آمنة منحنية تحت بير السلم تكنس الفناء .. وقد أحست به من وقع خطواته فبدأته بالتحية .

ــ صباح الخير يا خالة ام آمنة .

ــ خير عليك يا بنى .. نوم العوافى .

ــ الله يعافى بدنك .

ــ اذا كنت عايز تغسل وشك .. الطشت والابريق عندك فى المطبخ ، ودلوقت حا حضر لك الفطار حالا .

ــ يا ستى كتر خيرك .. ما تتعبيش نفسك .

ــ ودى فيها تعب إيه ؟ .. الاكل موجود وخير ربنا كتير .

ــ والله ما تتعبى نفسك ولا تعملى حاجه ابدا .. انا ما تعودتش افطر بدرى .. خليتك بعافيه .

ــ يا شحاته افندى ما يصحش .. هى دى تيجى ؟ تخرج من غير ما تغير ريقك ؟

ولكن « شحاتة افندى » كان قد تناول مرته وأسرع يعدو مهرولا

غارا من الجمائل والكرم وطيب الخلق .. التى صهرت ما تبقى من تلامته وبجاحته .. وجعلته رقيقا واهيا .. لا يستطيع المقاومة .

وانطلق الرجل بصرته إلى حال سبيله ، ولم يبق فى الدار سوى أم آمنة .

ومرت ساعات الصباح ، وانتصف النهار ، وكل منهمك فى عمله وكان « شوشة » أول من عاد إلى الدار قبل الساعة الثالثة .. وكان يحمل لفافة فى يده وقرطاسا وحزمة فجل فى اليد الأخرى .. والقى التحية إلى أم آمنة التى كانت تنتظر فى موضعها المعتاد أسفل بئر السلم ، وسألها قائلا :

ــ سيد ما جاش ؟

ــ لسه .

ــ وعم شحاته ؟

ــ برضه ما رجعش .

ــ هوا خرج امتى ؟

ــ قرب الضحا ، وعزمت عليه يفير ريقه مارضيش .

ــ أنا جايب رطلين سمك مقلى وشوية بلح أمهات .. وحاخش أصلى واقيل شويه مقبال ما يكونوا جم ناكل كلنا سوا .

ودخل « شوشة » إلى الشقة ، بعد أن وضع ما فى يديه على الطبلية التى تتوسط القاعة ، ومضت نصف ساعة والدار مغرقة فى سكون لم يقطعه الا صوت صفير مألوف واقدام مندفعة إلى داخل الدار وصيحة منادية :

ــ أم آمنة يا ويكا .

وقذف « سيد » باللوح الصفيح وارتمى فى حجر جدته المتهللة الأسارير ، المبسوطة الذراعين .. وقال لها وهو يتخلص من ذراعيها :

ــ فين الصفارة ؟

ــ أنهى صفاره ؟

ـــ اللى اداها لى شحاته افندى .

ـــ انا شفتها !! لازم ملقحه مطرح ما سيبتها .

ـــ انا عايزها ضرورى .. النهارده حانلعب عسكر وحراميه .. وحاتنفعنى اوى .. ما لعبتيش أبدا عسكر وحراميه ؟

ـــ ان شالله تتفضح .. انا برضه حابقى عسكر ؟

ـــ طيب بلاش .. تبقى حراميه .. فيه اكل إيه ؟ . انا جعان .

ـــ ابوك جايب سمك مقلى . وبلح أمهات .

ـــ طب ما تيالله ناكل ؟

ـــ بس اما ييجى شحاته افندى .

ـــ هوا راح فين ؟

ـــ خرج م الصبح من غير ما يغير ريقه وماجاش لسه .

ودلف سيد إلى الداخل ونفذت إلى خياشيمه رائحة السمك فمد يده إلى اللفافة التى تضع الزيت عليها ؛ ولكن قبل ان تمس يده السمك سمع صوت ابيه يناديه :

ـــ سيد .

ـــ ايوه يابا .

ـــ استنى لما ييجى عمك شحاته افندى .

ـــ حاضر يابا . انا بس كنت بشوف الورقه فيها إيه .

ـــ فيها سمك .

ـــ عال .. انا أحب السمك أوى .

ـــ دلوقت نتغدى كلنا .

ودخل « سيد » إلى حجرة الصحارة فاخرج كيس البلى واخذ يتسلى بعده ، ثم بدأ فى صنع كرة شرابه ؛ ثم تشاغل باصلاح سن النحلة حتى شعر بحركة فى امعائه فالقى بكل ما فى يده وعدا إلى حجرة ابيه صائحا :

ـــ آبا .. مش حناكل باه ؟ .. انا جعت .

وكانت الساعة قد أوشكت على الرابعة ، ولم تكن أمعاء شوشة ماقل صياحا من أمعاء ولده ، وبدأ يقول متململا وكأنه يحدث نفسه :

ــ هو ايه ؟ . مش ناوي ييجي والا إيه ؟

وأجابه « سيد » مؤكدا :

ــ الظاهر كده .. لانه خد الصره بتاعته .

ــ إيش عرفك ؟

ــ علشان مش محطوطه في الأوده .

ــ لازم مش ناوي يرجع .. مسكين . ربنا يسهل له . راجل طيب وغلبان .. ياالله ناكل .

وأسرع « سيد » ينادي جدته ، وفتحت اللفافة وجلس الثلاثة يتناولون الطعام حول الطبلية .

وعندما اوشكوا على الانتهاء من الطعام سمعت وقع اقدام متثاقلة تتقدم في الفناء ، فأنصت الثلاثة وكانت أم آمنة أول من تحدثت قائلة :

ــ دا لازم شحاته افندى !

وكانت لها قدرة عجيبة على تمييز وقع الاقدام .. فقد أخذت الخطوات تقترب من الباب مترددة ، ثم انزوى صاحبها وراء الباب ولم يبد منه للاعين المتطلعة غير ذراع يطرق الباب وصوت يقول مستأذنا :

ــ يا ساتر .

وكان الصوت يؤيد قدرة أم آمنة ، ويؤكد أن القادم هو شحاتة افندي . اما الذراع الطارق فقد كان يجزم بأن صاحبه ليس شحاتة افندي .

كان الذراع يرتدي كما أسود ، مما يدل على أن صاحبه يلبس جاكتة سوداء ، بينما كان شحاتة افندى قد باع جاكتته ولم يبق له من رداء سوى الجلباب .

اما أن يكون الطارق غير شحاتة افندي .. أو يكون شحاتة افندى اشترى جاكتة ، وكلا الأمرين اكثر استحالة من الآخر .

ولم تطل الحيرة بالقوم ، فقد بددتها صيحة شوشة : « اتفضل » ، ثم تفضل الطارق بالدخول ، وأثبت انه فعلا شحاتة افندي .

عجبا ! والف عجبه !

أهذا هو شحاتة افندي ؟

استغفر الله .. انه شحاتة بك .. شحاتة باشا .. لا يمكن ان يقل عن هذا !

الم يكن شحاتة أفندى وهو جربوع ، منكوح ، هلفوت لا يرتدى سوى الجلباب ؟ فكيف به وهو يرتدي الآن بذلة سوداء كاملة مما يرتديه العظماء في المناسبات والحفلات .

كيف به وهو يرتدي ردنجوت من جاكتة وبنطلون وصديرى وقميص وياقة وكرافتة ؟

ان الرجل لاشك قد حصل على كنز !! فهو فوق ارتدائه لهذه الحلة الفخمة .. قد اقبل محملا بالقراطيس واللفائف والخيرات .

وبدأ شحاتة افندى ينزل أحماله الواحد بعد الآخر حتى وضعها جميعا فوق الطبلية ، ولم تبق غير الصرة في يده .

فقذف بها على الارض ونفح الجميع بتحية ملؤها النشوة والطرب قائلا :

— يا ميت أنس .

وكان على الثلاثة (ومن بينهم العجوز الضريرة التى أحست من حركة القراطيس أن الرجل يحمل خيرا وفيرا) أن يبذلوا جهدا كبيرا لاستعادة سيطرتهم على مشاعرهم وهم يرون هذه المعجزة الكبرى .

وصاح الثلاثة في نفس واحد :

— اهلا وسهلا .. اهلا وسهلا .

واردف « شوشة » يقول للرجل مؤنبا :

— فينك يا راجل ؟ إيه الغياب ده ؟ .. احنا فضلنا مستنيينك على

الغدا لغاية الساعه أربعه ، وبعدين عرفنا انك أخذت الصره ، قلنا لازم مش ناوى يرجع ؟

واجاب « شحاتة » ضاحكا :

ــ وانت بتقول فيها ؟ انا صحيح ما كنتش ناوى ارجع .. لانى كنت مستتقل نفسى كده ، وانا قاعد زى شابلة السلطان .. آكل وانوم .. لكن ربك سترها .. الحمد لله .. دا ما ينساش عبيده أبدا .. « ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

ثم رفع كفه إلى أعلى وصاح فى دعاء :

ــ الستر يا ربه .. مانيش عايز الا الستر .

وضحك « شوشة » وقال معقبا :

ــ هوا ده ستر بس ؟ ده ستر بنغنغة .. ده رزقك من غير حساب .. بعدما بعت الجاكتة اشتريت بدله .. وبدله إيه ؟ بدلة بشوات .

وساله « شحاتة » فى دهشة :

ــ اشتريت بدله ؟ انهى بدله دى اللى اشتريتها ؟

ــ اللى انت لابسها .

وانطلق « شحاتة » مقهقها ، وهو يقول :

ــ الله يسامحك .. دى بدلة الشغل .. دى العده اللى كانت ملفوفه فى الصره .. لبستها وقلعت الجلابيه وصرتها مطرحها .

ــ دى بدلة شغل ؟ ! دا انت لازم بتشتغل فى وظيفة كبيره قوى .. بتشتغل وزير ؟ انا اعرف ان الواحد لما يلبس هدوم الشغل .. يلبس .. يلبس حاجه مقطعه مهريده تستحمل الشغل .. لكن ما شفتش حد ابدا يتفسح بجلابيه دمور .. ويشتغل ببدله جوخ .

وكان « شحاتة افندى » ما زال واقفا .. فقالت « أم آمنة » مقاطعة شوشة :

ــ اقعد يا شحاته افندى .. اقعد استريح عشان تاكل الك لقمه .

ورفع « شحاتة أفندى » سيقان بنطلونه بكلتا يديه ، ثم رفع ذيل الجاكتة وهبط إلى الأرض متربعا أمام الطبلية .

وكانت عين « سيد » لم تغادر الرجل لحظة واحدة .. فهى تتنقل خلاله فاحصة باحثة مدهوشة مذهولة .. لقد بدا « شحاتة » لأول وهلة عندما هل من الباب فخما مهابا ، ولكن عندما أقترب ووقع هو وحلته تحت الفحص المباشر بدت بذلته الفخمة رثة بالية .. كانت البذلة سوداء .. ومع ذلك فلم تكن سوداء سوداء ، بل سوداء خضراء مما يؤكد أنها لم تسلم من الصبغة بعد أن حال لونها ، وكانت يد الزمان قد جالت فيها وصالت ، وكانت البذلة كلها « مطفية » .. عدا الكيعان والركب فقد كانت « لميع » مقواة منتفخة يبدو بها أثر الكوع أو الركبة ، حتى ولو لم يكن بداخلها كوع ولا ركبة .. أما الياقة فلم يكن لها وجود ، بل حلت محلها ياقة من القطيفة السوداء ، وأما حجر البنطلون فكان مجوز إذ وضع على الحجر الأصلى حجر جديد .. يستر بلى القديم ويعطيه مقاومة ضد الزمن ، وكما كانت البذلة ليست سوداء سوداء كان القميص ليس أبيض أبيض ، بل أبيض أصفر إذ يحيط بالياقة المنشاة اطار أصفر من العرق الذى لم تنفع فى ازالته يد الغسيل ، ويشد الياقة فى عنق صاحبها « ببباغ » أسود من النوع الذى يشبك الياقة بقطعتين من الحديد .. أشبه « بالكلبس » .

أما القميص .. فلم يكن قميصا بمعنى الكلمة .. بل كان لا يزيد عن صدر قميص واسورتين .. تبدوان من طرف كم الجاكتة .

هذا هو ما استطاع أن يراه « سيد » من المنظر الجديد الذى طرأ على « شحاتة » .. أما بقية ملابسه فقد كانت هى هى .. نفس الطربوش المنهار .. والحذاء الحائل الخالى من الرباط ، والجورب الصوفى الكاكى .

وأخذ « شحاتة » فى فتح اللفائف الواحدة بعد الأخرى ، كانت

بالاولى كفتة وممبار ، وبالثانية جبنة حلوم ، وبالثالثة بلح أمهات وزلط بسبوسة .

وصاح « شحاتة » ، وهو يفتح التراطيس :

ــ كلوا .. كلوا بالهنا والشفا .. اللي ربنا قدرنا عليه .

واجاب « شوشة » بالنيابة عن الباقين :

ــ والله سبقناك يا عم شحاته .. احنا لسه مخلصين اكل دلوقت .. اكلنا سمك .. كان يستاهلك .

ــ ما يمكنش لازم تاكلوا لقمه معايا ، تفتحوا نفسي .

وكان « سيد » يتلهف على الكفتة ، وخشي ان يستمر ابوه على التحدث بلسانه ويصر على الرفض . فتدخل لانقاذ الموقف قائلا :

ــ ما تزعلش يا شحاته افندي .. انا حاكل معاك .. عشان افتح نفسك .

ولم ينتظر تصريحا من أحد ، فقد كانت المسألة مجرد معروف فى « شحاتة افندي » ، وصنع المعروف لا يحتاج إلى استئذان .. واخذ الاثنان فى تناول الطعام « ونهضت « أم آمنة » إلى مقرها فى الفناء .

وعاد « شوشة » يسأل :

ــ ما قلتلناش يا شحاتة افندي إيه شغلتك دى .. اللي بيقلعوا لها الجلابية ، ويلبسوا لها البدله ؟ .. انا كل ما اجى اسألك تتوه الموضوع ؟

وأجابه شحاتة وهو يدفع « بكفتاية » فى فمه ، ويلوكها بين شدقيه :

ــ شغلتي موصلاتي .

ــ موصلاتي ؟ !! يعني إيه موصلاتي ؟

ــ يعني موصلاتي .. يعني بوصل الناس .

ــ تصدك شيال ؟

ــ شيال إيه يا معلم شوشه .. انا اقدر اشيل نفسي !! انا بمشي كده لوحدى خفيف لطيف ظريف .

ـــ ماتيش فاهم . . بتوصل مين ؟ ومين ؟

ـــ بوصل اللى انتهى . . لنهايته . . موصلاتى ذهاب بس مش ذهاب وإياب . . اللى اروح معاه ما يرجعش ابدا . . اسيبه وتنى راجع .

وضحك شحاتة مقهقها . . ولكن « شوشة » لم يضحك بل غامت على وجهه سحابة حزن وضيق ورهبة وقال فى صوت خفيض :

ـــ انت حانوتى !

وعاد شحاتة يقهقه (فى غير مناسبة للضحك) ، وهو يقول بخفة وبساطة اذهلت « شوشة » :

ـــ يا ريت . . واحنا نتوصل . . الحانوتى راجل معلم كبير . . متريش ومبسوط . . زى المنشار . . عالطالع واكل ، وعالنازل واكل .

ـــ امال تبقى إيه !

ـــ حاجه كده زى صبى حانوتى أو مطيباتى جنازات .

ـــ مطيباتى جنازات ؟

ـــ أيوه أمشى كده قدام الجنازات من باب الافتخار والقيمة والنفخة . . نفخة الأموات . . أو آخر نفخة بيتمتع بها البنى آدم المغرور .

ـــ انت من اللى بيمشوا قدام الميتين ؟

ـــ ماتيش كلام . . يسمونا المندبه . . واحنا ما فيناش من المندبه غير البدله . . الواحد منا يلبس البدله الرسمى اللى حيلته ويلبس الفوطه الحمره اللى زى فوط بتوع العرقسوس على وسطه . . ويمسك فى ايده المنقد او القمم . . ونزف المرحوم لغاية التربة . . يعنى بالعربى تقدر تعتبرنى زى صبى العالمه . . بس هيه بتزف الذى لن يرحم ، وانا بزف المرحوم . . هيه بتزفه لقلبة الدماغ . . وانا بزفه لراحة البال . . بالذمة مش برضه احسن ؟

ولكن شوشة لم يكن على استعداد لتقبل مزاح الرجل الماجن ، بل كان يبدو راسخا تحت اثقال من الحزن .

وكان « سيد » قد انتهى من اكل آخر « كفتاية » وبدت على وجهه عدوى القزع من رجل الاموات الذى يتشدق بذكر الموت والحانوتية ، وغير ذلك من الاشياء المروعة ، وكأنه يتحدث عن البلى والترنجيلة .

وازدرد « شوشة » ريقه وأطلق تنهيدة طويلة .. واطرق براسه واجما .

وكان « شحاتة » قد انتهى من الاكل ، فغادر الثلاثة الطبلية وتناول الصرة وهو يتجه إلى حجرة الصحارة قائلا :

ـــ أهو النهارده ربنا فرجها مره واحده .. صدق اللى قال : « شحاتة » لما يسعد تيجى له جنازتين فى يوم . ومش بس كده .. بكره كمان فيه جنازتين .. ياما انت كريم يارب .. أهو دلوقت أقدر صحيح اقعد معاك بقلب قوى ، وادفع أجرة الأودة .. عن اذنكم اما أغير .

ودخل الرجل يغير ملابسه ودلف « شوشة » إلى حجرته مطرق الراس شارد الذهن .

لشد ما ملىء « شوشة » بالحزن والتشاؤم .. لقد كان يرحب به ويطرب لصحبته .. قبل ان يشم منه رائحة الموت والجنازات والقبور .. اما الآن فهو يحس منه رهبة شديدة .

والمصيبة أن الرجل بنوى أن ينزل بالحجرة بعد أن كان يصر على الا يثقل عليه ، وشوشة لن يجسر على طرده او منعه من النزول معه بعدما ابدى له تلك اللهفة على اضافته .

وبعد برهة كان الرجلان قد ابدلا ثيابهما واستعدا للخروج ، وعلى باب الدار قال شحاتة :

ـــ النهاره بقى أنا اللى عازمك .. ياالله عشان افرجك على القهوه بتاعتنا .. قهوة لمنديه .

وكان شوشة لم يزل على جزعه وتقززه من شحاتة وهو يكاد يشم منه روائح القبور ، فلم يكد يسمع دعوته حتى هز راسه بشدة قائلا :

ـــ مانيش لزوم يا شحاته أفندى . . أنا رايح القهوه بتاعتنا عشان عندى شوية شغل عايز أقضيهم .

ـــ وماله . . تقضى شغلك وبعدين نروح سوا .

ـــ معلهش . . بلاش النهارده .

ـــ ما يمكنش . . أنا عازمك . . والا مش قد المقام ؟ . ما يصحش . . لازم تجبر بخاطرى ، أنا برضك راجل عندى مقدره .

وكانت تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التأثير على « شوشة » . . وكان ذلك هو أدق وتر يمكن الضرب عليه ، فقد كان شوشة يكره أن يخذل إنسانا أو يترفع عن إنسان ، فلم يكد يسمع قول شحاتة حتى أجاب على الفور :

ـــ أبدا . . أبدا . . أنا مقصدتش . . داحنا اللى مش قد المقام . . يالله بينا .

ـــ أيوه كده ما تكسرش بخاطرى . . دانت حاتنبسط قوى . . .

ولكن « شوشة » كان واثقا أنه لن « ينبسط » مطلقا وكيف يتأتى « الانبساط » فى قهوة الجنازات بين مشيعى الأموات ؟

ومع ذلك فقد كان لابد من الذهاب ولابد من احتمال السيرة وصاحبها مهما كانت الظروف .

وسار الاثنان فى الطريق وجرى الحديث بينهما فاترا متقطعا فقد كان « شوشة » شديد الوجوم شديد الشرود حتى لكأنه هو نفسه يشيع جنازة .

وأخيرا وصلا إلى قهوة لفندية بالقرب من باب الشعرية فى شارع الخليج المصرى وكانت تقع فى ركن مرطوب أسفل بيت خرب مهدم ولم يكن هناك ما يميزها عن بقية المقاهى ولا ما يدل على طبيعة روادها وزبائنها اللهم إلا ذلك الحانوت المجاور لها والذى لا يفصلها عنه إلا باب البيت والذى كتب عليه « الحاج سرور أبو الفرج مقاول عموم

اشغال الجنازات ، مستعد لتوريد ما يلزم من جميع مستلزمات الجنازات من افندية وفراشة ومزيكة وخلافه » .

كان هذا الحانوت هو الدليل الوحيد على طبيعة المقهى ، اما فيما عدا ذلك فما كان هناك اى شىء يوحى بالموت .. او تستدل منه على ان المقهى انما هو مخزن لفندية المعدين لعمل مواكب الجنازات .

كانت أبواب المقهى الخشبية تفتح عن رحبة ضيقة رصت فى أحد أركانها الأدوات الخاصسة بالمقهى كالكنسك والفناجين والجوزات والشيشات ، وفى أعلى الواجهة فتحة بسعة الباب مغلقة بقضبان حديدية متوازية .. أما المناضد والمقاعد والأرائك فقد وضعت داخل الرحبة وخارجها ، وبجوار الواجهة وجدت بعض أصص حوت احداها صبارة والباقى حوت خليطا من الريحان والعتر والبردقوش وفى نهاية الأصص وفى الناحية الاقرب لباب البيت الذى يفصل المقهى عن حانوت المقاول كانت توجد صفيحة ملأى بالطين غرست عليها لبلابة تسلقت على بضعة خيوط امتدت بين الباب وبين واجهة المقهى .

دخل الرجلان المقهى وبشوشة غير قليل من الدهش فقد كانت فى ذهنه صورة موحشة للمقهى ورواده وكان يتوهمه مكانا معتما كئيبا معفرا يخيم عليه الصمت وتجوس خلاله الأشباح وترص به التوابيت وشواهد القبور .. فإذا ما نطق به ناطق كان حديثه أنينا وصياحه ولولة .

ولكنه ما كاد يلقى عليه نظرة حتى اخذ .. كان المكان على ضيقه مكتظا ، لا بالأشباح ولا بالتوابيت ، بل بالزبائن الضاحكين الصاخبين ولم تكن تعلو منه أصوات ولولة بل ترن ضحكات خالصة لا تشوبها شائبة هم ولا حزن ، وكانت تقرع فيه قشاطات الطاولة وتتجاوب النكات وتترامى الشتائم المرحة .

كان المكان محفل انس ومجمع مرح وطرب ، ولم يكن يختلف قط عن أى مقهى صاخب صاح إلا فى ظاهرة واحدة هى طابع رواده واشكالهم

.. كانوا كلهم من عينة واحدة وشبه واحد بحيث لا يستطيع الناظر إليهم لن يميز أحدهم عن الآخر من أول وهلة .

كانوا كلهم صورا طبق الأصل من « شحاتة أفندى » ... هيكل عجوز متداعى يلفه جلباب من الدمور المخطط وجاكتة قديمة ، وطربوش منهار الأركان ، وحذاء أجرب بلا رباط وجورب منزلق من الساق الرفيعة الجرداء متساقط على الحذاء .

كانوا كلهم كذلك .. نفس الرأس الأشمط .. والوجه المغضن المعروق والذقن التى تناثرت عليها الشعيرات البيض فلا هى ملتحية ولا هى حليقة .

وسأل شحاتة صاحبه وقد وقف الاثنان فى مدخل المقهى يقلبان البصر فى أرجائه :

ـــ تحب تقعد فين ؟

ـــ تعال نقعد في الركن اللى هناك ده اللى جنب اللبلابه .

ـــ أمرك .

وجلس الاثنان على المقعدين الخاليين بجوار اللبلابة حول منضدة على قارعة الطريق ، وقال شحاتة فى لهجة ملؤها الاريحية والكرم :

ـــ تشرب إيه بقى يا عم ؟

ـــ أى حاجه .. هات لنا قهوه .

ـــ قهوه بس ؟ ودى تيجى .

ثم صفق بيديه وصاح بلا كلفة كأنه في بيته :

ـــ يا محمود .. اتنين قهوه مضبوط واتنين حمى على كيفك .. وهات كمان طاوله .

وانبعثت من وسط المقهى صيحة منغمة طويلة تطوى فى جوانحها كلمة « حاضر » ، ورفع شوشة حاجبيه في دهش وقال وهو يهز رأسه هزات بطيئة :

— عجيبه ؟

— إيه دي اللي عجيبه ؟

— انا كنت فاكر ان انا جاي اقعد في وسط محزنه .

— محزنه . ليه كفى الله الشر ؟

— أهو قلت يكونوا طالعين جنازه ، والا جايين من جنازه .

— طالعين جنازه والا جايين من جنازه ؟ ودي حاجه تحزن .. دي حاجه تبسط .. دي حاجه تفرفش .. الظاهر انك ما عندكش فكره ابدا .

— فكره عن إيه ؟

— عن شغلتنا .. انت عارف المثل اللي بيقول مصائب قوم عند قوم فوائد .. أهي دي الفوائد .. الجنازات عند الناس مصائب لكن عندنا فوائد .

— يا ستار يا رب !

— يا ستار على إيه ؟ . وهوا لولا جنازة النهارده كنت كلت اكلة الكفته اللي بشتهيها بقالي سنه ، وهوا اللي كان حايجرالي من زمزم لولاك مش من تحت راس وقف الحال وقلة الجنازات .

— لكن ده موت .. موت .. عارف موت يعني إيه !

— عارفه يا سي شوشه .. عارفه كويس .. هوا انا لي شغله غيره .. طول النهار رايح جاي فيه .. رايح فين .. رايح التربه .. جاي منين .. جاي من التربه .. وبعد كده تقوللي عارف الموت يعني إيه ؟ انا حاقول لك يعني إيه .. حافهمولك كويس .. وافهمك قيمة البني آدم إيه .. عشان ما تبقاش موهوم قوي كده .. وتبص لي زي ما اكون مبتلي .

وفي هذه اللحظة اقبل الساقي وبيده الطاولة فوضعها أمامهما وعاد يحمل إليهما صينية القهوة .. ووضع الفناجين وسكب ما في الكنكة ثم حياهما وانصرف .

ورشف شحاتة من فنجانه أول رشفة ، ثم اعتدل فى مجلسه كمن ينوى حديثا طويلا .. وغادرت وجهه سيماء المزاح التى كانت ترتسم عليه ، وبدأ حديثه لشوشة يفهمه معنى الموت وقيمة ابن آدم .

* * *

قال شحاتة : إن وجه الارض متغير ، وان مركبات هذا الوجه من مختلف الكائنات محدود وجودها بفترة معينة ، لها بداية ونهاية .. ففترة الوجود تبدأ بالخلق وتنتهى بالفناء ، وتمر بمراحل الجدة والقدم والانعدام ، وابن آدم لا يزيد عن أن يكون أحد مركبات وجه الأرض ، فوجوده عليها محدود بفترة معينة ، حكمه فى ذلك حكم هذا المقعد الذى نجلس عليه ، وهذه القطة الرابضة اسفل المنضدة ، وهذه الجلابية المتفرعة على الجدار .. انه لا بد بعد الجدة ان يصيبه القدم والانهيار والانعدام ، ثم ينتهى ويغادر وجه الأرض لينبت سواه ويأخذ مكانه فى الوجه المتغير . هذه ظاهرة لا جدال فيها ولا مناقشة . ولذا كان حريا بالإنسان أن ينتهى كما ينتهى هذا المقعد أو هذا الجلباب ، وأن يغادر محله الذى على وجه الارض فى هدوء كما يغادر هذا الجلباب البالى فكذا سطح الارض لا يطيق الإنسان البالى ، وكما يمزق الجلباب وهو جديد قبل أن على فيخلعه الانسان .. كذا تخلع الأرض بعض سكانها وهم جدد إذا ما أصابهم القدر بمزق جعلهم غير لائقين بوجه الأرض .

ولكن الانسان يمتاز عن بقية مركبات وجه الأرض بالغرور ، فهو يأبى أن يقارن نفسه بغيره من الكائنات التى توجد لفترة محدودة ، تبدأ بالخلق وتنتهى بالفناء .. ويأبى الا ان يعتبر نفسه كائنا غير فان وغير قابل للانعدام ولذا فهو ينزع من أن تكون له نهاية . فإذا ما وجد نفسه مكرها عليها غير مستطيع عنها فكاكا ، ووجد أن جسده الملموس والشىء الذى يدلل على كيانه ، قد فنى .. أبى إلا ان يفرض بقاء الشىء غير الملموس والذى لا يدرى كنهه ولا يستطيع تحديده الا وهو الروح ؟

وهو فى سبيل ذلك يحقر الجسد ويقلل من شأنه ويعظم من ذلك الشيء الذى يتوهم بقاءه وخلوده .

وهو يقول ان الانسان باق بروحه .. ما قيمة الروح فى ذاتها بلا جسد ؟ . ان كيان الانسان وتصرفه ومشاعره ورغباته وملذاته وآلامه .. منعكسة من الجسد ، هو يشتهى لان جسده يشتهى . وهو ينعم بالملذات لان جسده يرغبها ، وهو يعشق لان جزءا من جسده أبصر جزءا من جسد آخر .. فمن الغباء أن يحاول جعل الروح شيئا مستقلا عن الجسد ، ومن الغباء أن يتصور بقاءها بعد فناء الجسد .. فكما لا يستطيع أن يبقى بلا روح ، كذا لا يمكن أن يكون للروح وجود بلا جسد .

إن الإنسان روح فى جسد .. فكيف يستطيع مخلوق لن يتصور روحه بلا معالم ولا ملامح ، ولا مميزات ، ولا رغبات ، ولا لذات ، ولا الام ؟ . ما فائدة الروح الباقية إذا كانت لا تزيد على هبة هواء لا شكل لها ولا لون ولا رائحة .. ولا .. ولا .. ولا شيء أبدا ؟

هذه الروح الباقية ما قيمتها ؟ وما احساسها وما عملها ؟ ان قدرة الروح فى الارض كامنة فى الجسد ، مسيرة لخدمته ، فهى شيء تابع للجسد ، ولا قيمة لطاقتها إذا لم توجه لتحريك هذا الجسد .. ولتمكينه من أداء وظيفته .. لينال رغباته ومتعاته .

انها اشبه بالقوة المحركة للقاطرة أو لاية آلة .. حقيقة انه ليس هناك قيمة للآلة بغير القوة المحركة .. ولكن هل هناك قيمة للقوة المحركة فى حد ذاتها .. إذا لم تجد الآلة التى تحركها ؟

ما قيمة أن تبقى الروح بعد فناء الجسد .. او بعد فناء الشيء الاصلى المكون للمخلوق الآدمى ؟

ولكن الإنسان المغرور يكره ان يقارن نفسه بالكلب أو بالمقعد او باى مخلوق من المخلوقات ذوات المدد المحددة فى البقاء على وجه الأرض .

وهو لذلك يكره الموت ويأبى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته بأوهام كريمة .. ويرفض تعوده ، وترويض نفسه عليه .

انها مسألة ترويض وتعويد لا أكثر ولا أقل .

وانتهى « شحاتة » من رشف فنجانه ، وكان الساقى قد أحضر التعميرتين ، فتناول أحداهما ، وتناول « شوشة » الأخرى .. وأخذ الاثنان فى جذب الأنفاس من خلال المبسم ، وعاود « شحاتة » حديثه و « شوشة » انصاته .

قال الرجل لصاحبه :

ــ خذنى أنا وأنت مثلين لما أقول .. أنت تفزع من حديث الموت وتروع من سيرته .. لقد رأيتك تنفر منى وتنظر إلى كأنى عفريت أو شبح .. كل هذا لأنك لم تروض نفسك على عملية الموت ، ولا تعودت مظاهره ، كل شىء يحدث على ظهر الأرض يهون بالتعود .. لقد كنت مثلك منذ بضعة أعوام قبل أن أندمج فى مهنتى .. كان شعر رأسى يقف عندما أسمع صوانا ، وكنت ارتجف إذا ما طرقت أذنى ولولة .. وكنت إذا رأيت نعشا يسير خشعت وطأطأت وقرأت الفاتحة وترحمت .. أما القبور فقد كنت أخشى رؤيتها ، أما الأموات فما جسرت على أن أقترب من ميت قط . فماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد سرت فى الجنازة الأولى مطأطىء الرأس ، متجهم الوجه ، وعندما وصلنا إلى المقابر وأخذوا يوارون الجثة فى القبر ، وعلت أصوات الرجال والنساء بالنحيب ، انتحبت معهم كأن الميت قريبى .. واندفعت فى النحيب حتى كاد يغمى على .

وضحك منى الزملاء واتخذونى موضع تسلية وفكاهة ، وأكدوا لى أنى يجب أن أتناول أجرا مضاعفا وأسير وراء الجنازة ، لأنى بين الأفنديه « لقطه » ، ولكنى فى الجنازه الثانية كنت أقل تأثرا .. وفى الثالثة والرابعة لم يكن هنالك تأثر قط .

كنت أسير فى الجنازة كأنى فى نزهة .. وكان نحيب الناحبين يصل إلى أذنى كأنه صفير القطار ، أو مأماة الماعز . وعندما كنت أصل

إلى المقابر .. كنت أجلس على شواهد القبور ، واضعاً ساقاً على ساق ، وأنا الذي كنت لا أجسر على الاقتراب منها .

لماذا ؟ إنها أكوام من الحجارة رصت على الأرض .

وأكثر من هذا ، لقد بدأت أتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسه .. أتصدق هذا ؟ لقد فعلت هذا لأني عزمت على أن أعزم في نفسي كل خوف من الموت أو رهبة له كشيء مروع . عزمت على أن أكتشفه تماما ، وأن أصل في كشف خباياه إلى أعمق الأغوار .

لقد تطوعت لحمل أحد الأموات إلى داخل المقبرة .. ولا أكتمك أن الأمر كان يحتاج مني إلى شيء من الجرأة فقد ارتجفت عندما مست يدي لحمه البارد وجلده اليابس .. ولكن بعد لحظات ذهب عني الخوف ، ولم يزد شعوري عن شعورك عندما تحمل فخذة خروف أو أوزة مذبوحة . أليس كلاهما جسد ميت من لحم وعظم !

وهكذا تعودت أن أنزل مع الأموات إلى المقابر .. إنها مسألة بسيطة جدا .. فالمقبرة لا تزيد على كونها قبو تحت الأرض ، تناثرت العظام في ناحية منها ، وفي الناحية الأخرى جيف لم يقدم عليها العهد حتى تفضي رميما .

ولا تسل عن الفائدة التي جنيتها من ذلك !!

- لقد أصبحت رجلا شجاعا .. بل أصبحت أشجع رجل في العالم . لقد بت أحتقر الموت وأحتقر أكثر منه .. الإنسان .

الإنسان حقير يا صاحبي إلى أقصى حدود الحقارة .. والعجب !! أنه حقير ومغرور .. وغروره يعمي عينيه عن حقارته .

انظر إلى الناحية الأخرى من الشارع .. أترى هذا الشيء الملقى هناك الذي يعف عليه الذباب .. إنها جيفة كلب ميت منتفخ الجسد .. انظر إليها جيدا .. لا تشمئز كثيرا ، واسمع حكايتي التي سأقصها عليك :

كنت أسير ذات يوم في أحد الطرقات فرأيت الطريق قد أخلى ،

والناس مزدحمة على الأرصفة ، وقد صفت الجنود على الجانبين ، وسألت عن الخبر ، فعلمت أن كبيرا سيمر ، وأن الطريق قد أخلى له ، حتى لا يعرقل سير موكبه رائح ولا غاد ، وحتى لا يشاركه الطريق مار من البشر يفسد فخامته وأبهته ، وبعد لحظة أقبل الموكب ، خيل مطهمة وجند مدججون وحراس مزركشون وعربات مزينة مزخرفة .. ومر الكبير ، وهو يرفل فى أبهى مظاهر العظمة والروعة ، وأخذت من مرآه ، وبدا لى كأنه قد هبط من السماء ، وأنه من المستحيل أن يكون بشرا مثلنا ، بوجهه الأبيض المتورد وحلته الجوخ المزركشة بالقصب ، وقد حفت به كوكبة من الفرسان برماحهم وسيوفهم .

وأحسست بالضآلة والانكماش .. واحتقرت نفسى احتقارا شديدا .

ومرت بضعة أشهر ، ثم سمعت أن الكبير قد مات .. ووقفت أرقب جنازته ، وبدا يمر موكبها رائعا فخما .. لا يقل فخامة عن موكبه ، وهو حى .. كانت فصائل الفرسان والجنود يتقدمون النعش بملابسهم الزاهية الملونة تتخللهم الموسيقى العازفة الصادحة ، وهى ترن على جانبى الطريق فتحدث صدى مروعا ، وبدا النعش محمولا على مدفع ضخم ملفوف فى علم أخضر ، تجره الجياد السود الضخام .. وتحلت مقدمته بصنوف النياشين والمداليات .

وتلا ذلك حشد زاخر من المشيعين يتقدمهم الرجال الرسميون بحللهم السود المزركشة ، ثم تلت بعد ذلك وفود لا حصر لها .

وأخذت من روعة الموكب .. وقلت لنفسى .. تبارك الذى خلق .. « علو فى الحياة ، وفى الممات » .. وعظمة حتى بعد أن تقضى .

مرتين كان فيهما الرجل الكبير رافلا فى أبهى مظاهر الأبهة والفخامة .. تحف به مواكب الحراس والجند .. مظهرة أروع صورة لعظمة الإنسان وسلطانه مما يجعل النفس تتضاءل بجوارها .

ثم رأيته فى المرة الثالثة !!

انظر إلى جيفة الكلب المنتفخة النتنة الملقاة أمامك .

لقد كان كذلك .. لا يفترق عنها قيد أنملة .

لقد تصادف أن مات قريب له بعد ذلك ، وكان أقل منه قدرا مما سمح لي بأن أشترك في زفافه حاملا قمقمي لابسا حلتي وفوطتي ، ودفن الرجل في نفس مقبرة الكبير وتطوعت لحمل جثته داخل المقبرة ، وهبطت إلى المقبرة .

وهناك وجدت الآخر .. بلا فخامة ولا أبهة .. ملقى كالقربة الملأى التي تحملها على ظهرك أو كالخروف المذبوح الذي نفخه الجزار إعدادا لسلخه .. بلا حراس ولا جنود ، ولا موسيقى ولا مواكب .. اللهم إلا مواكب الدود .. دود عادي لا يلبس التشريفة ولا يمسك رماحا ولا سيوفا .. دود بسيط كذلك الذي يحف بجثتك وجثتي وجثة هذا الكلب .

ولم أتمالك نفسي من ابتسامة ساخرة .

أرأيت أحقر من الإنسان أو أشد غروراً ؟

إياك أن ترهب إنسانا لمظهره ومنصبه .. إياك أن تروع بتلك الألقاب وتلك الثياب .. إنها مهما ضخمت فلن تحوي في طياتها سوى بشر ، ومهما ضخم البشر .. فماله إلى جيفة نتنة .. كهذا الكلب .

ليفتر ما شاء له الغرور ، وليتكبر وليتعاظم وينعجرف . ليفعل كل شيء .. كل ما عليك أن تعطيه موعدا أقصاه بعد أعوام .. لتلقاه في مقبرة وانظر كيف يبدو .. اسأله عن ألقابه وعن ثيابه وعن حراسه وعن أمواله وعن سلطانه وعن جبروته وعن قوته ثم انظر بماذا يجيبك .

إذا أجابك بأكثر مما يجيبك ذلك الكلب .. فابصق في وجهه .. وفي وجهي .

كلها أعوام .. والأعوام تمر على الزمن الطويل كالدقائق ، ثم تلقى صاحب العزة وصاحب السعادة وصاحب الرفعة ، وصاحب أفخم لقب من الألقاب البشرية على الأرض ممدد الأطراف منفوخ البطن لا يحميه من

عاهية الدود تاتون ولا يصون ذاته الكريمة التي لا تمس مسائن ، ولا يقى جثته المرغة في التراب المشرفة للمقبرة .. واق ولا حام .

ليس هناك أحقر من البشر ولا أغفل . اهناك أشد غفلة من مخلوق يغفل عن نهايته ؟

اهناك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يعتبر بها ؟

هذا هو الموت يا صاحبي ، وهؤلاء هم البشر .

نهاية طبيعية .. لمخلوقات غير طبيعية .

* * *

وانتهى « شحاتة » من حديثه وسرعان ما زالت عنه مظاهر الجد ثم اطلق ضحكة عالية وقال لشوشة :

ــ ايه بقى رايك يا عم في المحاضرة دي .. صدقت والا لسه ؟ .

وانبعثت من صدر « شوشسة » تنهيدة حارة ولم يجب فأردف « شحاتة » متمما :

ــ انا عارف ان ما فيش فايده .. ما فيش فايده .. إلا إذا شفت بنفسك واتعودت بنفسك .. أنا برخضك لو كان واحد حلف لي على الميه تجمد على الكلام اللي قولتهولك ده قبل ما اجربه ماكنتش صدقته .. على العموم كل اللي عايزه انك ما تضربرش من عشرتي والقعده معايا .. لاني ابتديت أحبك ، ونفسي اننا نفضل اصحاب على طول ، لكن إذا كنت انت ما تقدرش تتخلص من ضيقك مني ومن بوعمك من الجنازات والموت .. فانا ماحبيش اضايقك ولا اتقل عليك .. وأنا من النهارده ارجع ممك وآخد الهدوم بتاعتي ...

وتقفز الدمع فجأة إلى عيني « شوشة » ويبذل جهدا كبيرا لاعادته إلى موضعه ، ولن كان « شحاتة » قد لمح احمرار عينيه .

وبعد أن تخلص من دمعه قال :

ــ يا شحاتة افندي .. انت زي ما حبيتني انا حبيتك .. انا بقالي

مده مش لاقي صاحب استريح له ، وافضفض له . والبنى آدم من غير صاحب ما يسواش بصله .. البنى آدم اكتر ما يحتاج له فى حياته صاحب ، وانا حاسس انك صاحب حقيقي ، وزى ما انت مش عايز تفرط فيه أنا مش حافرط فيك .. انا بيتى بيتك ، وأهلى أهلك .. خليك قاعد معانا على طول .

وعندما طفرت الدموع إلى مقلتى « شحاتة » لم يحاول ان يعيدها بل تركها تتساقب فى أخاديد وجهه المغضن .

واخيرا نهض الرجلان مغادرين المقهى متجهين إلى البيت . وفى الطريق توقف شحاتة أمام مقلة الحسينية وابتاع خليطا من الفول السوداني واللب والحمص ثم سأل شوشة :

ــ حانشترى عشا إيه ؟

ــ ما فيش لزوم .. العشا موجود .. فيه جبنه وفيه بلح وفيه البسبوسة وفيه عسل أسود . مافيش لزوم للرطرطه .

ــ طب نشتري حاجه لسيد .

ــ كفايه اللب والفول .. هو حاينهب .

ووصلا إلى البيت وكانت ام آمنة تقوم بعملية تشطيف سيد ، وكان صراخه التقليدى يعلو محتجا على استعمال الصابون .

ووقف « شحاتة أفندى » فى القاعة وهو يصيح بسيد مستفسرا :

ــ مالك يابو السيد ؟

ــ بتغسل لى راسى بالصابون .

ــ وإيه يعنى ؟ ودى حاجه تستاهل الصريخ دا كله ؟

ــ طيب تعالى انت كده وريتا شطارتك .. خليها تغسل لك راسك بالصابون وشوف حاتصرخ والا لا .

ــ لا يا عم . حد الله بينى وبينها .. انا بقالى تلاتين سنه ما غسلتش راسى لا بميه ولا بصابون .

ــ طيب أمال عامل حدق ليه ؟

ـــ لما كنت صغير قدلك كنت بستحمل .. لكن دلوقت كبرت .. عقبال ما تكبر انت كمان وتتمتع بالوساخه .

وانتهت أم آمنة من تشطيف سيد ، وذهبت إلى حجرتها للصلاة ، وعدا سيد إلى شحاتة في حجرة الصحارة قائلا له :

ـــ انت خلاص حاتسكن هنا ؟

ـــ ان شاء الله .. لو ماتضايقوش منا .

ـــ نتضايق ازاى ؟ احنا ديكى الساعه لما يسكن معانا شحاته افندى بحاله ؟

ـــ عشت يابو السيد .. عشت .

ـــ بس اسمع بقى .. فيه حاجات عايزها منك .

ـــ إيه هى .

ـــ أول حاجه تعلمنى الصفاره .. عشان طول النهار بانفخ فيها .. ماتيش عارف .

ـــ بس كده .. خليها على الله .

ـــ تانى حاجه .. عايزك كل يوم تسمع لى السوره .

ـــ سورة إيه ؟

ـــ السورة اللى علينا فى الكتاب .. انت ما انتاش حافظ القرآن ؟

ـــ والله مش قوى .

ـــ ليه مارحتش كتاب وانت صغير ؟

ـــ رحت .

ـــ طيب ما حفظوكش القرآن ؟

ـــ حفظونى ونسيته .

ـــ معلهش .. على العموم السوره مكتوبه فى اللوح .. وكل اللى عليك انك تسمعها لى من اللوح .

ـــ بسيطه .. فيه إيه تانى ؟

ــ تعرف تعمل طيارات .

ــ طيارات ورق ؟

ــ امال يعني حاتعمل طيارات حربيه ؟

ــ والله كنت زمان بعمل .. وافتكر برضه ان انا اقدر اعمل دلوقت .

ــ طيب عايزك تعمل لي طياره .

ــ عندك الورق والغاب ؟

ــ عندي الغاب ، وهات لي انت الورق .

ــ حاضر .. فيه حاجه كمان ؟

ــ تعرف تعمل كوره شراب ؟

ــ واعمل كوره شراب .

ــ وتلعب بالنحله ؟

ــ والعب بالبيضه والحجر .. كل اللى انت عايزه حاعملهولك يابو السيد .. ما تحملش هم ابدا .

ــ يا سلام يا شحاته افندى .

ثم صاح هاتفا باعلى صوته :

ــ يعيش شحاته افندى .. يعيش شحاته افندى .

وكانت « ام آمنة » قد انتهت من الصلاة وصاحت بسيد :

ــ هات الاكل اللى جوا من المطبخ رصه على الطبليه يا سيد .. عشان ابوك وعمك شحاته ياكلوا .

ــ وانتى مش حاتكلى معانا ؟

ــ انا كلت .

ورص الطعام وانتهى الثلاثة من تناوله وآوى شوشة إلى حجرته فجلس بجوار النافذة جلسته الصامتة الحزينة رانيا ببصره إلى النجوم المطلة من سقف الدرب .. وجلس شحاتة ممسكا بالناى وقال :

ـــ هه . . نبتدى ؟
ـــ أيوه .
ـــ أنا حاصفر لك حته سهل . . وبعدين حاعلمك ازاى تصفرها .
ثم بدا يصفر لحنا بسيطا لم يكد يسمعه سيد حتى صاح فرحا :
ـــ عارفه . . مش ده . . « خد البزه واسكت . . خد البزه ونام » ؟
ـــ أهو هوه .
واستمر الرجل فى الصفير وسيد ينشد معه صفقا :

خذ البزه واسكت خد البزه ونسام
امك السيده وابسوك الإمسام

ثم كف « شحاتة » عن الصفير وبدأ فى الشرح قائلا :
ـــ شوف بقى يا سيدى ، هات ايدك اليمين . . خلى صباعك الكبير تحت الصفارة وافرد صوابعك الاربعه وحطهم على الخروم اللى فى الاخر . . أيوه كده . . وكمان ايدك الشمال . . خلى صباعك الكبير على الخرم اللى تحت الصفاره والتلات صوابع اللى بعديه حطهم على الخروم اللى ناحية بقك . . ودلوقت عايز تنفخ . . شيل صباعك التانى وبعدين الاول . . حطهم الاتنين وشغل التالت والرابع . . ايوه كده ، تانى انفخ . . شيل الاول ، والتانى .
واستمر شحاتة فى درسه حتى استطاع سيد أن يصفر المقطع الاول من اللحن فقال الأستاذ :
ـــ بس . . الليله دى كفايه كده . . بعد جمعه . . حتبقى احسن زمار فى مصر . . ولا اليزرى . . ودلوقت بقى هات اللوح لما اسمعلك السوره .
واحضر « سيد » اللوح الصفيح واعطاه لشحاتة قائلا :
ـــ آخر سوره خدناها هى سورة عبس .
ـــ ومال خطك وحش كده ليه . . زى نغبشة الفراخ ؟

ـــ ده وحش ؟

ـــ أنا مش عارف اقرا منه حاجه ابدا .

ـــ لازم مبتعرفش تقرا .. تلاقيك نسيت القرايه .. زى ما نسيت القرآن !

ـــ يا واد بلاش نقوره .

ـــ امال مش عارف تقرا خطى ازاى ؟ مع انه أحسن خط فى الكتاب كله ؟

ـــ طب قول بلاش غلبه .. ابتدى .

وجلس « سيد » متربعا على الارض ، واعتدل فى مجلسه ، ثم بدأ يهتز للأمام وللخلف مرددا :

ـــ عبس وتولى أن جاءه الاعمى .

واعترض « شحاتة » قائلا :

ـــ وهو يعنى عبس دى .. ما تتقالش إلا إذا اتهزيت توى كده ؟

ـــ آه .. زى ما علمونا .

ـــ طيب كمل .

وعاد « سيد » إلى الترنح مرددا :

ـــ عبس وتولى أن جاءه الاعمى .

وبدا أن الكلمة التالية قد غابت عن ذهنه ، فقد أخذ يردد الجملة بضع مرات ، ثم خرج عن السورة محاولا التخلص من مأزق النسيان بسؤاله « شحاتة » قائلا :

ـــ الا على فكره يا عم شحته .. يبقى مين عبس ده ؟

ـــ عبس ؟

ـــ أيوه عبس .

ـــ ما يبقاش حد .

ـــ يعنى إيه ما يبقاش حد ؟ يطلع من الكفار والا من المسلمين ؟

ـــ لا من الكفار ، ولا من المسلمين .

ـــ امال يبقى ايه ؟

ـــ هوا حد قال لك ان عبس ده راجل ؟

ـــ امال ست ؟

ـــ يا بني آدم . . عبس . . يعني كشر . . تولى . . يعني انصرف . . الاستاذ ماقالكش كده ؟

ـــ لا .

ـــ امال قال لك إيه ؟

ـــ ولا حاجه ابدا ، بيخلينا نحفض كده من غير سؤال . خدنا جزء عم كله . . من غير ماحنا فاهمين ولا كلمه ، واهو كلام بنقوله عمالين زى البغبغانات .

ـــ طيب يا سيدي أنا حافهمك ، حكاية عبس وتولى دى . . كان فيه واحد من الصحابة اظن أن اسمه ابن أم مكتوم .

ـــ ابن ايه ؟

ـــ أم مكتوم . . اسمه كده .

ـــ ماله ابن أم مكتوم ده ؟

ـــ ده كان راجل أعمى ، فراح يوم للنبي عليه الصلاة والسلام ، فلقاه مشغول مع جماعه من الكبار . . اللي عليهم القيمه بتوع قريش ، وعمال يهدى فيهم ، فراح حاشر نفسه وسطهم وقطع عليه الكلام وقال له « علمني مما علمك الله » وقعد يزن عليه ، والرسول مش سائل فيه ومشغول بالجماعه التانيين ، فنزلت الآيه دى على سيدنا محمد تقول له انه ما كانش حقه يعبس ويكشر ويسيب الراجل الأعمى الغلبان لأنه عايز يتعظ ، ويمكن الموعظة تفيده . . أهي دى كل الحكايه . طبعا ما كنتش عارف عنها حاجه وعشان كده لازم بتحفض غصب عنك . . وانت متاذى ؟

ـــ بحفض لخوفي من الفلكه والمترعه .

— يا خسارة القرآن بين الجهله .. القرآن دا « يا سيد » كلام حلو .. بس لازم يتفهم .. ده معجزة .. دا مافيش حاجه في الدنيا تخليني أنطرب اد سماع القرآن والانصات له . انت لو فهمته حاتحفظه من نفسك .. شايف الآيه المتعلقه على الحيط دي .. اقراها كده .

وبدأ « سيد » القراءة ، وكانت الآية مكتوبة بالخط الثلث المتشابكة حروفه ، فلقي « سيد » صعوبة في قراءتها وأخذ يردد في بطء :

— ولنبلو .. ولنبلو .

ثم صاح في يأس :

— احنا ما خدناش الخط المشبك ده .

— ولا هاتخدوه .. دا شغل خطاطين .. بيكتبوا حاجات عشان الزينة مش عشان القرايه .. أنا حاقرالك أنا .. (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) .

يعني ان ربنا بيمتحنا بالخوف والجوع وضياع الاموال وهلاك الانفس والأولاد فبشري للصابرين اللي لما تصيبهم مصيبة قالوا ان احنا ملك لربنا ، واننا راجعين له .. شايف الآيه دي وشايف حلاوتها .. فيه حاجه تصبر المخلوق المصاب اكتر من كده .. وشوف الآيه التانيه :

(والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

يعني اللي يصبروا على الفقر والمرض وعلى الضنك والأذى هم دول المتقين الصادقين .. فيه تكريم للمصاب اكتر من كده ! وفيه تشجيع على الإيمان واحتمال المكاره والصبر والتجلد أكتر من كده ! دي حاجه تخلي الواحد يتمنى المصيبه عشان يصبر عليها .

وهز « شحاتة » رأسه في تأثر ، وهو ينظر إلى « سيد » ليرى مدى تأثير قوله عليه .. ولكن الصبي فاجأه بسؤاله :

— لما ما يكونش لها ديل بتتقلب ليه ؟

ودهش الرجل أيما دهشة فقد ظن ان الصبى منهمك فى الانصات إليه .

ولم يملك إلا أن يسأله فى دهشة :

ــ من غير ديل ؟

ــ أيوه .. بتقلب ليه ؟

ــ هى إيه دى ؟

ــ الطياره .

ــ آه .

وتبين أن ذهن الصبى كان شاردا طول الوقت فى الطيارة ، وانه لم يع شيئا من درس التفسير الذى لقنه إياه . ولم يجد بدا من اجابته بقوله :

ــ علشان الديل بيحفظ التوازن بتاعها .

ــ توازن ؟

ــ أيوه .. يعنى ما يخليش جنب أتقل من جنب .. تبقى زى الميزان لما تكون الكفتين قصاد بعض .

ــ طيب وليه تضرب بالراس ؟

ــ هى إيه دى ؟

ــ برضه الطياره .

ــ والله حكاية ضرب الراس دى معرفهاش .. ده علم جديد ، أصل على أيامنا ما كانتش تضرب بالراس أبدا .. كانت طيارات مؤدبه .. ومع كل انت زعلان ليه .. لما تضربك بالراس ابقى اضربها انت بالراس .

ــ هوا إيه أصله ؟ هى حا تضربنى أنا بالراس ؟

ــ أمال حاتضربنى أنا ؟

ــ لا .. حاتضرب الهوا .

ــ طيب يا سيدى تضربه .. انته يعنى صعبان عليك الهوا ..

خليهم يصطفلوا مع بعض .. ما هو تلاقى الهواء برضه لازم عمل فيها حاجه .. يعنى هى حاتضربه كده من الباب للطاق .

ـــ ما هى لو ضربت بالراس .. حاتقع على الأرض وتتكسر .

ـــ بقى تستاهل .. عشان تحرم تضرب بالراس .

ثم امسك « شحاتة » باللوح الصفيح وهز راسه قائلا :

ـــ الحقيقة لهم حق يحفضوكم صم ، دول عشان يحفضوكم بالتفسير ويخشوا معاكم فى حكايات عن الطياره ، وضربها بالراس ، لازم حايخدوا لهم اد ميت سنه لما يخلصوا جزء « عم » .. سمع يا خويا سمع .. قول الله يعينك .. خلينا نقوم ننام لحسن ورايا بكره تلات زفف .. قول يا سى سيد .. « عبس وتولى » .

وجلس الصبى جلسته المتربعة ، ونصب هامته ، ثم أخذ فى الترنح للأمام وللخلف قائلا :

(عبس وتولى .. ان جاءه الأعمى .. وما يدريك لعله يزكى) .

الفصل الثامن

استعداد لمعركة

مرت الأيام و « شحاتة » ينزل فى شقة « شوشة » ويقطن حجرة الصحارة ، ويشارك الأسرة في أكلها ومقرها حتى بات كأنه عضو فيها وانه ساكن أصيل يعيش معهم من عشرات السنين ، فقد ألفوه وألفهم حتى لم يعودوا يتصورون أنهم كانوا يعيشون من غيره .

ولا شك أن وقف الحال الذى كان قد أصاب « شحاتة » فى الفترة الأخيرة قد ولى عنه تماما ، وأن الدنيا — أو على الأصح الآخرة — قد اقبلت عليه ، واغدقت عليه من أمواتها الجم الكثير ، وان الله قد اصاب الناس بوباء أو بغرة ، وأن عزرائيل قد نشط من أجل « شحاتة أفندى » نشاطا عظيما ، وانشفع بين الخلق يطيح برقابهم ويقصف أعمارهم .. فكان « شحاتة » يخرج من الدار بصرته ويظل غائبا طول اليوم ، فلا يعود إلا فى آخره مرتديا بدلة الشغل منهك الجسد متعب الساقين من فرط المشى والتشييع .

وبدت مظاهر العز والنغنغة على « شحاتة » جلية واضحة ، وكانت أول تلك المظاهر هو نفحه شوشة « ريالا » كأجر للحجرة التي يقطنها وابتياعه لنفسه جاكتة « نصف عمر » من سوق الكانتو بدا فيها محترما مهابا .. ثم اغداقه القروش على « سيد » واغداقه المأكولات والحلوى على أهل الدار فى كل غدوة وروحة .

وفى ذات يوم خرج قبيل المغرب مع « شوشة » قاصدين المقهى الذى تعود أن يجلس عليه شوشة ، وكان شحاتة يرتدى جاكتته الجديدة أو نصف الجديدة وقد كوى طربوشه وغسل جلبابه ومسح حذاءه الأجرب وابتاع له رباطا أغلق به فاه ورتق الثقوب التى به بما تيسر من اللوز ورفع الجورب المتساقط وشده على ساقه بقطعتى دوبار .

بوجه عام كان شكل الرجل مقبولا ، لا سيما وقد حلق ذقنه ، ولم يعد هناك أثر لطبقة الشعيرات البيضاء المتناثرة على صفحة وجهه والشبيهة بغزل البنات المفروك .

وصل الرجلان إلى المقهى واتخذا مكانهما فى الركن الذى تعود أن يجلس فيه « شوشة » ، وفرقا بضع تحيات هنا وهناك ، وكان « شحاتة » قد أصبح شخصية معروفة فى المقهى .

ورآه أحد الجالسين فهمس لصاحبه :

ــ الراجل ده بيشتغل إيه ؟

ــ من بتوع العمائم اللى بيمشوا قدام الجنازات .

ــ يا ساتر يا رب . . اللهم ابعده عنا .

والتقطت أذن « شحاتة » الحادة السمع حديث الرجلين فصاح متهتها :

ــ اطمن . . أنا بمشيش فى جنازات الهلافيت أبدا .

وعبس الرجل ، ولكن رواد القهوة اندفعوا فى الضحك .

ووجه شحاتة القول إلى شوشة متسائلا :

ــ فيك من عشره طاوله ؟

ــ أوى .

ــ بس خلى بالك . أنا ناوى أضحضحك ، أنا النهارده فايق لك قوى .

ــ أدها وأدود . . تطلب إيه ؟

ــ هات لنا قهوه وتصميره .

وصفق شوشة بيديه فاقبل الساقي واعطاه الأوامر بالطلبات فصاح منادبا بها بطريقته الفنائية ، وكان شحاتة يتلفت حوله فاحصا وجوه الموجودين كأنه يبحث عن شخص معين واخيرا أمسك بذراع صاحبه وسأله في لهفة :

ـــ اسمع .. مش ده صاحبك ؟

ـــ صاحبي مين ؟

ـــ صاحبك الدباح .

ـــ قصدك شرف الدين ؟

ـــ أيوه .

والتفت شوشة الى الناحية التي يشير إليها شحاتة فوجد شرف الدين جالسا على مقعده ، واضعا ساقا على ساق ممسكا بيده « فردة شارب » يزيده برما وبالأخرى مبسم الشيشة فقال شوشة :

ـــ أهو هوه .

ثم استدرك قائلا :

ـــ لكن مش صاحبي ولا حاجه .

وضحك شحاتة قائلا بخبث :

ـــ طيب ومالك بتتبرى منه كده ليه ؟ هو سره ... يا سيدي ياريت يكون صاحبي انا .

ثم رفع يديه إلى السماء داعيا :

ـــ اللهم اجعلنا من بركاتك يا سيدي شرف الدين يا دباح .. نظره يا سيدي شرف نظره .

والتفت إلى شوشة مردفا :

ـــ أنا أصلي ما قدرش حد في الدنيا قد الجماعه دول . كفايه انه من ريحة عزيزه نوفل ، دا زي سيدنا رضوان .. في ايده مفاتيح الجنه .. هو يقدم لنا حوريات الارض .. ورضوان يقدم لنا حوريات السماء ، واحد بياخد أجره منا والتاني أجره على الله .

واطرق شوشة برهة برأسه قبل ان يجيب قائلا :

ــ يا عم حد الله بيني وبينهم .. انا كافي نفسي شرهم .. أنا أكبر دعوه بدعيها في صلاتي « اللهم اكفني شر رغبات نفسي » . هوا فيه حاجه بتذل الإنسان وتستعبده اد رغباته ، رغبته في النسا بتذله وبتخليه يجري وراهم ويسترضيهم . ورغبته في المال بتذله لجمعه والحرص عليه ، ورغبته في الاكل بتذله لبطنه . هوا فيه درع يعين الانسان على الحياة .. قد الزهد .. هو فيه اقوى في الحياة من انسان غلب رغباته وقتل مطالب جسده .. ده يبقى الإنسان الحر اللى يقدر يدوس على الحياة بجزمته ...

ــ وليه ده كله يا سي شوشه ؟ تدوس الحياه بجزمتك ليه ؟ هي عملت فيك حاجه ؟ وهوا لما تبقى مالكش ولا رغبه وتزهد في كل حاجه .. تعيش ليه . وإيه فايدة انك تبقى حر إذا كنت ماتناش عايز حاجه .. ما تسيب الدنيا أحسن .. الدنيا ما فيهاش حاجه تستاهل العيشه غير شوية الرغبات اللى انت عايز تزهد فيها .. ما فيهاش غير ساعة حظ .. فإذا كنت ماتناش عايز ساعة الحظ .. يبقى موتك احسن .

وضحك شوشة وقال :

ــ ماهو اصل الواحد ما يلاقيهاش بالساهل .. بيدوخ لغاية ما يطولها يا سي شحاتة .

ــ ماهي دي لذتها .. هي دي الدنيا .. إنك تجرى ورا حاجه عايزها .. يوم ما يكونش لك حاجه تعوزها ، وتجري وراها .. يعني مت .. لما تلقى كل حاجه جاهزه قدامك .. بعد مدة بسيطة الواحد حايزها .. هوا فيه حاجه بتزها الواحد من مراته غير انها قدامه يلاقيها وقت ماهو عايز .. لكن لو كان بينطلها من شبابيك وبيترتع علقه ، ويتدشدش قبل ما يطولها .. ما كانش زهق منها ابدا .. على العموم

سيبك من ده كله .. خلينا في المفيد .. قول لي .. الجدع الدباح ده .. الواحد يتعرف بيه ازاي ؟

ــ ولا حاجه .. قوم كده خده بالحضن .

ــ انا باتكلم جد .. ايه الطريقه اللي تعرفنا بيه ؟

ــ ولا حاجه اصبر عليه هوا حايجيلك لحد عندك .. اصل له بصيره نافذه ، نظرته ما تتغشش الارض .. يشمشم زي الكلاب .. دلوقت يعرف انك انت صيده ويجيلك لغاية هنا .. هوا المره اللي فاتت لو كان لقي فيك الرمق كان عتقك .. لكن اصله لقك وقبع خالص .

ــ والمره دي .. فيه امل ؟

ــ قوي .. فيك الرمق خالص .. يالله نبتدي .

وفتح شوشة الطاولة ، وبدأ في رص الحجارة . ثم رمى بالزهر :

ــ شيش جوهار .. العب .

ولكن شحاتة لم يلعب .. فقال له :

ــ ما تلعب .. مستني إيه .. الزهر قدامك .

ولكن « شحاتة » لم يمد يده إلى الزهر ، ورفع « شوشة » بصره ليرى ما أصاب صاحبه ، فوجده فاغرا فاه ، محملقا بعينيه في الرصيف الآخر .. ولم يلبث حتى انطلقت منه صيحة مدوية قال فيها .

ــ يا حلو ..

ثم رفع عقيرته بالغناء منشدا :

ــ « ما كانش كده طبعك يا غزال .. والنبي أنا مقدر على دي الحال » .. أنا قتيل الهوى .. أنا صريع الغرام .. « ياللي جرحت القلب داويه .. غيرك أنا معرفش طبيب » ، « كادني الهوى وصبحت عليل .. زي النسيم في روض الحسن » أموت في العسل النحل .. أموت في الشهد المروق .. يا خلق يا هوه .

وصاح به « شوشة » زاجرا ، محاولا ردعه عن إحداثه تلك الضجة :

ـــ يا جدع الحب ما تفرجش علينا الناس .

ـــ الحب .. الحب والقمر سايب سماه ، وبيتمشى على الرصيف اللى قدامى .. ليه ؟ ما عنديش نظر .. انطسيت فى عنيه ؟

ثم اندفع ثانية فى غزله الصاخب صائحا منشدا :

ـــ « بشراك يا قلبى آدى اللى كنت به موعود

زارك حبيبك وطلب انسك على موعود »

يا ميت حلاوه .. يا ميت فل .. يا ميت مسا .. يا سيدى بنمسى !

وهكذا ظل سيل الغزل يندفع من فمه بلا توقف ، حتى اختفت « عزيزة نوفل » عن ناظره ، وعاد إلى وعيه فأمسك بالزهر وقذف به فى نشوة معتذرا لشوشة بقوله :

ـــ ما تآخذنيش يا معلم .. انا اصلى ما ببقاش فى وعيى ، بتوه .. انا بابقى فى عالم تانى .. انا عارف ان ده عيبه ومايصحش .. لكن ما بقدرش .. اعذرنى .. اوعى تزعل منى يا معلم شوشه .

ـــ معلهش .. حصل خير .. الحب .

ـــ جوهار يك .. حلوه دى .. أهو انا حابسك فى خانة اليك .. ومش سايبك .. ولو بالطبل البلدى ، دى اصلها لعبة حريفه .. ولا اتفن شنب يعرف يلعبها .. دى أصلها ...

ولكن قطع عليه استرساله فى الحديث صوت أجش صاح من ورائه بقوله :

ـــ سلامو عليكم .

وتلفت « شحاتة » ليرى صاحب التحية .. فإذا به « شرف الدين » فتهللت أساريره وهتف مرحبا :

ـــ اهلا وسهلا .. عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. اتفضل يا معلم دباح .. يا الف مرحب .. هات لك كرسى واقعد .. احنا حانخلص بسرعة .. انا حاديهوله مارس واخلص ، شايف قافشه فى خانة اليك

ازاى ، تانشه بكلبش ! اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا .. انستنا يا معلم .. شرفتنا .

ـــ الله يشرف مقدارك .

ـــ ازيك كده ؟

ـــ الله يحفظك .

وجذب شرف الدين كرسيا وجلس يرقب اللاعبين وهما يتبادلان الزهر ، واخيرا انتهى اللعب واغلق شحاتة الطاولة وهو يقول :

ـــ اظن كفايه كده ؟ ازاى الحال يا معلم شرف ؟

ـــ رضا .. الحمد لله .

ولا شك ان المعلم « شوشة » قد احس حرجا من جلوس صاحبنا الدباح بجواره ، فقد بدات الاعين ترمقهم خلسة ، وبدا له انه قد يؤخذ بتهمة هو منها براء ، فاخذ يتململ فى مجلسه ثم ما لبث ان نهض قائلا :

ـــ عن اذنكم يا جماعه .. لحظه واحده .. اما اقول للمعلم خشت على موضوع كنت عايزه منه .

واجاب الاثنان فى نفس واحد :

ـــ اتفضل .

فلقد كان كلاهما يحس نفس الحرج الذى احسه المعلم شوشة ، ولم يكن يعرف احدهما كيف يفتح الموضوع الذى يدور براس كل منهما .. ولكنه لم يكد ينصرف ويخلو كل منهما إلى الآخر حتى كشف كل منهما قناع الحياء عن وجهه :

قال شرف وهو يفرك يديه ويتنحنح :

ـــ عندنا حاجات طيبه اوى يا سيدنا لفندى .. عندنا ولاد ناس طيبين .

ـــ ناس طيبين إيه يا سى شرف ؟ . احنا حانخطب .. انا محبش الناس الطيبين ابدا .. مره اتجوزت بنت ناس طيبين .. كانت زى

نوع التلج .. صدمت نفسى عن الدنيا .. لا يا عم .. حد الله بينى وبين الناس الطيبين .

ـــ طيب بلاش الناس الطيبين .. أنا عندي جماعه يعجبوك توى .

ـــ فين ؟

ـــ في درب كبيبه .

ـــ عارفهم .. مش اد كده .

ـــ طيب فيه جماعه على كيفك فى عطفة سمليح .

ـــ برضك عارفهم .

ـــ طيب الجماعه اللى فى حارة المهلبيه ؟

ـــ مش فى بيت شياره ؟ عارفها .

ـــ طيب وإيه اللى مخليك قاعد هنا ؟ .. ماتقوم تشتغل معايا ...

وضحك « شحاتة » وقال :

ـــ بقى اسمع يا سى شرف .. خلينا نتكلم دغرى من غير لف .. أنا بالعربى .. عايز اللى فاتت دلوقت من هنا .

وهز شرف رأسه هزات بطيئة وقال فى تمعن :

ـــ قصدك .. عزيزه نوفل ؟ .

ـــ أيوه .. هى مافيش غيرها .

ـــ دى غاليه عليك .

ـــ يعنى بكام ؟

ـــ خمسين قرش .

ـــ خمسين قرش ؟ ! فى الليله ؟

ـــ لا مؤبد .. مش قولتلك شيل على قدك .

ـــ خمسين قرش حته واحده !! يعنى ليله .. بخمس أموات .

ـــ خمس إيه ؟

ـــ ده حساب ما تعرفوش .. حساب بينى وبين نفسى (وخفض صوته قليلا كأنما يحدث نفسه) .. خمسين قرش يعوز لهم خمس

جنازات لا وشك ولا شهرك . يعني الواحد عشان يتنعنش ليله .. لازم ينكد على خمس عيلات .. الحكايه عايزه شوية همه من عزرائيل .. لازم يشد حيله شويه معانا .. ويقصف لنا خمس ست سبع أعمار .. عشان خاطر « ست عزيزة » .. على العموم هي تستاهل .. أنا نفسي مستعد أموت في دباديب رجليها (ثم رفع صوته موجها الكلام إلى شرف) خمسين قرش ، خمسين قرش .

ـــ مافيش ناقص مليم .

ـــ ما تهزها شويه .. أعمل لنا اكرام شويه .

ـــ الاسعار محدده .

ـــ طيب خلاص انتهينا .. معادنا امتى ؟

ـــ الليله الجايه .

ـــ حانتقابل فين ؟

ـــ هنا في المغربية .. حاستناك لغاية ما تيجي وبعدين آخدك وتروح على البيت .

ـــ أوعى تتأخر .

ـــ اتأخر ازاى ؟ من خامسه حاكون مستنيك ، استبينا ؟

ـــ استبينا .

ـــ ايدك ع العربون .

ـــ عربون إيه ؟ بكره يحلها الحلال وأديلك المبلغ كله .

ـــ إيدك ع العربون .

ومد « شحاتة » يده فاخرج كيس نقوده ثم أخرج منه قطعة بعشرة قروش وقال :

ـــ خد آدي بريزه .

ـــ مش كفايه .

ـــ ما معييش غيرها اللي حيلتي .. خدها واحمد ربنا .

وأخذ شرف القطعة الفضية ووضعها في جيبه وفي تلك اللحظة أقبل « شوشة » ، فنهض الرجل مودعاً وانصرف .

وجلس الرجلان يتحدثان برهة ، ثم ما لبثا حتى نهضا عائدين إلى البيت .

وصلا إلى البيت وتناولا العشاء ، وجلس « شحاتة » يتسامر برهة مع « سيد » ، ثم قام كل منهم إلى مضجعه .

وعندما جلس « شوشة » على فراشه يرنو ببصره من خلال النافذة إلى النجوم المتلألئة في رقعة السماء السوداء سمع طرقاً خفيفاً على الباب ، وأبصر « شحاتة » يدلف من الباب سارياً كالشبح ولمح في يده نايه الذي أعداه لسيد .

وجلس « شحاتة » على طرف الفراش بجوار « شوشة » وبعد لحظة صمت قال في صوت خافت :

ـــ عايز أقول لك كلمتين يا معلم .. تسمح بيهم ؟

ـــ اتفضل يا شحاته أفندي .

ـــ أنا خايف أكون زعلتك النهارده ، وخايف أكون نزلت من عينك ، أنا كنت باعمل اللي أنا عايزه ماكنش بيهمني .. كنت بغلط وماحسش انى غلطان لأني ما كنتش بشوف الصح .. ما كانش عندى مستوى مقارنه .. كنت فاكر انى بعمل الشيء الطبيعي ، لكن لما شفتك حسيت ان فيه حاجه اسمها الصح .. وحسيت ان اللي بعمله مش صح . لكن اعمل إيه .. بعد ستين سته عمر ، مقدرش أغير نفسي في يوم وليله .. وماتفتكرش ان أنا حاعرف اغير نفسي .. وحتى متهيألى ان لازم يبقى فيه في الدنيا ناس زيي .. عشان اللي زيك يبان .. مش المثل قال « وبضدها تتميز الأشياء » لازم يكون فيه خطايا عشان يكون فيه غفران ، ولازم يكون فيه غلط عشان يكون فيه صح ، ولازم يكون فيه وحش عشان يكون فيه حلو .. وإلا لو كانت كل حاجه كويسه وحلوه وصح ، كانت الدنيا تبقى مايعه ، مالهاش طعم ولا كان حد عرف الكواسه

والحلاوة والصبح ، أعذرني يا معلم « شوشة » واغفر لي ذنوبي ، ان لولا سواد ذنوبي ماكانش بان بياض طهرك .

ومد شوشة يده وربت على كتف شحاتة قائلا في رفق :

ــ انته راجل أمير . . كل واحد له ذنوبه ، وهوا مين اللي مالوش ذنوب . . الكمال لله وحده . . المهم انك متئذيش حد قد ما تقدر . . ربنا يهدينا كلنا ويفوت عمرنا التصير على خير .

ــ كتر خيرك يا معلم . . ربنا يريح قلبك زي ما ريحت قلبي . . تحب أصفر لك ع الناي شويه ؟

ــ أيوه ، سمعنا .

ووضع « شحاتة » طرف الناي بين شفتيه ، وبدأ الصفير ، وعلا اللحن خفيضا كالهمس ، ثم بدأ يعلو طويلا حزينا يسري في سكون الليل كأنه البكاء والأنين ، واستمر الرجل يعزف حتى أحس بيد « شوشة » توضع على كتفه ، وسمع صوته المختنق المتحشرج يهمس به :

ــ كفايه . . كفايه كده يا عم شحاته .

ورفع بصره إليه فلمح الدمعتين تتلألآن في مقلتيه ، ثم تجريان على خديه .

في هذه المرة لم يقو الرجل على اعادتهما إلى منابعهما ، لقد كان اللحن أقوى من إرادته .

وأشار « شوشة » إلى صدره ، واضعا يده على موضع القلب وعاد يهمس :

ــ المصيبة هنا ، المصيبه في الاحساس اللي ما يخمدشي أبدا . . تصبح على خير يا شحاته افندي .

ــ وانت من أهله يا معلم شوشه .

وعاد « شحاتة » إلى مضجعه فوق الصحاره وساد السكون الدار ، واغرق كل في فيض أحلامه .

استيقظ « شحاتة » كعادته ، وكانت الشمس قد نفذت من النوافذ

فافترشت أرض الدار ، وكان « شوشة » وابنه قد ذهب كل إلى شأنه ، و « أم آمنة » جلست في الفناء متشاغلة بعجن بعض النخالة واعدادها للأوزتين .

وارتدى الرجل جاكتته وحذاءه وطربوشه ، وتناول صرته التي حوت حلة الشغل ، وودع « أم آمنه » وغادر الدار . وعندما تجاوز درب القط ودلف يساره في درب عجور .. لم يكد يسير بضع خطوات حتى تمهل أمام جزارة « الخشت » وترددت خطواته برهة ، وهو يتأمل الدواب المعلقة من سيقانها ، والتي تقطر الدماء من أعناقها ، وتتناثر الأختام الحمراء على لحمها الابيض ، ثم بدا كمن حزم أمره ، ونوى شيئا خطيرا ، وتقدم إلى الدكان بخطوات ثابتة ، غير هيابة .. وكان « الخشت » قد وقف بجلبابه الأبيض الملوث بالدماء .. وجسده السمين المربرب ، وطاقيته الشبيكة .. وقد أخذ يهوى بالشاطور على « الأرمة » مهشما إحدى العظام .

وكان التعارف قد حدث بين الرجلين في المقهى فتقدم « شحاتة » إلى الرجل وصاح به محييا :

ــ صباح الخير يا معلم خشت .

ــ صباح النور .. اهلا وسهلا .

ــ وحياة ابوك انا عايز رطل من بيت الكلاوى بتلو .

ــ عنيه الاتنين .

ووضع الرجل الشاطور جانبا .. ثم تناول من أحد الخطاطيف قطعة كبيرة من اللحم قائلا :

ــ انا حاديلك حته من الفخده على كفيك .. بيت الكلاوى ما تنفعكش .. كلها عضم .

ــ زى بعضه يا معلم .. كله كويس .

وانتهى « الخشت » من الميزان بعد أن وضع في كفته قطعة كبيرة من الورق الأصفر واغرقها بالمياه لكى يثقل وزنها ، وعندما انتهى من لف

اللحم اقترب منه « شحاتة » ، وقال بصوت خفيض ، وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ أنا عايزك توضب لي بقى شوية مخاصي على شوية مواسير على حتة كلوه .. توضيبه من إياها دي ؟

وضحك « المعلم خشت » وصفق بيديه طربا ، وقال في حماس كأنما هو الذي سيفيد من التوضيبة :

ـ سيبني أنت بقى خليني أعمل لك التوضيبه على كيفي .. أنا حاخليك تدعي لي .. حارجعك عشرين سنه لورا ، وحاقول لك كمان على وصفه ماتقولهاش لعدوك .. حاجه مجربه .. ماتخيبش أبدا .

وأخذ الرجل يقطع من هنا خصية ، ومن هنا كلوه وجمع بعض العظام المليئة بالنخاع وقطعة من ذيل الخروف ثم لف كل ذلك في ورقة واعطاها « لشحاتة » قائلا :

ـ شوف بقى يا عم ، تاخد الحاجات دي وتحطهم في حله وتقليهم لما يسلي دهنهم من غير ما تزود الميه . لغاية الشوربه ما تبقى مش شوربه .. تبقى عصيده .. حاجه كده مش سايطه ، وتكون محضر شوية تحابيش تاخدهم معاها يخلوك بمب .

ـ كتر خيرك يا معلم .. ماأعدمكش أبدا .

وامسك « شحاتة » باللفافتين وبدا عليه التردد ، ثم قال في شيء من الخجل :

ـ الفلوس حاديهملك وأنا راجع من الشغل .. ممكن ؟

ـ ممكن أوى .. يا سلام يا شحاته افندي .. بلاش فلوس خالص .. داحنا جيران .

ـ الله يخليك .. السلام عليكم .

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وعاد « شحاتة » إلى الدار ثانية ، وفوجئت « أم آمنة » بسماع وقع اقدامه فتساءلت في قلق :

ـــ إيه اللى رجعك يا شحاته افندي .. كفى الله الشر .. نسيت حاجه ؟

ـــ لا مافيش حاجه .. انا بس جايب رطل لحمه تطبخيه لنا على الغدا .

ـــ ولزومه إيه التعب ده .. شوشه ماهو مدينى الفلوس ، وبيجيب معاه الحاجه ، وهو راجع .

ـــ معلهش ده حاجه بسيطه يمكن تحبى تعملى شوية خضار والا حاجه .

ـــ كتر خيرك .. دايما تاعب نفسك كده .

ـــ مافيش تعب ولا حاجه .. خدى .

ثم ناولها اللفافة الاولى واعقبها باللفافة الثانية قائلا :

ـــ دى اللحمه ، ودى شوية مواسير على شوية تقاتيش عايزك تسلقيهم لى لان عندى روماتزم فى ضهرى وواحد وصف لى الوصفه دى عشان تصلب ضهرى .. بس عايزها تغلى قوى وما تزوديهاش ميه .. يعنى يدوبك تطلعى منهم فنجان شوربه .

ولم تعلق « أم آمنة » على الوصفة التى اكدها « شحاتة » بل ركزت كل أهتمامها فى مسألة ظهره الموجوع فصاحت فى فزع :

ـــ ضهرك بيوجعك ؟ سلامتك .. الف بعد الشر عنك .. لازم استهويت .. تلاقيك نمت والشباك مفتوح . الليله دى لازم تقفله وتحبش على القزاز المكسور بحتة ورق ، واحسن طريقه تضيع البرد ، ان اعمل لك كام قدره تشد الهواء اللى فيك .. انا حابعت « لزكيه » ..

ووجد « شحاتة » أن « أم آمنة » قد ابتعدت جدا عن الموضوع الأصلى .. فلم يجد بدا من مقاطعتها لاعادتها إليه فقال :

ـــ لا .. لا .. مافيش لزوم .. الحكايه بسيطه قوى . بس اسلقى لى شوية العضم دول هم يطيبونى .. انا واخد على الحكايه دى من زمان .

ولكن « أم آمنة » قالت محتجة :

ـــ عضم إيه يا شحاته أفندي دا اللي يخففك ؟

ـــ بس اعمليهم انت ومالكيش دعوه .

ـــ حاضر يا خويه . . ان شاء الله تيجي تلاقيهم جاهزين على الغدا .

ـــ كتر خيرك .

وعندما اطمأن « شحاتة افندي » على مصير المخلص والكلاوى ، واقنع أم آمنة بعدم ضرورة القدرة . . تناول صرته وغادر الدار مستحثا الخطا إلى « قهوة لفنديه » .

ووصل إلى المقهى فوجد النشاط على اشده و « الافندية » رائحين غادين بين حانوت الحاج سرور والمقهى فأدرك ان هناك « جنازة حارة » ، وانه قد تأخر عن الوصول فقد صاح به المعلم سرور عندما وقع عليه بصره :

ـــ ما تمد شويه يا سي شحاته ، والا خلاص بقيت مستغنى ؟

ـــ مستغنى ازاى بقى . . دا انا مش فى عرض جنازه واحده . . انا تتيل خمس جنازات . . معتور فيهم قوى . . الحتيته تستاهل .

ـــ إيه هى اللى تستاهل دى ؟

ـــ مره زى اللوز .

ـــ طب مد . . آدى اللى انت فالح فيه . . تتلك غرقان فى النسوان لغاية ما يجيبوا أجلك . . ان شاء الله حاتموت تتيل مره ، وبكره افكرك .

ـــ وأنا فى ديك الساعه لما أموت قتيل الهوى ؟ ياريت .

وأسرع « شحاتة » فنزع جلبابه ثم ارتدى حلته ولف اللوطة الحمراء حول وسطه وتناول المجمرة التى تعود ان يحملها وصاح ببقية الزملاء :

ـــ ايه يا جماعه . . ماتيالله بينا . . هى الجنازه فين ؟

وردّ الحاج سرور :

ــ حاتقوم من مصر عتيقه للمجاورين .

ــ يا نهار أبوه أسود .. يعني مالقاش ترافه اقرب من كده؟ هي قرب الامام مالها ؟ وحشه ؟

ــ اللي حصل يا سي شحاته .. مدافنه ومدافن أهله في المجاورين .

ــ ولما هوا عارف انه حايدفن في المجاورين بيسكن في مصر عتيقه ليه ؟ . ما يسكنش في الدراسه والا في الحسين والا حتى في الكحكيين والا درب الأحمر والا الجماليه .. ضاقت به الدنيا عشان يعيش في مصر عتيقه ويموت في المجاورين ؟

وكان ترام (نمره ٥) قد اقبل فصاح الحاج سرور في عجلة :

ــ طب يالله يالله .. يالله يا جماعه عشان نلحق .. الساعه تسعه دلوقت ولازم نكون هناك عشره .

وهرول الأفنديه بمجامرهم ومناقدهم والموسيقيون بمزاميرهم وطبولهم فاحتلوا عربة الترام وقد تعالت صيحاتهم ونكاتهم كأنهم العوالم ذاهبات إلى زفة عروس .

وجلس شحاتة على مقعد الترام ، وكانت جلسته بجوار « الشيخ سيد الخولي » ، ولا شك انها كانت جلسة مقصودة ، فقد أخذ شحاتة يكثر من التحيات العاطرة على « الشيخ سيد » ، والشيخ يتلقاها ببرود ، فلا يسمع لها في نفسه رنينا كأنها النقود الزائفة ، والواقع ان «الشيخ سيد » كان لا يسمع في نفسه رنينا لأي شيء ، فقد كان من نوع ناعس الطرف مسبل العينين ، كأنه رائح ابدا في سبات عميق ، وكانت ثمة طبقة سميكة من اللاشعورية قمينة بأن تصد عن باطنه كل أنواع المؤثرات الخارجية فلا تثير في نفسه أية مشاعر لا بالفرح ولا بالحزن ولا بالغضب .. كان الرجل يجلس ويتحرك ويتكلم كأنه في غيبوبة .

وعندما أنتهى شحاتة من سيل التحيات التى اغدقها على « الشيخ سيد » التالته .. مال عليه بجسده وهمس في أذنه :

ــ ما معكش حته يا شيخ سيد ؟

ويبدو كأن هذا هو السؤال الوحيد الذي استطاع النفاذ إلى وعى « الشيخ سيد » واختراق نطاق الجمود الذي حصن به نفسه فقد ارتجفت جفنا الرجل ، ثم قال دون أن يوجه بصره إلى محدثه فكأنما يجيب نفسه :

— هو انت ما تفرغلكش طلبات ؟ .. انت مش لسه واخد حته اول امبارح ؟

— أصلى معذور فيها أوى النهارده .

وتمتم « الشيخ سيد » ببعض كلمات الاستياء ، ثم مد يده فدفعها فى صدره من خلال البدلة والقميص وأخرج من جيب الصديرى المخطط لفافة قذرة أخذ فى فتحها ببطء وتؤدة وأخرج منها قطعة صلبة فى حجم البندقة وفى لون الشيكولاتة الباهتة ثم قسمها بأصابعه مستعملا ظفر ابهامه .. وكان القسمان متساويين تقريبا فامسك بأحدهما وحاول تجزئته فعجز عن ذلك بأصابعه فرفع القطعة إلى أسنانه .

وصاح شحاتة فى ضيق وغيظ مكتوم :

— متجيبها يا أخى ، حاتكسر فيها إيه ؟ هى مستحمله كسر .

— يا باى على عينك الفارغه .. خد .. حلو ونار فى جتتك .

ثم دفع إليه بالقطعة ، فتناولها شحاتة ووضعها فى جيب صديريه ، وعندما اطمأن إلى استقرار القطعة فى جيبه تهللت أساريره ، ثم عاود سيل التحيات يغرق به الشيخ سيد ، فلما انتهت الدفعة الثانية من التحيات عاد يميل بجسده مرة أخرى وهمس بنفس الطريقة الأولى :

— الاقيش معاك ملوه ؟

وكان تيقظ الشيخ سيد فى هذه المرة على أشده ، فقد رفع حاجبيه فى دهش وفتح عينيه بأقصى ما تستطيع عضلات جفنيه ثم زوى ما بين حاجبيه وهتف متسائلا :

— انت إيه حكايتك ؟ .. انت رايح جنازه .. والا رايح فرح ؟ .. عندك مزومه والا إيه ؟ .

— أنا .. عندى سهره بيلتى .

ـــ مع مين ؟ .

ـــ مع مين ؟ .. مع قالب زبده .. مع طبق قشطه .. مع صباع موز .. مع صنية كنافه بالفزدق .. مع ...

ـــ طب بس بس .. انسد .. ما انت اصلك دني ورمرام .. خد .. ادي اللحسه اهي .

ويمد يده مرة اخرى في جيب صديريه فاخرج علبة صفيح صغيرة مستديرة اشبه بعلبة النشوق ثم اخرج علبة كبريت جذب منها عوداً وفتح العلبة الصفيح فإذا بها مادة سوداء اشبه بمرهم الاكتيول وهم بوضع عود الكبريت داخلها ليرفع بطرفه بعض ما بها ولكن شحاتة اوقفه بقوله :

ـــ ايه اللى حاتمله ده ؟

ونظر إليه الشيخ سيد ـــ أو مخزن المخدرات المتحرك ـــ بطرف عينيه شزرا وقال في برود :

ـــ مش عايز ملوه ؟ .

ـــ هي كل اللى في العلبه ما تجيش ملوه .. هات يا شيخ بلا قربطه .. انت مالك اليومين دول حاتموت ع الدنيا .. هات يا شيخ العلبه هات .. بلاش شغل لحوسه .

وكان الشيخ سيد أكسل من ان يدخل معه في مناقشة ، وكان يفضل خسارة العلبة على مشقة الرفض فدفع إليه بالعلبة في ملل وعاد إلى غيبوبته .

ووضع شحاتة العلبة بجوار القص في جيبه ، وبدت عليه علائم الارتياح وهمس لنفسه :

ـــ ما فاضلش غير الزبيب ؟ .

وكان الترام قد وصل إلى « عمر شاه » وبدأ في عبور ميدان السيدة متجها إلى المدبح ، وعندما وصل إلى أبو الريش صاح الحاج سرور :

ـ ياالله يا جماعه .. احنا حاتنزل هنا وبعدين نخرم من عند سيدى العليبي نبقى أدام بيت المرحوم .

وأجاب « شحاتة » معلقا :

ـ مرحوم ؟ . هوا دا حايشوف الرحمه بعينه بعد ما يخبطنا المشوار من مصر عتيقه للمجاورين .

وارتجف الشيخ سيد ثم قال معلقا وهو ما زال فى غيبوبته :

ـ وهو حايخس عليه إيه ؟ مش نايم مستريح فى الخشبه لو كان الواحد منهم يروح التربه ماشى على رجليه .. كان سكن جنب القرافة .. لكن الحق مش عليهم .. الحق على اللى يشيلهم .

وهبط الجميع من الترام ، وساروا فى زرافاتهم المتهالكة المتحاملة مخترقة شارع العليبى متجهة إلى فم الخليج .

وطال بهم السير ولما يبد للجنازة بوادر بشائر ، وصاح شحاتة فى ضيق :

ـ أمال بسلامته فين ؟ . مش باين له اثر .

وأجاب الحاج سرور :

ـ أهو قرب .

ـ مابانيش . اللى ماحد منا سمع صوات ، هو ميت وحدانى ؟

ـ وحدانى ازاى ! . دا راجل صاحب عيله وله مركز ، ده متريش اوى .

ـ يعنى حايدفعوا فيه كويس ؟

ـ طبعا .

ـ أهو دا المهم ، دى جنازته باربع جنازات ، على العموم الله يرحمه ما دام حاينفعنا .

ووصل الموكب إلى فم الخليج ، وتوقف الحاج سرور برهة يلتفت يمنة ويسرة وصاح أحدهم :

ـ هو اسم الشارع إيه ؟ .

ـ اظن شارع اللموناته .

ـ طب ما نسأل .

وتقدم الحاج سرور من امراة تبيع الفول النابت جالسة اسفل شجرة وسألها :

ـ تعرفيش يا خاله شارع اللموناته فين ؟ .

ـ شارع إيه ؟

ـ اللموناته .

ـ مافيش هنا شارع بالاسم ده .

وهم سرور بالانصراف وتحرك الجميع في أعقابه ، ولكن المرأة استرجعته متسائلة :

ـ مافيش هنا غير شارع السكر والليمون .

وهتف سرور صائحا في فرحة :

ـ اهو هو .. هو السكر والليمون .

ـ وهو شارع السكر والليمون يبقى شارع اللموناته ؟

ـ امال يبقى إيه .. شارع الزيت الخروع .. هو السكر والليمون حايبقى إيه غير الليموناته ؟

وحث الموكب الخطا إلى شارع السكر والليمون ولم يكد يقترب من الشارع حتى وصلت إلى مسامعهم بوادر الصراخ والعويل .

وصاح « سرور » في فرح :

ـ اهو هوا ده مافيش غيره .. يالله يا جماعه نظموا نفسكم ، اسمع ياريس « عبيد » .. خد المزيكه وخليك قدام باب البيت عشان تبقى جنب الخشبه .. وانتم اترصوا على الرصيف .. يالله يا جماعه اعملو لكم همه ووزعوا نفسكم .. مش عايزين ضحك بقى ولا كلام .. خلاص احنا دخلنا ع الشغل .

وبدأ « الشغل » واضحا بسرادقه الذي أوقدهم فيه المشيعون والصراخ المدوي في أرجاء الشارع ، والنعش الفارغ المجهز لحمل

الميت ، والخروف المنتظر أمام باب البيت ، والحانوتي والمغسل والفراشين ، والصخب والضجيج .

وسرعان ما انتظم موكب الأفندية والموسيقيين في مواضعهم ، ولم يكن هناك شك — من طريقة انتظامهم — في أنهم محنكون مدربون .. فقد اتخذ كل منهم موضعه بلا ضجة ولا شوشرة ، وانقلب حالهم من مجون وهذر إلى صمت واطراق ، وغادرت ملامح الفرحة سيماهم ، وعلتها دلائل حزن عميق .. كان الميت قد أصابهم بفجيعة ما بعدها فجيعة .

وهز الحاج « سرور » رأسه وصاح في حزن وأسى :
— دنيا !!

وكان هذا بداية حوار محفوظ يبدؤه « الحاج سرور » بهذه الكلمة ويتم الحوار طقم الأفندية ، وكان المفروض أن يجيب « شحاتة » بقوله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .. ولكن « شحاتة » كان غائب الذهن تماما ، فقد شرد ذهنه في أمور هي أبعد ما تكون عن الموقف الذي هو فيه .

كان السبب المباشر في ابعاد ذهنه هو الخروف فقد نظر إليه نظرة فاحصة ، وأخذ يسائل نفسه : « أترى هذا الخروف مخصيا ؟ لا يظن فهو يبدو هزيلا أعجف ! » .

من يأتي له بالمخاصي ليرسلها إلى « أم آمنة » لتضيفها إلى بقية البهريز ؟ . ترى هل ستستطيع المرأة الضريرة أن تقوم بما طلبه منها ؟ أكثر ما يخشاه أن يفور القدر ويراق البهريز على الأرض .. حقا أنها تصبح كارثة .. كان يجب أن يكون أكثر حيطة وحذرا فيقوم هو نفسه بطهو المخاصي والكلاوي .. ربنا يستر .

وكان « الحاج سرور » قد استغيب رد « شحاتة » فأخذ يحدق فيه شزرا ، ولكن « شحاتة » كان في عالم آخر .. عالم المخاصي فصاح مجيبا على نفسه :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم تبعته بقية الأصوات تنساب من هنا وهناك قائلة :

— يا خفى الألطاف ، الطف بنا مما نخاف .

— لك الأمر .. يا ولى الأمر .

— هيه .. مين كان يصدق !

— رحمتك يارب .

— حد واخد منها حاجه !

وهكذا ظل الافندية يتبادلون الحوار بلهجة ملؤها الحسرة ، و « شحاتة أفندى » ما زال منطلقا في شروده ، وكان قد وصل في تلك اللحظة إلى العطار الذى سيبتاع منه الوصفة . إنه سيحتاج إلى بعض من جوزة الطيب وعود قرح يجب ان يحصل عليهما قبل العودة إلى الدار ، أما الزبيب فيستطيع ان يشككه من الخواجه « مانولى » الخامورجى ، يجب أن يعمل حساب النقد جيدا ، انه يريد أربعين قرشا بقية حساب شرف الدين النصاب بن النصاب .. ويريد خمسة قروش للعطارة وبقية التحابيش .. أما اللحمة فيؤجل دفع ثمنها بضعة أيام ، ان الخشت رجل طيب يستطيع الانتظار ، ويجب ان يكون في جيبه على الاقل خمسة قروش فيكون كل ما يحتاجه خمسين قرشا ليس في جيبه منها مليم واحد ، ولكنه سيحصل على مبلغ طيب من هذه الجنازة ، فالميت يبدو على سعة .

وهنا فقط تذكر الميت ، وساعد على تذكره انطلاق الأصوات على اقصاها وظهور حركة استعداد ، ثم بروز خشبة الميت من الباب ، وطرح الخروف أرضا ، وهبوط القصاب على جسده يحز عنقه ، ويريق دماءه أمام النعش .

واعتدل الأفندية فى أماكنهم وبينهم « شحاتة » ، ثم بدأت الموسيقى تصدح بأنغامها النائمة الحزينة وسارت الجنــازة ، أو كما يسميها

« شحاتة » — المزفة — وبعد بضع خطوات عاد مرة أخرى إلى أفكاره الأصلية نائيا بذهنه تماما عن الجنازة وما فيها .

عزيزة نوفل !! من يصدق أنها ستكون معه بعد بضع ساعات .. أجل ، انه سيذهب للقاء « شرف الدين » الساعة الخامسة ، ويذهب معه في التو ، لن ينتظر معه لحظة واحدة ، فهو في غاية الشوق .. ولكن ماذا إذا لم يحضر الرجل ؟ هنا تكون السكارثة بعد كل هذا المصرف والاستعداد ، وبعد كل هذه المخاصى والسكلاوى والزبيب والمنزول والحشيش وجوزة الطيب وعود القرح .. بعد كل هذا لا يحضر .. حقا إنها تكون مصيبة كبرى .. كان يجب عليه ان يأخذ منه عنوان البيت حتى يذهب هو وحده ان لم يحضر الرجل ، ما أغباه وأقصر نظره ! هب ان الرجل نصاب محتال وانه أخذ نص الريال لنفسه .. ألم يكن يجب عليه من باب الاحتياط أن يأخذ العنوان ، ولكن ما قيمة العنوان ؟ ألم يكن يستطيع الرجل إذا كان في نيته الاحتيال ان يعطيه عنوانا خطأ ، لا ، لا انه يبدو عليه انه رجل جد ، هذه الشوارب المبرومة والمظهر الممتلىء بالشهامة لا يعقل ان يكون محتالا .

وتذكر « شحاتة » كيف بدا له « شرف » أول مرة .. وكيف أخافه بنظره ، فارتسمت على وجهه ضحكة سرعان ما أزالها عندما تذكر انه يسير في جنازة .

ومرة أخرى عاد إلى الجنازة ليجد نفسه يسير مع الموكب في نهاية شارع السد بالقرب من جامع السيدة ويجد الموكب يتوقف للصلاة على الفقيد في الجامع .

ووقف شحاتة بالقرب من الجامع ينتظر خروج النعش .

ما زال أمامه مرحلة كبيرة من السير .. انها جنازة مضاعفة ، انها ستتعبه كثيرا ، بينما هو في أشد الحاجة إلى الراحة حتى يستعد لسهرة الليلة . كان يجب أن يرفض الجنازة ولكن من أين يحصل

على النقود ؟ لعنة الله على هذه الحياة لا شيء يمكن الحصول عليه فيها بسهولة .. كل شيء له ثمن من العرق والجهد .

وخرج النعش من الجامع ، ورمقه شحاتة بنظرة غيظ وهتف به : طبعا ، تستطيع أن تذهب على هذا الحال إلى جرجا ، ماذا يهمك ما دمت محمولا على الأعناق ؟ ماذا عساك ستدفع لنا بعد هذا المشوار ؟ لو دفعت خمسين قرشا فسأدعو لك بالرحمة والغفران .. خمسون قرشا هي أقصى ما أحتاج إليه ، فهي تغطي جميع المصاريف ، ويبقى خمسة للبقشيشة ، لو رأيت « عزيزة نوفل » لما استكثرت عليها المبلغ ولكنك مسكين لن تستطيع أن تراها .. هذا الهم ما في الموت ، أنه سيحرمنا من التمتع بـ « عزيزة نوفل » وأمثالها ، لو رأيت صدرها وهو يترجرج وراء الملاءة ، ولو رأيت ردفيها وهما تتبادلان الصعود والنزول الواحدة بعد الأخرى كأنهما أرجوحة الأوزة لما استكثرت الخمسين قرشا .

وكان الموكب قد وصل إلى القلعة .. والعرق قد أخذ يتصبب من المشيعين والأفندية والموسيقيين .. ومن كل من ضمنهم الجنازة ، كان الجميع قد أعياهم الجهد عدا واحداً هو الميت المستتر في مضجعه مستريحا أربعة وعشرين قيراطا .

وأخرج شحاتة منديلا محلاويا أخذ يجفف به عرقه ، وهو يناجي الميت بقوله ــ مبسوط ؟ ــ ماذا كان عليك لو دفنت في الإمام ! مالها قرافة الإمام ؟ ! أكان لابد وأن تدفن بجوار أهلك في المجاورين .. ماذا تملك ملاق هناك ؟ أتظنك ستراهم وتشبع فيهم عناقا وتقبيلا ؟ !

وعبر النعش القلعة واتجه إلى المجاورين ، وأخذ الطريق يضيق وقربت المسافة بين صفي الأفندية حتى استطاعوا الحديث وأخذوا يتبادلون الشكوى من طول المسافة والسباب في الميت .

ولكن واحدا منهم لم ينبس ببنت شفة ، فقد كان يسير مسبل العينين .. ناعس الطرف .. مغرقا في غيبوبته .. وهو « الشيخ سيد

الحولى » ، أو كما يسميه شحاتة : مخزن المخدرات المتنقل ، او كما يسميه البعض الآخر : « الشيخ سيد كيف » .

كان الرجل يسير صامتا مطرقا غير شاعر بما حوله حتى أحس بالتعب مجأة فوقف في مكانه ورفع حاجبيه في دهش وصاح بمن حوله :

— هو إيه أصله ده ، احنا ما وصلناش لسه ؟

وصاح به شحاتة :

— لسه يا شيخ سيد لسه ، مشى ما تعطلش الجنازه .

— امشى ازاى .. احنا حانوصله لغاية التربه .. والا لغساية السما ؟

وجذبه أحدهم من يده وهو يصيح به :

— معلهش يا شيخ سيد ، المسافه قريبت .

— والله ما مشى ولا خطوه .. هى مقاوله ؟

— مشى ما يصحش ! عيب .

— مافيش حاجه اسمها عيب ، إذا ماكانتش ماجبه ينزل يمشى وانا اقعد مطرحه .. هو إيه ؟ استكراد ؟

ولم يجد الأفندية بدا من أن يدفعوه أمامهم .. فوجد نفسه مضطرا إلى السير مرغما وهو يجر جرا ، فملأ صوته بالشكاية :

— يا جماعه حرام عليكم .. انا رجليه بقيقت ، إيه أصله ده .. هى عاميه ؟

ولكن الجميع استمروا في جذبه بالقوة ، فاضطر إلى الولولة ، وعلا صوته باكيا :

— آى .. ياتا آه ياتا .. آه .. آه .

وسالت دموعه منهمرة من عينيه .

وفوجىء المشيعون وراء النعش بصوت البكاء يعلو من امام النعش ، واضطرب الحاج سرور لأول وهلة ، ولكنه ما لبث حتى هز رأسه فى اسى وقال :

ـــ الله يكون فى عونك يا شيخ سيد .. أصله كان يعرف المرحوم ، كان صاحبه الروح بالروح .

وأخذ الأفندية يحاولون اسكات الشيخ سيد بقولهم :

ـــ شيخ سيد .. كفايه بقى يا شيخ سيد .. عيب ما يصحش . انت راجل .

ولكن « الشيخ سيد » صاح بأعلى صوت :

ـــ انا مش راجل ، بس سيبونى .. على الطلاق بالتلاته ما انا ماشى ، سيب ايدى منه له .

ـــ خلاص ، خلاص ، ادحنا وصلنا ، وهدى نفسك بقى بلاش عياط وفضايح قدام الناس .

وكانت الجنازة فعلا قد وصلت إلى المدفن .. وتمهل الأفندية حتى وقفوا أمام باب خشبى قد فتح على مصراعيه ، وأخذ أحد السقايين يرش أمامه بقربة على ظهره ، وبدا من خلال الباب شاهد قبر قد فتحت أمامه فتحة كبيرة مستطيلة تؤدى إلى السلم الموصل إلى المقبرة فى باطن الأرض وقد رصت بجوارها الحجارة الطويلة التى تغطى الفتحة .

ودلف القوم بالنعش إلى الداخل ، وقد التفت القوم حوله ، وعلا نحيبهم واشتد تأثرهم .. وكان « شحاتة » ينظر إلى الجسد المسجى ، وهو يقول فى نفسه :

ـــ دوختنا الله يدوخك .

وكان الشيخ « سيد » يكفكف دمعه ، وهو يقول :

ـــ لو كنت طولت شويه .. كنت حاخلى نهار أبوك زى بعضه ، ولكن ربنا ستر .

وبينما القوم منهمكون فى انزال الميت إلى داخل القبر ، وقد بلغ تأثرهم أشده ، تسرب من ورائهم بضعة أنفار كأنهم الفيران المذعورة وأخذوا يهرولون ، حتى اتخذوا أماكنهم أمام القبر ، ثم افترشوا الأرض متربعين ، وانطلقت ألسنتهم بقراءة لا تكاد تفهم .

ولم يكد ينتظم عقد المقرئين ، حتى انساب رجل آخر يدفع القوم بمنكبه ومرفقيه ، وأصيب « شحاتة » منه بضربة فصاح به في حنق :

ـــ ما تحاسب . الله يخرب بيتك . مستعجل على إيه ؟ ! هيه نته ؟

وكان منظر المقرئين الخمسة وطريقتهم في القراءة عجبا ، كان كل منهم مخلوقا فريدا في ذاته .. كان اولهم يلبس عمامة بلا شال ، وجبة مترية مرقعة كالحة ، وكان به حول شديد يجعل إحدى عينيه في أقصى المقبرة ، والأخرى في الجانب الآخر .. اما الثاني فقد اكل الجدري وجهه حتى بدا منقرا كالغربال ، وكان يرتدي طربوشا بلا زر ، وجلبابا من الدمور ، وكان حافي القدمين .. أما الثالث فكان اعمى يقوده صبي ، وقد دخل يهرول وإياه وسط المشيعين حتى أجلسه امام القبر .. اما الرابع فهو عجوز مليء وجهه الأسمر بالأخاديد ، وقد امسك في يده عكازا ضخما ، ووضع على رأسه شيئا اشبه بالطرطور .. اما الخامس فكان عبدا أسود .. يشارك الآخرين في القذارة والبهدلة .

اما طريقتهم في القراءة فقد كانت سريعة عجلى اذ كانوا يلهثون وينهجون كأن وراءهم سياطا تتعجلهم ، وكان احدهم يقول الآية ، ثم يصمت ليلتقط أنفاسه فيكملها له الآخر ، وهكذا كانوا يقرءون بالتداول فتتلاحق الكلمات على أصواتهم النشاز .

ونظر « شحاتة » إليهم في غيظ وقال :

ـــ بقى دي قرايه دي .

وأجابه « الحاج سرور » :

ـــ يا اخي اهو كله اكل عيش .

وصدق « شاحتة » على قوله بهزة من رأسه .. أجل .. معه حق ، كله اكل عيش .. لشد ما اختلفت وجهات النظر إلى هذا الميت ، ولشد ما تناقض اعتبار الناس لموته .. رآه البعض كارثة ، ورآه البعض اكل عيش .. كل شيء في هذه الحياة لا قيمة له في حد ذاته ..

ان قيمته في وجهة النظر إليه ، هو من إحدى الوجهات نعمة ، ومن الاخرى نقمة .. هو من ناحية مأساة ، ومن الأخرى فكاهة .

وانتهى انزال الميت ، ورصت الحجارة فوق الفتحة ، واغلقت المقبرة . ونظر القوم بعضهم إلى بعض نظرة اسى وحسرة كأنما قد ودعوا شيئا خالدا .

ونظر الافندية بعضهم إلى بعض وكأنهم يقولون :

ــ لنا عودة .. اما على الأقدام او على الاعناق .

* * *

عاد الافندية إلى مقهاهم ، وكانت الساعة قد بلغت الثانية ، وجلس « الحاج سرور » يحاسبهم .. وعندما جاء دور « شحاتة » اتخذ مجلسه بجوار « الحاج سرور » ، وقد أخذ يفرك يديه ، ووضع على شفتيه أعرض ابتسامة .

وكان « سرور » يعرف ما وراء هذه الحركات من خسائر فمد يده بسرعة واخرج ريالا ووضعه في يد « شحاتة » .. وقال وهو يودعه :

ــ يالله يا عم ورينا عرض اكتافك .

ــ طب بس صبرك شويه يا حاج .. انا اصلى عايز ...

ــ ولا مليم اكتر من كده .. قوم بقى .. واحمد ربك .. ده بتاع خمس جنازات .

ــ ايوه أنا عارف ، بس عايز أقول لك ان انا مزنوق قوى ، وعايز سلفه .

ــ سلفه ؟ .. انت فاكرنى قاعد على بنك ، مش كفايه الفلوس اللى لهفتها .

ــ يا حاج احنا مالناش بركه الا انت .. يعنى لما الواحد يتعذر هايروح لمين غيرك ؟ وانت ابونا وانت امنا !

ولان قلب « الحاج سرور » فقال متصنعا الجد والغضب :

ـــ عايز كام ؟ قول !
ـــ عايز تلاتين قرش .
ـــ عايز إيه ؟
ـــ تلاتين قرش . .
ـــ ياخي جك تلاتين عفريت لما يركبوك .
ـــ الله يحفظك .
ـــ ليه ؟ . تعمل بيهم إيه ؟ . تفتح بهم دكان ؟
ـــ لا . . حافتح بيهم عكا .
ـــ وتسددهم ازاى ؟
ـــ يا أخي ربنا يفرجها بكام جنازه سقع زى بتاعة النهارده ، واحد كده يكون ساكن فى اسكندريه ويندفن فى أسوان . . هوا يعني بعيده على ربنا والا بعيده على الاموات ؟
ـــ اسمع . . باختصار . . انا معييش فلوس . . خد ده وقوم ملتورنيش وشك .
ثم دفع فى يده بقطعة من ذات عشرة القروش ، ولكن « شحاتة » ردها متصنعا الغضب قائلا :
ـــ إيه ده ؟ . . خد يا شيخ . . انا باشحت منكَ ؟
ـــ اسمع آدى كمان نص ريال ، واذا ما كانش عاجبكَ . . انفلق .
ورأى « شحاتة » علامات الجد على وجه « سرور » فأخذ الريال ووضعه فوق الريال الاخر وقال للرجل :
ـــ برضك نشكر . . ربنا يخليك لنا .
ثم غادره وهو يقول لنفسه :
ـــ لسه نص ريالْ . . ناخده من الشيخ سيد . . يمكن ربنا يهديه .
واتجه شحاتة إلى الشيخ سيد واقترب منه قائلا بمنتهى الرقة :
ـــ ازى رجليك يا شيخ سيد ؟
ـــ زفت .

ـــ الله يجازيه .. زى ما دوخنا معاه .

ورفع « الشيخ سيد » يده إلى السماء مستمطرا الرحمات على الميت قائلا :

ـــ الله يسامحه .

واندفع فى ترديد الدعوات ، ولكن « شحاتة » لم يكن لديه وقت لمسايرته إلى النهاية ، فقاطعه قائلا وهو يميل عليه بطريقته المعروفة عند الاقتراض :

ـــ معاكش نص ريال سلف .

ولكن الشيخ سيد ادعى عدم السماع واستمر فى دعواته فصاح شحاتة به :

ـــ شيخ سيد .. معاك نص ريال سلف .

ـــ ابعد عنى يا جدع انت ، مامعييش حاجه أنا ما بسلفش .

ـــ أنا مزنوق قوى يا شيخ سيد .

ـــ مزنوق فى إيه ؟

ـــ فى واحده .

ـــ فى واحده ؟

ـــ افتكرت حاتقوللى فى تسديد دين والا فى اجرة بيت ، والا فى كلام فارغ من اللى بتقوله .. خد آدى النص ريال اهوه .. عشان تعرف ان الصدق منجى .

ـــ كتر خيرك يا شيخ سيد . طول عمرك راجل شهم .

ـــ بس اسمع .. الصدق ده .. ما ينجيش الا مره واحده .. يعنى مره تانيه .. تقول الصدق تقول الكذب ، مش حاديك نكله .. مفهوم ؟

ـــ مفهوم أوى .

وأخذ شحاتة نصف الريال ووضعه مع الاربعين قرشا . وانطلق ن المقهى وهو يشعر بأقصى آيات السعادة .

وفي طريقه إلى البيت مر بحانوت الشيخ عبيد العطار ، ودخل إلى الحانوت وبعد أن أغرق صاحبه بالتحيات اقترب منه وهمس في أذنه قائلا :

— عايز بنص فرنك جوزة الطيب وحتة عود قرح . وشوية تحبيشات على كيفك .. انت سيد العارفين عايز توضيبه زي اللي بتوضبها لنفسك .

وضحك الشيخ عبيد وقال :

— هو احنا بقى بينفع فينا وصفات ؟ . خلاص يا شحاتة افندي خلصنا .

وأخذ الشيخ عبيد يحضر شيئا من هنا وشيئا من هناك ويدق هذا ويسحن ذاك ، ثم عمل لفافتين أعطاهما لشحاتة وهو يقول :

— شوف .. دي تغليها وتشرب ميتها ، ودي تعمل منها بلابيع وتاكلها ، واوعى تقول عليها لعدوك .

وتناول « شحاتة » اللفافتين وهم باخراج النقود ولكن الشيخ عبيد صاح به :

— خلي يا شحاته افندي .. هي دي تيجي .. دي هديه مني .. حاجه بسيطه ما تستاهلش .. بس ابقى تعالى قوللي عملت إيه .

— كتر خيرك .. طول عمرك راجل كريم .. السلام عليكم ..

— وعليكم السلام ورحمة الله .

وحمل « شحاتة » اللفافتين واتجه إلى البيت محملا بكل أدوات القتال التي سيخوض بها معركة الليل .

الفصل التاسع

قتيـــل الهـــوى

وصل « شحاتة » إلى البيت .. فوجد « أم آمنة » في مجلسها ، ولم يكن « شوشة » و « سيد » قد وصلا إلى الدار بعد .. ولم تكد العجوز الضريرة تسمع وقع اقدامه حتى صاحت :

ـــ ازاي ضهرك يا شحاته افندي ؟

ـــ ضهري .. ماله ضهري ؟

ـــ يوه .. ياخويه مش بتقول انه بيوجعك ، وطلبت مني أسلق شوية الحاجات اللي انت جايبهم عشان يصلبوه .

ـــ ايوالله .. أصل الشغل بينسى الواحد كل حاجه . حتى العيا ، والله لسه برضك بيتقح على .

ـــ طب يا خويه ما تخش تستريح لك شويه ، والله ما كان حقك تخرجت النهارده خالص .. العيا يحب الراحة .

ـــ لكن اللقمه تحب التعب .

ـــ الله يكون في عونك .. أنا عملت لك الحاجه اللي انت عايزها ، وزكيه جابت لي شويه بهارات وساعدتني في الطبيخ .. الهي يمدلها لك يا بنتي يا زكيه .

ـــ هيه فين الشوربه ؟

— محطوطه فى السلطنيه جوا المطبخ .. حاتاكل دلوقت والا تستناهم ؟

— انا حاشرب الشوربه واخش اتمدد .. اصلى تعبان شويه ...

— طيب اما اقوم احضرها لك .

— ولا تقومى ولا تتعبى نفسك .. خليكى زى ما انت . انا حاخش اشرب الشوربه وخلاص .

— طيب بس خدلك شوية رز وشوية بدنجان مكمور دانا عاملاه مسبك وزى الزبده .

— حاضر .. حاخد شويه بس خليكى مستريحه .

ودخل « شحاتة » إلى المطبخ وكان اول ما فعله هو ان رفع سلطنية البهريز إلى شفتيه وافرغ ما بها فى جوفه ثم اتى على كل ما بها من مخاصى وكلاوى ، ثم غرف بعد ذلك طبقا من الباذنجان وطبقا من الارز فافرغهما فى لحظات فى باطنه .. كل ذلك فى عجلة كانه ياكل آخر زاده .. أو كأنه يملأ آلة بالوقود استعدادا لعمل شاق .. ثم ما لبث ان اوقد وابور الغاز وبحث فى ارجاء المطبخ عن الهاون وأخذ يسحن فيه بعض ما احضر من العطار ثم تدحه على الوابور فى طاسة وضع بها بعض السمن ، ثم اخذ بعد ذلك ياكل ما فى الطاسة وما فى اللفافة حتى اتى عليها ، واخيرا عاد إلى حجرته بعد أن صنع فنجانا من القهوة ، وجلس على الصحارة ثم اخرج العلبة الصفيح من جيبه وأخرج ما بها بعود من الكبريت ، واذابه فى فنجان القهوة .

وعندما انتهى « شحاتة » من احتساء الفنجان أخرج من جيبه علبة الدخان ودفتر سجائر فنزع منه ورقة ورص بها الدخان ثم اخرج القطعة التى منحها له الشيخ سيد فكسر نصفها وفتته مع الدخان ووضع

النصف الآخر فى جيبه قائلا فى نفسه « خللى دى تنفع فى الزنقه » ثم لف السيجارة وجلس يدخنها بتمعن واستمتاع وهو ينفخ دخانها فى الهواء وما لبث ان استلقى على الصحارة وراح فى غفوة .

❋ ❋ ❋

اقبل « شوشة » على البيت وكان أول ما فعل هو سؤاله على « شحاتة » .. فانبأته « أم آمنة » أنه حضر وتناول الغداء وانه آوى إلى مضجعه ليستريح من ألم بظهره .

وتوضأ « شوشة » وصلى وما لبث حتى حضر ابنه من الكتاب فتناول الاثنان الغداء مع العجوز وقد خيم على الثلاثة صمت عميق ، ولاحظت « أم آمنة » هذا الاغراق فى الصمت ، فقالت متضاحكة :

ـــ خدنا على زيطة شحاته أفندى .. الاكله مابتتش تحلى من غيره .

ـــ أيوالله .. كان زمانه عمال يضحك ويأرأ .. ربنا ياخد بيده .

وانتهى الثلاثة من الاكل ودخل « شوشة » إلى حجرته وانطلق « سيد » إلى صحبه تحت التوتة بجوار السبيل ، وجلست « أم آمنة » مطرقة فى أسفل السلم .

وانتصفت الساعة الرابعة وتهيأ « شوشة » للخروج ولما يستيقظ « شحاتة » بعد .

قال شوشة كأنما يحدث نفسه :

ـــ مالوش عاده يتأخر كده .. لازم تعبان حقيقى .. اما اخش أشوفه .

ودخل شوشة الحجرة مسترقا الخطا حتى لا يحدث ضجة تقلق الرجل ووقف بجوار الصحارة التى رقد عليها وكان قد تعود ان يكور نفسه واضعا ركبتيه قرب ذقنه لقصر الصحارة ، وكان فى رقدته معطيا وجهه للحائط .

وهتف شوشة مناديا الرجل في صوت رقيق :

ــ شحاته .. شحاته ..

ولكن الرجل لم يستيقظ فمد يده واخذ يربت على ظهره برفق قائلا :

ــ شحاتة .. انت حاسس بتعب ؟

ولم يجب الرجل ، واحس « شوشة » في جسده برودة غير طبيعية فمد يده يتحسس جبينه فسرت إليه قشعريرة ، ولاحظ بالرجل سكوتا عن التنفس ، وما لبث حتى ادرك أن ما امامه ، هو مجرد جسد .. بلا روح ولا نفس ولا حياة .

أجل ، لقد مات مشيع الجنازات ، والساخر من الأموات .

وذعر « شوشة » ذعرا شديدا .. فقد كانت المسألة مفاجأة كبرى .. وكان آخر ما يخطر له على بال .. ان يجد الرجل ميتا .

ومضت لحظة والرجل واجم في مكانه من وقع المفاجأة لا يدري ماذا يفعل ، واخيرا بدأ يفيق لنفسه فكان اول ما فعل هو ان هرول إلى ام آمنة فصاح بها في صوت يخنقه البكاء :

ــ أم آمنة .

ــ نعم يا ابني .

ــ شحاته افندي مات .

وشهقت المرأة وصاحت في فزع :

ــ مات .. يا ندامه .. مات ازاي .. دا لسه كان واقف قدامي على رجليه .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم استغرقت في الإجهاش بالبكاء .

وعاد « شوشة » إلى حجرته فانتزع ملاءة بيضاء وسار متثاقلا إلى حجرة شحاتة .. ففرش الملاءة فوق الجثة ، ونفذت إلى انفه رائحة التدخين . فوقف يفكر قليلا ثم ما لبث أن اقترب من الجسد واخذ في

تفتيشه وأخرج النقود فوضعها في جيبه وقذف بالقطعة التى تبقت من التدخين إلى المرحاض وهو يقول فى تأثر :

ـــ يعني كان عليك من ده بايه .. الله يرحمك .. انت اللى قضيت على نفسك .

وانتشر النبأ بين أهل الدار ، ثم في الدرب ، وبدأ الجيران يتوافدون على الدار للمساعدة أو للاستطلاع أو العزاء .

وعندما أقبل الليل استأجر « شوشة » كلوبا فوضعه على باب البيت وصف بضعة مقاعد في الفناء وأمام الدار وتطوع فقيه من سكان الدرب بالقراءة ، وكان « سيد » وصحبه يجلسون على حجر السبيل وقد أصابهم الوجوم وخيم عليهم الصمت وأخذ كل منهم يقوم بواجب العزاء نحو « سيد » الذى بدا عليه الذهول والفزع .. فقد كانت المرة الأولى أن يشاهد ميتا ، وكان لا يكاد يصدق أن شحاتة قد ذهب حقا إلى غير رجعة ، وأنه لن يراه بعد ذلك .

وأخيرا انفض المأتم وانصرف المعزون وانطفأ الكلوب وساد السكون الدار وأوى « سيد » إلى مضجعه بين أحضان « أم آمنسة » وجلس « شوشة » على فراشه يرنو إلى النجوم المسهدة وخيل إليه أنه يسمع في سكون الليل صوت الناى الحزين وأحس بالدموع تخنقه فاجهش بالبكاء .

وأخيرا وبعد أن أفرغ مدامعه هز رأسه في حسرة وأسى وقـــال لنفسه :

ـــ كل شيء إلى نهاية .. كلنا نعرف ذلك ، ولكن المصيبة أننا لا نعرف متى النهاية .. ولو عرفناها لكنا فى استقبالها أكثر شجاعة . أن الحياة حقيرة ، ولكننا من نفس معدنها .. كيف نعرض عنها ونحن أشد حقارة .. يا مشيع الموتى ما كان أقدرك على كشف الأحياء .. تالله ما سمعت أصدق من قولك : ليس هناك أحقر من البشر ولا أغفل .

أهناك أشد غفلة من مخلوق يغفل عن نهايته ؟ . أهناك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يهيىء نفسه لها ؟ . رحمة الله عليك .. فقد كنت على حكمتك أشد البشر غفلة .

وأمضى « شوشة » ليلته وهو جالس في مضجعه يرقب النجوم ، شارد الذهن .. منقبض النفس .. يكاد يحس بشبح الموت يجثم في كل ركن من أركان الدار ، ويشم ريحه في كل نسمة تطوف بأركانه .. ويسمع صوته في كل قطة تموء أو كلب يعوى .

الموت .. الموت .. الموت .

ماله يعبث بنا كل هذا العبث ؟ ! ماله لا ينقض فيريحنا من عناء الانتظار !! ماله يتركنا حيارى ضالين نحس به ولا نراه ، نوقن من وجوده .. ولا نوقن من حدوثه !! ماله يبدو كالشبح أو الوهم .. وهو حقيقة واقعة !! ماله يقبل متخفيا مستترا فلا نراه إلا وقد أطبق علينا ، وهو أبعد ما نتوقع !

أيها الموت .. أنت نذل جبان .. لا تأخذ إلا على غرة .. تبدو بعيدا نائيا .. وأنت كامن وراء تلك السكين أو هذه العصا ، أو أسفل هذه النافذة ، أو في تلك اللقمة .

أظهر لنا أيها الموت ، فإننا لا نخشاك .. ولكننا نخشى مفاجأتك .. نخشى نذالتك وجبنك ، نخشى طرقك البهلوانية ووسائلك المسرحية .

تعال أيها الموت وأرحنا من سخافات الحياة .. أنت نومة لا أكثر ولا أقل .. أنت لا شيء .. سوى فاصل بين إحساس ولا إحساس .. أقبل علينا فأنت منجينا حتى من خوفنا منك .. فمن بعدك السلامة منك ومن وهمك ، ومن خشية انتظارك .. أقبل فليس مثلك شفاء للنفس الواعية المدركة بحقيقة الخليقة العارفة بزيف قيمتها وتفاهة حصيلتها .

أيها الموت .. أقبل .. ولكنك أنذل من أن تجيب إذا ما دعاك

داع .. انك لا تقبل إلا بلا دعوة .. تقبل حيث لا تطلب .. وتعرض عند الحاجة إليك .

* * *

وبدأ نور الفجر يتسلل من الظلمات ، و « شوشة » ما زال في موضعه ، مفتوح العينين ، شارد الذهن ، ولم يكد يسمع اذان الفجر حتى نهض من مكانه متثاقلا ، فتوضأ وصلى .. ثم ذهب إلى « ام آمنة » فوجدها جالسة في الحجرة بجوار سيد ، وعندما سمعت وقع خطوات شوشة رفعت رأسها متسائلة :

ــ يابني صاحي ليه من النجمه ؟

ــ أنا ما شفتش النوم ..

ــ ولا انا . حاسه انه حايقوم ويضحك زى عوايده . كان راجل أمير .. الله يرحمه .

ــ الله يرحمنا جميعا .. أنا خارج عشان اجيب الخشبه والمغسل والكفن .. انا وصيت عليهم من امبارح .. اما اروح استعجلهم .. عشان نخلص من الدفنه ، ونشوف اشغالنا .

ــ هوا انت حاتلاقى حد صحى ؟

ــ أنا قايل لهم ان أنا حاجلهم بدرى .

ــ طيب يابنى البركه فيك .. ربنا يبعد عنك السوء .

وخرج شوشة يتلمس طريقه في الضوء الباهت ، ولم يغب من الدار اكثر من نصف ساعة عاد بعدها ومعه ثلاثة رجال أخذ اثنان في تغسيل الميت ولفه في الكفن ، وكان شوشة يشعر في اول الامر بخشية من الدخول في حجرة الميت ومن لمس الجثة .. ولكنه تذكر قول صاحبها عن الأموات ، وعن احتقاره للموت ، واستخفافه بالجثث .

الم يقل له ان شعوره عند الامساك بميت لا يزيد على شعوره

عندما يحمل فخذة خروف أو أوزة مذبوحة ؟ ألم يقل له ان كليهما جسد ميت من لحم وعظم ؟

وهكذا ازال شوشة من نفسه الخوف والوهم وجلس مع الرجلين يساعدهما فى التغسيل واللف فى الاكفان حتى انتهت المهمة .. ثم حملوه فوضعوه داخل النعش ، وكان قرص الشمس قد بدأ يظهر ، وقد نزل المعلم خشت من الدور العلوى لاداء الواجب وتشييع الجنازة ، ووقف فى فناء البيت ، وهو يهز راسه اسفا ، ويستمطر الفقيد الرحمة وهو يقول :

– يا جماعه الراجل كان عندى امبارح صاغ سليم .. كان زى البمب .. نصبح النهارده نشيع جنازته ، اخص عليها دنيا غروره بنت كلب .

وانتهى اعداد الجنازة بسرعة ، وحمل الرجال الثلاثة النعش واستعدوا للسير ، وتلفت شوشة حوله فلم يجد سوى واحد هو المعلم خشت ، وهز رأسه أسفا ، وجاهد ليقاوم نوبة من البكاء امسكت بتلابيبه .. وحدث نفسه فى أسى :

– أهذه جنازة مشيع الجنازات ؟ ابعد كل هذه الزفف التى اشترك فيها يحمل إلى مثواه بلا ناع ولا باك ولا حفل ولا موكب ؟ . ابعد طول تزيينه لجنازات الغير بالمناقد والمجامر ، تخرج جنازته خاوية خالية ؟

وهم حاملو النعش بالسير عندما خطرت بباله فكرة طارئة هتف على اثرها بالرجال « قفوا » ، ثم قفز إلى داخل الدار ، ودخل إلى حجرة الصحارة ، وامسك بصرة « شحاتة » ففكها واخرج منها عدة الشغل كما كان يسميها صاحبها .. وامسك بالبدلة بيد مرتجفة ، ثم وضع ساقيه فى البنطلون ، وحشر الجلباب داخله ، ثم ارتدى الجاكتة بسرعة فوق الجلباب ووضع الطربوش على رأسه ، ولف الفوطة الحمراء المخططة حول وسطه ، وامسك بالمجمرة فى يده ، واندفع مهرولا إلى الخارج .

وكان « سيد » قد استيقظ ، فبهت وهو يرى أباه فى هذا المنظر العجيب وصاح متسائلا :

ـــ إيه ده يابا ؟

ـــ ولا حاجه . . روح انت الكتاب بتاعك ، انا رايح اوصل شحاته افندي .

وخرج شوشة إلى الطريق بمنظره هذا فذهل المعلم خشمت والرجال الثلاثة الذين حملوا النعش ، وقال « شوشة » مفسرا عمله :

ـــ لا مؤاخذه يا جماعه لازم نكرم الراجل شويه . . دا طول عمره واخد على الجنازات الابهة . . وطباخ السم بيدوقه . . يالله بينا .

وتحركت الجنازة المكونة من الرجال الستة : «شوشة » بالبدلة السوداء والمجمرة يسير فى الأمام ، والرجال الثلاثة يحملون النعش و « الخشمت » يسير وراءه . . وسادسهم « شحاتة » مسجى داخل النعش . . ولم تكد الجنازة تعبر درب القط حتى برز من إحدى الحارات « حسين القرداتي » بالرق فى يده والمعزة والقرد . . فلم يكد يرى « شوشة » والجنازة حتى سمر فى مكانه وصاح :

ـــ إيه ده ؟ إيه اللى جرا يا معلم شوشة ؟

ـــ البقية فى حياتك .

ـــ فى مين ؟

ـــ شحاتة افندي مات .

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله . . إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهجم حسين على النعش فأزاح احد حامليه . . وحل محله فى حمل النعش وهو يقول :

ـــ عنك اجرني .

وعاودت الجنازة سيرها . . وقد زاد فيها مشيعان . . المعزة ، والقرد .

وسار الموكب الجنائزى فى « درب عجور » . . وظل المشيعون

يزدادون واحدا بعد واحد كلما مر بجار ، أو صديق ، فلم يبلغ مقابر باب النصر حتى كان يسير وراء النعش جمع كثير من أهل الحى .

وكان شوشة قد أوصى اللحاد ليلة أمس بأن يعد المقبرة لاستلام زائر جديد ، فلم تكد تشرف الجنازة على مقبرة المعلم شوشة حتى كانت قد فغرت فاها ، وبدا جوفها المظلم معدا لاستلام الضيف المقبل .

وسرت في جسد « شوشة » قشعريرة ، وهو يرى الفتحة المظلمة ، وعاوده خوفه المتأصل من القبور والموتى .. وهم بالتراجع والابتعاد .. ولكنه تذكر الحديث الذى أسره إليه شحاتة فى الليلة السابقة .. وخيل إليه أنه يعاود همسه قائلا :

ــ « لقد بدأت أتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسها .. لقد فعلت هذا .. لأني عزمت أن أهزم في نفسي كل خوف من الموت ، أو رهبة له كشيء مروع .. وهكذا تعودت أن أنزل الأموات إلى المقابر .. وأصبحت بذلك رجلا شجاعا .. بل أصبحت أشجع رجل فى العالم : لقد بت أحتقر الموت .. وأحتقر أكثر منه .. الإنسان » .

وأحس أنه يود هو الآخر لو هزم في نفسه رهبة الموت وكشفه على حقيقته ، وتعوده كمسألة عادية متكررة الوقوع .

وبيد مستميتة أقبل على النعش ، فرفع غطاءه ، وصاح باللحاد :

ــ هه .. كل حاجه جاهزه ؟

ــ أيوه يا معلم .. عنك انت .

ــ شيل معايا شيل .

ودفع بكلتا يديه إلى داخل النعش فأمسك بالجثة من كتفيها .. وسرت إليه من برودتها رجفة هزته من أخمصه إلى قمته ، ولكنه همس لنفسه « لا تخش شيئا .. انها لحمة ميت .. انها كفخذة الخروف أو كالأوزة المذبوحة » .

وزاد اطباقه بأصابعه على كتفى الجثة .. كانت معركة بينه وبين رهبة الموت .. ولقد صمم على الانتصار .

ايها الموت .. أنت تافه .. انك شيء لا وجود لك .. انها نهايتنا نحن .. لقد انتقلنا من الوجود إلى العدم .. كنا بالأمس ، فأصبحنا اليوم شيئا غير كائن . ما دخلك أنت تقحم نفسك وتخلق لك وجودا وكيانا ، وتفرض لنفسك سيطرة وسلطانا ، وتكسو نفسك الرهبة والروعة .. وأنت فى حد ذاتك .. لا شيء .

ما هذه الرهبة التى احطت بها بقايانا من عظام رميم ، انها مخلفات جامدة .. انها انقاض لم تعد لنا بها صلة .. انها مواد فانية متحللة .. لا فارق بينها وبين أنقاض الدور وبقايا الأثاثات القديمة .. كلها صائر إلى رماد .. فعلام إذن الرهبة ولم الخشية ؟

وهبط شوشة بالجثة إلى باطن الارض وهو فى نضاله العجيب محاولا قهر أوهام الموت .. حتى انتهى من آخر الدرج ، وبدأ يتحرك فى الداخل ، وقد أغشت عينيه الظلمة الجاثمة ، وصدمت وجهه برودة ثقيلة ونفذت إلى خياشيمه رائحة عفنة .

ولم يكد يسير خطواته الاولى داخل القبر حتى صدمت قدمه شيئا صلبا ، ونتج من الصدام قرعة أشبه بقرع الطبل واخذ الشيء المصدوم يتدحرج على الأرض ، فلم يعد هناك شك فى أن الشيء المصدوم جمجمة ميت .

وكانت قرعة شوشة للجمجمة هى دقة الهزيمة .. لقد انهار الرجل تماما .. وجثا بالميت على الأرض .. ودفن رأسه بين كفيه واندفع فى نحيب حاد .

ــ لا .. لا .. ليست هذه العظام انقاضا كأنقاض الدمن ، انها قد تكون كذلك .. لو لم يكن فى صدورنا فؤاد يخفق وقلب يدق وينبض .. أما وهذه تكمن فى حنايانا .. فما أعز البقايا وما اكرم الأنقاض .. انها آثار عزيز غاب ، ودلائل حبيب فقد .

ايخفق القلب لشيء غير ملموس ؟ .. لرائحة سارية ؟ .. أو لذكرى

عابرة .. ؟ ولا يخفق لبقية ملموسة ضمها الثرى ، وأثر محسوس حوته الأرض .

وأسرع الرجال بوضع الجثة في مكانها وإخراج « شوشة » من المقبرة وقد انهارت مقاومته وتحطمت أعصابه .

وسرعان ما أغلق القبر وقرأ القوم الفاتحة مترحمين على الفقيد ، ثم انصرفوا إلى سبيلهم ، وعاد « شوشة » إلى البيت فأبدل ملابسه وهو ساهم واجم ثم خرج إلى عمله بعد أن خرج من الصراع بهزيمة مريرة .

قاتل الله ذلك الساكن في الضلوع ، لقد خذله شر خذلان وكان السبب في كل ما حاق به من هزيمة وما أصابه من انهيار .

* * *

عاد « شوشة » في الظهر إلى داره ولم يتناول إلا قليلا من الطعام ، وكان سكون الموت ما زال يجثم على الدار ، وكان يشعر بتثاقل في أطرافه وانهاك في جسده ، ولكنه لم يرد أن يستسلم لآثار الهزيمة ، فخرج بعد الصلاة لتصريف شئونه والذهاب إلى المقهى ، ومر بعد ذلك يومان عاد كل شيء خلالهما إلى طبيعته في الدار ، وعاد « سيد » إلى لهوه ، وشوشة إلى جلسته في الليل ، ولم آمنة إلى تبوعها في الفناء ، ولم يعد هنالك أثر لشحاتة إلا تلك الصرة المنزوية فوق الصحارة .

وفي ظهر ذات يوم وقد عاد « شوشة » من عمله وانتهى من الصلاة سمع طرقا على الباب فقام ليرى الطارق فإذا به عجوز يرتدي جلبابا وطربوشا ولم يصعب على « شوشة » أن يميز فيه أحد أولئك الأفندية زملاء « شحاتة » الذين كانت تكتظ بهم قهوة الأفندية .

وأكد سؤال الرجل ظن « شوشة » فقد تساءل قائلا :

ــ هي دي شقة شحاته أفندي ؟

ـــ أيوه هيه .

ـــ أمال هوا فين بقاله يومين غايب عن القهوه ؟ .. والشغل كابس اليومين دول والمعلم محتاج له .

ـــ شحاته افندى .. تعيش انت .

ـــ بتقول إيه ؟

ـــ تعيش انت .

وصاح الرجل في دهشة بالغة وحزن ظاهر :

ـــ مش ممكن .. حاجه ما تعقلش .. آخر مره شفناه كان زى البمب لا بيه ولا عليه .. كان ماشى فى آخر جنازه زى الحصان الاسترالى .. هو الوحيد اللى ما شتكاش م المشوار .. كان ماشى طول الجنازه يضحك ويهزا .

ـــ اللى حصل .. الموت مابيرحمش .

ـــ حاجه غريبه ! الله يرحمك يا شحاته افندى .. كان راجل امير زى السكره عمره ما زعل حد ولا عاب فى حد .. طول النهار قاعد يغنى ويضحك .. الله يرحمه .. والله يا شيخ زعلتنى ونكدت على ...

واستمر الرجل فى وقفته على الباب ، ولم يجد « شوشة » ان هناك شيئا يقال ، ولكنه كذلك لم يستطع أن يطرد الرجل فدعاه إلى الدخول من باب المجاملة قائلا :

ـــ ما تتفضل تستريح شويه !! خش اشرب لك فنجان قهوه ...

ـــ كتر خيرك . امال حضرتك تقرب له إيه ! أنا فاكر ان انا شفتك معاه مره فى القهوه ؟

ـــ والله معرفه عزيزه قوى .. كنا زى الاخوات .

ـــ انعم واكرم .. أنا محسوبك هلال خلف الله هلال زميل المرحوم .

ـــ أهلا وسهلا .

واستمر الرجل واقفا فى مسكانه لا يدخل ولا ينصرف حتى بدأ « شوشة » يقلق ، واخيرا قال الرجل متسائلا :

ـــ وبعدين ؟ إيه العمل دلوقت ؟

ـــ فى إيه ؟

ـــ فى أزمة الأنفار اللى احنا فيها .. الأفنديه مش ملاحقين على الجنازات .. الشغل حمى خالص .

وهز « شوشة » كتفيه مظهرا أسف العاجز الذى لا يملك حلا .. واستمر الرجل فى قوله :

ـــ وكنا معتمدين على « شحاتة » ييجى معانا .. اهو خلى بينا .. إيه العمل دلوقت ؟

واستمر « شوشة » فى اظهار أسفه الصامت ، فقد كان الجواب فى غير دائرة قدرته ، وكان سؤال الرجل له غير ذى جدوى ومع ذلك فقد استمر الرجل الملحاح فى حديثه قائلا :

ـــ حاجه تحير .. إذا لقينا النفر مش حانلاقى البدله .

وهنا فقط أحس « شوشة » أن المسألة دخلت فى دائرة قدرته وانه يستطيع أن يساهم فى حلها .. فعدة الشغل الخاصة بشحاتة افندى موجودة كما هى فى صرتها ، وهو لا يظن أن احدا فى هذه الدار يمكن أن يحتاجها ، ولذا فإن خير ما يفعله هو أن يعطيها لهم بأى ثمن .. فهم وحدهم الذين يستطيعون استغلالها .

وقال شوشة مبشرا الرجل :

ـــ إذا كان على البدله .. البدله موجوده .. هى والفوطه والمجمره .. كل حاجه موجوده بحالها زى ماهيه .

وصاح الرجل فى لهفة :

ـــ أيوالله . صحيح . الله يسترك . لكن مين حايلبسها ؟

ـــ انت مش بتقول أن الأنفار موجودين .

ـــ أيوه .. لكن فين دلوقته حلاقيهم .. الجنازه فاضل لها حسبة نص ساعه .

وعاد الرجل إلى إطراقه وحيرته ، ولكنه ما لبث حتى رفع رأسه متسائلا :

ــ اسمع . . ما تيجي انت معايا .

وكان السؤال مفاجئا لشوشة فقد كان آخر ما ينتظر ، فأجاب متلعثما :

ــ أنا ؟ . آجي معاك ؟ . لكن انا ماليباش في الشغلانه دي ؟ . . .

ــ يعني إيه مالكش في الشغلانه دي ! ؟ هي دي شغلانه . . البدله مش حتيجي على قدك ؟

وكان شوشة يعرف الرد فقد سبق له ارتداؤها فأجاب بلا تفكير :

ــ ايوه على ادي .

ــ خلاص . . انتهينا . . الحكايه كلها مش عايزه غير انك تلبس البدله ، وتمشي معانا قدام الخشبه ، وفي آخر المشوار تفتح لك اللي فيه القسمه إذا كان شلن والا نص ريال ، وإذا كانت الجنازه حاره والميت سقع . . يمكن توصل لريال . . خش يا شيخ بلا وسوسه . . دا رزق ربنا بعتولك . . حد يرفض الرزق ؟ ياالله بلا بطر ؟

وكان ذهن شوشة يعمل في سرعة . . كان يفكر في المسألة من وجهة نظر أخرى . . كان يفكر فيها على انها فرصة أخرى لدخول معركة ثانية مع الموت ورهبته . . لقد خسر الجولة الأولى ، وها هي تسنح له الفرصة لجولة ثانية وثالثة ورابعة . . إن الزمن معه وهو لا شك منتصر . انها ــ كما قال شحاتة ــ مسألة تعود لا أقل ولا اكثر ، وليس هناك فرصة خير من هذه لقهر الموت .

وفي لمح البصر كان شوشة قد حمل الصرة وسار مع الرجل إلى قهوة لفنديه ، وعندما وصل إلى هناك كان النشاط على اشده والمقهى والحانوت كخلية النحل ، ولم يكد الحاج سرور يرى هلال خلقه الله هلال حتى صاح به :

ــ أمال فين شحاته النحس ؟

ـــ سبقنا .

ـــ على فين ؟

ـــ على المقر الاخير .. على الذي لابد منه .

ـــ يعني إيه ؟

ـــ على القرافه .

ـــ راح لوحده كده ؟

ـــ طبعا .. امال يعني راح بزفه ؟

ـــ يا جدع اتكلم جد .. حايرجع امتى ؟

ـــ ماهوش راجع .

ـــ مش راجع ازاي ؟

ـــ زي الناس . اصله راح راكب . قطع ذهاب بلا اياب .

ـــ قصدك تقول انه مسافر ؟

ـــ حاجه زي كده .

ـــ يعني إيه حاجه زي كده ؟

ـــ يعني مات .

ـــ مات !! بتتكلم جد ؟

ـــ وهي الحاجات دي فيها هزار يا حاج .. شحاته افندي مات وشبع موت .. البركه فيك .

ولم يكد يسمع القوم النبا حتى تصايحوا في دهشة : « مات ؟ » ، « مات ازاي ؟ » ، « الله يرحمك يا عم شحاته » ، « يا ساتر يارب » ، « قال يا ربحين يكفيكو شر الجفيين » ، « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وعندما هدات التعليقات صاح الحاج سرور بهلال :

ـــ وبعدين ؟ والعمل إيه دلوقت ؟

ـــ ولا يهمك .. جبت لك نفر بداله .. حايلبس بدلته ويمشي مطرحه .

ـــ انا مش قصدي كده .

ـــ أمال قصدك على إيه ؟

ـــ قصدي ع الاربعين قرش اللى مسلفهم له .. ريالين مشنبرين .. ريال يخبط ريال .. يا خسارة الفلوس .. أنا كان قلبى حاسس أنهم حايضيعوا .

وكان شوشة قد وقف في هذا الوسط العجيب يرقب الحوار ويستمع إلى التعليقات ، فلم يكد يسمع حسرة الرجل على دينه الضائع حتى قال له في هدوء :

ـــ ما تخافش على فلوسك يا حاج .. المرحوم ما كانش ياكل مال حد أبدا .

ـــ ما كانش إيه ؟ الظاهر انك ما تعرفوش كويس ؟ .. دا كان ياكل مال النبى .

ـــ ماتقولش كده . عيب ... الأربعين قرش بتوعك أهم ..

ثم أخرج كيس النقود وأعطى الريالين لصاحبهما وحدق الحاج مسرور في الريالين دهشا :

ـــ عجيبه ! دول هم الريالين بتوعى .. الله يرحمك يا شحاته افندى .. الظاهر انه ماالحقش يصرفهم .

وكان مخزن المخدرات قابعا في إحدى الزوايا وقد راح وسط هذا الضجيج في غيبوبته ، ولكن يبدو أن رشاشا من الحديث قد نفذ إلى مسامعه وأنه أدرك ما حدث ، فقد اهتز جفناه ، ثم صاح بصوته المتحشرج دون أن يوجه أحد الحديث إليه :

ـــ النص ريال بتاعى ماتيش عايزه ، ولا حتة المنزول وفص الحشيش خليهم رحمه ونور على روح المرحوم .

ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال داعيا :

ـــ ارحمه يارب .. حقيقى كان بتاع نسوان ، وفلاتى ، وخباص وهلاس .. لكن برضك أحسن من ولاد الكلب السفله دول كلهم ..

طيب وأمير وعمره ما آذى حد ، ولا عاب في حد .. ولا تسبب في ضرر حد .

وأمن « شوشة » على قول « الشيخ سيد » بقوله :

ــ معاك حق .. كان قلبه أبيض زى حتة البفته .

ولم يرد « الشيخ سيد » على « شوشة » بل استمر موجها قوله إلى الله :

ــ وانت عايز إيه من العبد غير انه ما يضرش أخوه ، إيه يضايقك من انه يتبرق نفسه ويشوف كيفه ! .. وإيه يفيدك من حرمانه من نعمك ؟ .. ارحمه يارب ، وارحمنا معاه .. احنا مبيدك الغلابه .

وعلا صوت « الحاج سرور » مقاطعا « الشيخ سيد » ، صائحا « بشوشة » :

ــ يالله ياسيدنا خش البس . مستنى إيه ؟ معندناش وقت .

وسرعان ما جذبه هلال إلى الحانوت قائلا له :

ــ تعرف تلبس والا لا ؟

ــ أعرف البس الجاكتة والبنطلون .. بس القميص والبتاعه السوده دي مالبستهاش قبل كده .

ــ طب خش انا ألبسك .

وبعد بضع دقائق كان « شوشة » يغادر الحانوت .. وقد ارتدى الطقم الكامل .. وهلال وراءه يصفق بيديه طربا ويصيح :

ــ حلو .. اللى يشوفك يقول افندى أصيل .. افندي ابن افندى .. هات الطربوش لقدام شوية .. ما تتصعوش لورا كده زى المصبجيه .. أيوه كده .

ثم صاح « هلال » سائلا « الحاج سرور » :

ــ احنا حانروح انهى جنازه يا حاج ؟

ــ جنازة الجماليه .. حنقوم من الجماليه ع المجاورين .. يالله اعملولكو همه .. انا حاوصل لجنازة الكحكيين .. اودى الطقم

وحاحصلكو على هناك .. مش عايز لخبطه .. خد بالك من النفر الجديد .. لحسن يعمل حاجه كده ولا كده .

ـــ ما تخافش . خليه على .

وتحرك « شوشة » وسط الجمع يحثون الخطا فى شارع الخليج متجهين إلى شارع أمير الجيوش ، ثم إلى الجمالية حتى وصلوا إلى بيت الميت .. ووقف « شوشة » يرقب المعزين ، ويرقب الاستعداد للجنازة ، وقد بدا مأخوذا بما حوله ، واجم الوجه ، شارد الذهن ، ولم تترك له غرابة الموقف فرصة للتفكير فى الميت ذاته ، ولا الرثاء له ، والعطف عليه .. فقد كان مشدوها من ضجيج المظاهرة ، وكانت مشاعره فى حالة تبلد وجمود .

واستمر به هذا التبلد والجمود حتى أخذ الميت يهبط من درج البيت وانطلقت الأصوات تشق أجواز الفضاء .. وبدت وهى تنطلق تكاد تنتزع قلوب مطلقيها .. وهنا أصابته رجفة شديدة جعلته ينتفض فى حلته كلته « المصنور بلله القطر » .. ثم لاح النعش .. تعشى تد لف فى الحرير الأبيض ، دلالة على أن صاحبته سيدة شابة .. فلم يكد تقع عليه عينا « شوشة » حتى أصابه ما أصابه عندما طرقت قدمه الجمجمة من أول جولة .. فقد انهار تماما ، واندفع فى نوبة بكاء عنيف .

وكان التأثير المباشر لنوبة البكاء التى أصابته ، نوبة ضحك أصابت بقية الزملاء ، فقد كانت نظرتهم إليه ، وهو مندفع فى البكاء نظرة كل محترف متمكن فى مهنته إلى مستجد غشيم يبدأ المهنة لأول مرة فيندفع فى حماقة ، يسببها جهله ، وقلة درايته ، وضعف احتماله .

وقال له « هلال » مهدئا :

ـــ كفايه بقى يا سى شوشه .. خلى شويه للجنازه الجايه لسه قدامك مناحات كتير .. انت بالطريقه دى حاتخلص فى جنازتين تلاته .. وبعدين حاتدور أنته على اللى يعيط عليك .. اتقل بقى يا جدع اتقل ..

بلاش شغل هبل ، كفايه تبص في الارض وتعمل نفسك زعلان .

وقال الشيخ سيد متسائلا :

ــ انت يا جدع بتعيط على إيه ، على الميت ، ولا على المشوار اللي حاترقعه ؟

واجاب هلال :

ــ الميت .

ــ ميت ؟ ليه ؟ تعيط عليه ليه ؟ جعان ، والا عطشان ، والا عريان ، والا بردان .. والا تعبان .. والا موجوع . ما هو نايم اربعه وعشرين قيراط .. ده هوا اللي حقه يعيط علينا . طب على الطلاق بالتلاته يوم ما ارقد الرقده دي .. لابص من الخشبه واطلع لساني للمغفلين اللي بيعيطوا عليه . آل بيعيط على الميت آل .. ليه هي الحكايه انقلبت ؟ فيه ماشي يعيط على راكب ؟ فيه محتاج يعيط على اللي مش محتاج ؟ .. فيه متالم يعيط على اللي ما يتالمش ؟ يا ناس اعقلوا . ما تضحكوش علينا الاموات .

وبدأت الجنازة في السير واتخذ شوشة مكانه في طابور الافندية .. ووصلوا إلى المدافن وواروا الميت التراب .. وعاد شوشة مع الجمع إلى المقهى فابدل ثيابه وقبض الاجر ثم عاد إلى البيت مطرق الرأس ، احمر العينين وارم الأنف .

لقد انتهت الجولة الثانية بهزيمة أخرى .

* * *

وصل شوشة إلى البيت مع وصول الظلام ، وتلقاه ابنه سيد وهو يعدو من آخر الدرب قافزا متواثبا وهو يصيح :

ــ آبا .. المعلم خشت سأل عليك تلات اربع مرات ، وقال لي اول ما تيجي من بره اقول لك عشان يقابلك .

وقبل ان يجيب الاب كان الصبي قد لاحظ الصرة في يده وعلامات التعب واثار البكاء فتساءل في دهشة :

ـــ الله . . إيه ده بابا . . كنت فين ؟

ـــ كنت فى مشوار كده .

ـــ وزعلان ليه ؟

وتضاحك شوشة قائلا :

ـــ مش زعلان ولا حاجه . . خد القرش ده اشترى به حاجه .

ولكن « سيد » لم يتقبل القرش بما يجب من ترحيب وحماس . . بل انطبق عليه بين أصابعه . . وكأنه يطبق على حصاة لا قيمة لها .

كان الصبى يحب أباه . . ولشد ما كان يضايقه أن يراه حزينا موجما .

وهم الصبى بسؤال ، ولكن شوشة لم يمطه الفرصة وصرفه قائلا :

ـــ ياالله يا سيد اجرى قول للمعلم خشت ان انا جيت ، وخليه يتفضل .

وعدا « سيد » صاعدا إلى الدور العلوى ليبلغ الرسالة ، ودخل شوشة إلى الشقة فتوضا وصلى ثم جلس ينتظر المعلم خشت .

وبعد لحظة سمع وقع اقدامه البطيئة المتهادية فنهض لاستقباله مرحبا وقد كسا وجهه ما استطاع من علامات البشاشة والسرور :

ـــ أهلا . . وسهلا . . أهلا أهلا . . اتفضل يا معلم .

ـــ ازيك يا معلم شوشه . . ازاى الحال ؟

ـــ رضا . . أهى ماشيه .

وجلس « المعلم محمود » على الأريكة فأصدرت فرقعة وطقطقة ثم استقرت فى النهاية مستسلمة إلى حملها ، وجلس « شوشة » على مقعد خشبى واطىء وهو مستمر فى الفاظ الترحيب ، ولمح « سيد » وهو يهبط إلى الفناء فصاح به :

ـــ واد يا سيد . . أوصل هات قزازة كازوزه من على باب الحارة .

واصدر الخشت بعض الفاظ التمنع مثل « مافيش لزوم » و « ليه التعب ده » ؟ ولكن « سيد » كان قد انطلق ينفذ الأمر . . وما لبث

حتى عاد حاملا زجاجة الكازوزة .. وحلف إلى المطبخ ثم افرغ جزءاً منها في كوب صغير وشرب بقية الزجاجة ، ثم حمل الكوب في صينية صدئة إلى الضيف ، ثم وقف ينتظر حتى شرب الرجل معظم ما في الكوب .. وعاد به ثانية إلى المطبخ فجرع ما تبقى به ، وانطلق إلى الفناء رابحا ما يقرب من نصف زجاجة كازوزة .

وجرى الحديث بين الرجلين في أسئلة تافهة وأحاديث عادية حتى تحنح الخشت وقال وقد كسا وجهه ابتسامة عريضة :

ـ انا جاى آخد رايك يا معلم شوشه في موضوع يهمني .. احنا اصلنا مش جيران بس .. احنا أهل .

ـ طبعا يا معلم طبعا .

ـ بقى شوف يا سيدى .. المعلم احمد الفكهانى جالى من يومين طالب القرب منى في بنتى زكيه لابنه إبراهيم .. قلت له سيبنى اشاور عقلى .. وبعدين ضربت أخماس في أسداس لقيت الواد كويس .. وابن حلال وابوه راجل طيب وأمير .. قلت يا واد وافق .. وربنا يقدم اللى فيه الخير .. وبعدين قلت لمراتى فقالت الأمر أمرك .. حبيت آخد شورتك .. وبرضه رايين أحسن من راى واحد .

وأطرق شوشة برأسه برهة ثم أجاب :

ـ والله الراجل أمير ، وحاله متيسر ، والولد شاطر وابن حلال ، ورايي انك توافق على طول .

ـ كده ؟

ـ أوى .

ـ خلاص .. هو حايفوت على الليله دى .. أقول له ان انا موافق وتنتهى الحكايه .

ـ على خيرة الله .

ـ انا عايز اعمل ليله نفرح بيها .. بقالى كتير مافرحتش .. عايز اعملها ليله بالعوالم والتخته .

ـــ ربنا يديم الأفراح يا معلم .

وضحك الخشت ، وبدت عليه آيات الغبطة ، ثم نهض للانصراف مادا يده مودعا ، وكانت وقفته مواجهة لدورة الميساه وبدا لعينيه الشق العميق فى الجدار هابطا من أعلى إلى أسفل منثنيا متعرجا ، نتيجة النشع الذى أهال البياض ، وبدت على وجه الرجل علامات الانزعاج وقال لشوشة :

ـــ ده إيه الشق ده !

ـــ الظاهر إن فيه نشع فى دورة الميه اللى عندكو .

ـــ لكن ده شق جامد .. واصل من أول الجدار لآخره . . لازم تشوفه لك فيه طريقه .

وضحك شوشة وأجاب باستخفاف :

ـــ ما تخافش يا معلم ، دا بقاله عشر سنين على دى الحال . عمر الشقى بقى .

ـــ على العموم أنا حاجيب السباك يشوف المواسير إذا كانت فيه حاجه بتنز يصلحها . هه .. سلام عليكم . تصبح على خير .. تصبحى على خير يا خالتى أم آمنه .

وأجابه صوت أم آمنه من حجرتها :

ـــ وانت من أهله يا معلم محمود .. ربنا يتمم بخير .

ـــ الله يحفظك .

وقبل أن ينصرف التفت فجاة كأنما قد نسى أمرا وقال :

ـــ على فكره يا معلم شوشه يمكن نحتاج فى الفرح لاوده و الا اودتين من عندك . فيه مانع !

ـــ ابدا . . أبدا . . الشقه واصحابها تحت أمرك .

ـــ كتر خيرك .

ولم يلبث النبأ حتى سرى فى انحاء الدار وأقبل سيد على مصاحبة « على الخشت » قائلا :

ـــ حقيقى يا على اختك حاتتجوز ؟
ـــ بيقولوا كده .
ـــ وحاتعملوا فرح ؟
ـــ امال .
ـــ وحاتعملوا فيه رز من بتاع الفرح .
ـــ إيه الرز بتاع الفرح ؟
ـــ رز كده تلاقيه بشعريه وزبيب طعمه لذيذ قوى .. كلته مره الفرح اللى اتعمل فى بيت المعلم « زين » السنه اللى فاتت ..

ـــ أيوه فاكره .. كان فيه رقاصه بترقص عريانه ..
ـــ حاتجيبوا رقاصه وعوالم ؟
ـــ لازم ابويه حايجيب .
ـــ وتجيبوا مغناوتيه ؟
ـــ ضرورى .
وتنهد سيد تنهيدة رضا وغبطة وقال وهو يمنى نفسه بمتعة مقبلة :
ـــ حاتبقى ليله هايله .. امتى حتعملوها ؟
ـــ الله أعلم .. على العموم لسه بدرى .. الظاهر ان لسه فيه اخد وعطا .. لانى سامع ابويا كده عمال يتوحوح مع امى .

* * *

ولكن المسألة انتهت بأسرع مما توقع الصبيان ، ففى اليوم التالى كان « المعلم خشمت » يطرق باب « شوشة » وينبئه فرحا أن المسألة قد انتهت وأن الاتفاق قد تم على أن يكون يوم الخميس موعدا لكتب الكتاب .
واردف « الخشمت » يقول وهو يفرك يديه :
ـــ طبعا انت مش عايز عزومه ... البنت بنتك والفرح فرحك .

— طبعا يا معلم ودى عايزه كلام .

— أنا حاعمل شادر فى الحاره للرجاله والالاتيه وحاخلى البيت للنسوان والعوالم .. بس عايزك تفضى لى الاوده اللى قلت لك عليها عشان المعازيم الرجاله ياكلوا فيها .

— الشقه كلها تحت امرك .. هى دى عايزه سؤال .

— كتر خيرك .. احنا برضك اهل .

وكان الحديث فى يوم احد اى لم يكن قد تبقى على يوم الخميس — موعد — الفرح — الا بضعة ايام جرى فيها الاستعداد للفرح على قدم وساق ..

— بدأت بشائر الزينة بعلمين اخضرين علقا على جانبى بابه البيت وأورمة خشبية ملونة يعلوها التاج وضعت فوق منتصف الباب ، وكان هذا أول دليل ملموس اقتنع « سيد » بأن هناك فرحا فعليا ، وأن المسألة لم تعد مجرد أمنية منتظرة ، وأن أكل رز الفرح ذى الشعرية والزبيب قد بات وشيك الوقوع .

ومرت بضعة الأيام التالية على سيد خفيفة الظل لطيفة الوقع ، فقد كان كل يوم يبصر دليلا جديدا .. ففى يوم فرش الرمل الأصفر ، وفى اليوم الآخر علق قدر آخر من الاعلام والبطيخ الزجاجى الملون ، وفى اليوم الثالث غرست أعمدة خشبية على مدخل الدرب ، قد لفت بأشرطة مخططة خضر وبيض ، حتى حل يوم الخميس .. فبدىء فى نصب السرادق لاستقبال المدعوين ، وسرادق آخر صغير خلف السرادق الكبير اقيم فيه المطبخ ورصت فيه الحلل فوق كانون حجرى .

وبات الدرب كله منهمكا خلال الاسبوع فى الاستعداد للفرح كل بما يخصه ، كمدعو أو كمشترك فى اداء احد الواجبات .

وهكذا كان اهل الدرب من الاستعداد للفرح فى فرح إلا امرا واحدا ، هو « شوشة » ، فقد كان غريقا إلى شوشته فى الجنازات وتشييع الأموات .

أجل ! لقد فتح الله على الأفندية بشوطة تدفقت عليهم من بعدها الجنازات ، ووجد « شوشة » نفسه ، وقد اندمج فيهم وجرت رجله بنهم فأخذ يشيع الميت تلو الميت .. وتوالت عليه جولات الصراع بينه وبين رهبة الموت سريعة متتالية .. ففتوت من مقاومته وزادت من صلابته ، ففي كل جولة كان يجد نفسه أهدأ أعصابا وأقل حساسية من الجولة السابقة ، ووجد نفسه يسير في طريق النصر بخطا حثيثة .. وأنه لو استمر في مثابرته على تشييع الموتى فسينتهي به الأمر إلى انتصار لا شك فيه ، وانه سيقهر خصمه الرهيب ويسخر منه ويكشفه على حقيقته التافهة الخالية من كل وهم ورهبة وروعة .

وهكذا ظل « شوشة » يواظب على الذهاب إلى مقهى الأفندية ، وعلى الخروج معهم في الجنازات حاصلا من عمله على ربحين ربح مادي وربح معنوي .

وبدأ أهل الدرب يتهامسون فيما بينهم عن سر خروج « شوشة » بالمرة يوميا بعد الظهيرة ، وما لبث أن ذاع الأمر عندما أبصره أحدهم يسير ببدلته السوداء أمام إحدى الجنازات .

وأثار النبأ تعليقات شتى ، فمن قائل أن الرجل يجري وراء القروش ، وأنه قد استغل فرصة حصوله على البدلة فورث عمل « شحاتة أفندي » ، ومن قائل أن الرجل يهوى الأحزان أنه يريد جنازة لكي يشبع فيهما لطما ، ومن قائل بأنه أصيب بلوثة ، ومن قائل .. ومن قائل ...

كانت الأقاويل كثيرة ، ولكنها كلها كانت في حدود الهمس إذ لم يجسر أحد منهم على أن يواجهه بها ، وقد مرت الأيام فما لبث القوم أن اعتادوا المسألة ، فخفتت همساتهم ولم يعد أحد منهم يعنيه الأمر .

ولكن « سيدا » لم يعتد المسألة ، ولم تخف الهمسات التي كانت تطن في رأسه ، بل ظل الأمر يعنيه ويقض مضجعه .

كانت المسألة كلها بغيضة إلى نفسه ، كان يشتم منها رائحة ذلك الشيء المجهول الكريه الذى يغيب الأحياء ويأخذهم إلى حيث لا رجعة .. كان يجد فى البدلة والصرة ما يذكره « بشحاتة » ، وما يذكره بالغيبة الطويلة والضياع الأبدى ، وما يذكره بفقد الأعزاء فقدا ميئوسا منه ، فقدا لا مبرر له ، ولا أمل بعده فى استرجاع المفقود ، لقد كان إذا ما ضاعت منه بلية او نحلة يعزيه أنه يعرف كيف ضاعت ، وأين ضاعت ، يعزيه احساسه بأنه يستطيع أن يجدها أو يجد غيرها بدلا منها .. أما ذلك الضياع الذى لا يعرف له سببا ، ولا ينتظر عنه تعويضا ، ولا يجد بعده من الضائع بديلا .. فذلك هو الشيء المروع .

كانت الصرة المغلقة تشعر « سيدا » بذلك الضياع .. وكان يخشى منها على أبيه الحبيب ، أبيه الذى كان لا يتصور كيف يمكن أن تكون الدنيا بغيره .. ولكنه مع ذلك لم يملك إلا أن يسكت الهمسات التى تطن فى رأسه ، وساعدت الاستعدادات للفرح والصخب والضجيج على إسكات تلك الهمسات إلى حين ، فانصرف الصبى من الصرة المغلقة ، إلى الأعلام المنشورة ، والرمل المفروش .

الفصل العاشر

على عـــــرش الميـــــاه

حلت ليلة الخميس وكان كل شيء على تمام الاهبة . فالسرادق قد اقيم من أول الدرب حتى قرب السبيل ، والاعلام ترفرف على مدخله ، والكلوبات تتدلى فى أنحائه يلاحقها عفريت قذر اسود بسلم يسنده إلى الاعمدة الخشبية ، ثم يتسلقه إلى سقف السرادق ، ويدفع فى الكلوبات النفس تلو النفس ويسلكها بابرة فى يده فيزداد وهجها ويشتد ضوءها ، وفى مقدمة السرادق جلست فرقة موسيقية ترتدى ثيابا قديمة من ثياب موسيقى الحرس الملكى لا صلة بين مقاسها ولابسيها فإما أن يكون الفرد غريقا فى حلته وإما أن يكون محشورا بين أزرارها فهى لا تكاد تلم لحمه .

ولم تكن الآلات الموسيقية لتنزل عن افواههم إلا لترفع ثانية فقد كانوا يعزفون السلام لكل داخل على قدر حاله فإذا بدا القادم من ذوى المكانة عزف السلام على مهل وبكل مقاطعه ، وإذا كان هلفوتا ضرب السلام سريعا مختصرا .. وعندما كان يخف الاقبال على السرادق كانت تبدأ الفرقة فى عزف أحد الأدوار كأفراح القبة او يا مليكى انا عبدك .. ولكن لا يكاد يقبل مدعو حتى تترك الدور وترف السلام ، ثم تعود ثانية إلى الدور التى كانت تعزفه .

وفى السرادق كان يصطف المدعوون .. لا يكاد يبدو بينهم وجه غريب عن الدرب ؛ ففى أحد الأركان جلس المعلم مسطرين ، وزكى زين ،

والاسطى شيحة البقال ، وعيد الحلاق .. وفي ركن آخر كان يجلس على الحمى ، وجاد صبى الحاجة زمزم ، والحاج إبراهيم المعيرجى ، وعم جاب الله البواب .. وفي ركن ثالث كان يجلس الشيخ عبد الرسول ومعاونوه ، وبين كل هؤلاء كانت تتناثر بضعة وجوه مجهولة .

وفي صدر السرادق أعد موضع التخت وهو أريكة خشبية عالية حفت ببعض مقاعد خالية للآلاتية .

ووراء السرادق يوجد سرادق المطبخ وهو لا يزيد عن « تزلك » احاط الفرن المصنوع من حجارة شيدت على وجه السرعة ورصت فوقها القزانات الضخمة والحلل السوداء « المهببة » ، وأخذت النار تئز من تحتها ، ومن آن لآخر يدفع الطباخ بعض الحطب إلى أسفلها .

ومن وراء « التزلك » كن يطل وجه صغير يستنشق بأنفه شهيقا طويلا ثم يلتفت وراءه ويخاطب آخر لم يبد وجهه :

— وله يا على .

— عايز إيه يا سيد ؟ .

— أمال امتى حايبتدوا الاكل .. انا خلاص بطنى نونوت .. انا بقالى يومين مبطل اكل وبستعد للعشوه دى .

— صبرك شويه .. لما تكمل المعازيم .

— اسمع .. احنا حايوكلونا لوحدنا والا مع الكبار ؟

— أنا عارف .

— عايزين ناكل لوحدنا .. روح قول لابوك كده .

— أروح أقول له دلوقت ؟ .

— أيوه .. أمال حاتقول له بعد العشا ؟ .

وهم « على » بأن يعدو من وراء سرادق المطبخ إلى داخل السرادق الكبير حيث كان أبوه يرحب بالمدعوين وينثر عليهم التحيات .. ولكن « سيد » سرعان ما أمسك بتلابيبه صائحا :

ـــ والا اقول لك .. بلاش دلوقت .. لحسن يجيبوا لنا صنفه والا صنفين ويكروتونا ، ولا من درى ولا من شاف .. خلينا ناكل مع الكبار .. اقل ما فيها نضمن إن مافيش صنف حايسيبنا .. والا إيه رأيك ؟

ـــ برضك كلام مظبوط .. وعلى العموم احنا نقدر ناكل مرتين .

ـــ ازاى بقى ؟ .

ـــ مره مع الرجاله ومره مع الستات .

ـــ لا والله حدق .. يا سلام يابو علوه .. إيه الافكار النيره دى .. انا طول عمرى أقول عليك غبى .. ومخك زى الصرمه القديمه .. لكن فى الحكايه دى طلعت حدق . بس اسمع ...

ـــ إيه ؟ .

ـــ عليك تشوف لنا مين حياكل الأول .. الستات والا الرجاله ؟ .

ـــ بس كده .

ثم انطلق يعدو وبعد لحظة اقبل عليه بجوار السرادق يقول هامسا :

ـــ وله يا سيد .. الستات فى الأول .

ـــ طب يالله بينا على فوق .

وجلف الصبيان إلى الداخل وكان الغناء يعج بالصبية والبنات ، وكانت شقة شوشة قد فتحت على مصراعيها وقد أخليت القاعة وحجرة شوشة ، ووضعت بضعة مقاعد فى حجرة شوشة ووضعت فى القاعة منضدة مستديرة قد غطيت بمفرش أبيض ووضعت عليها الاطباق الفارغة .. وكانت « ام آمنة » قابعة فى حجرتها جالسة على الشلتة جلستها التقليدية الحزينة الشاردة .

وشق الصبيان طريقهما إلى أعلى وكانت الزغاريد تهبط طويلة مسترسلة .. وكانت الشقة تمج بالنساء وقد توسط القاعة بضعة

مقاعد وحشيات انتظم عليها عقد العوالم وقد توسطتهن رئيستهن « الأسطى إحسان » وهي امرأة يتكون هيكلها من عدة دوائر متوازية : فوجهها قرص دائري أبيض متورد أشبه بصينية البطاطس ، وجسدها دوائر من اللحم الأبيض قد رصت فوق بعضها البعض ، وذراعاها وساقاها طيات دائرية أحاطت بها الخلاخيل والأساور .

والمرأة بوجه عام جميلة مجلجلة الصوت لا تفتأ صيحتها تنطلق رنانة بين آونة وأخرى وقد أحاطت بها صبياتها من الفتيات والمغنيات والراقصات وبجوارهن جلس عجوز ضرير في حلة سوداء وقد وضع على ساقيه قانونا أخذ يتشاغل في تسليح أوتاره وفي تجربة بعض التقاسيم .

وبدأ « سيد » يخوض وسط اللحوم البيضاء الطرية ويشق طريقه بين كتل الأرداف المنتفخة والصدور البارزة .. ولمحته أم علي فصاحت :

ـــ فين ستك أم آمنة يا سيد .. ما طلعتش ليه ؟

ـــ أظن قاعده تحت .

ـــ تحت ! .. يا ندامه ! .. ليه ؟ .. عايزه عزومه ؟ . دي ست البيت .. أوعى ياست منك لها .. أما انزل اجيبها يا نداشه .. وهي السهره تحلى من غيرها .

ـــ واندفعت أم العروس هابطة إلى أسفل ، وبعد هنيهة كانت تعود ساحبة العجوز الضريرة من يدها مفسحة لها الطريق بين المدعوات ثم هيأت لها حشية في أحد الأركان وأجلستها عليها وهي تغرقها بمظاهر الترحيب والتكريم .

وكان سيد وصاحبه يستكشفان مكان الطعام ويحومان حول المنضدة المستديرة التي توسطت إحدى الحجرات التي أخليت من أثاثها .

وقال سيد وهو يفرك كفيه رضاء وغبطة :

ـــ بس ، ولا كلمة .. خلينا لازقين في الأوده دي عشان نخش في أول دور وبعدين نطير على تحت نلحق دور تاني .

وانبعث من القاعة صوت نسائي يهتف :

ـــ ما تسمعونا حاجه يا جماعه .. والا حاتتفضلوا كده قاعدين ساكتين .. هو احنا قاعدين في محزنه والا إيه ؟

وكان الرجاء موجها إلى الاسطى إحسان .. التى انطلق صوتها الرنان يجيب على الرجاء محاولا اسكات عش النحل الذى يطن فى ارجاء المكان :

ـــ هو إيه أصله ده يا ستات .. ما تسكتوا بقى عشان نعرف نشتغل .. بت يا تفيده جاهزه والا لا ؟

واجابت تفيدة :

ـــ ايوه يا اسطى جاهزه ، بس بدور على الصاجات ، مين فيكو خد الصاجات . بت يا شربات .. أنا مش مدياهم لك ، عشان تشيليهم قبل ما تيجى هنا ؟

وصاحت شربات :

ـــ أنا مش خدامة ابوكى عشان اشيلهم لك .. متشيلهمش انت ليه .. ماسدة فى إيديكى ؟

وتدخلت الرئيسة لحسم الموضوع صائحة فيهما :

ـــ بس يا بت منك لها .. هوا دا وقت خناق .. اتلمى بلاش فضايح ، اديها يا بت يا نعيمة الصاجات بتوعك .. يالله بقى المعازيم زهقوا .

ثم امسكت بالرق وطرقت عليه طرقتين ثم أخذت تهزه فى يدها قائلة لصاحب القانون :

ـــ رقص الهوانم يا خليل افندى .

ولم يفتح خليل افندى فاه ، بل ازداد انحناء على القانون وأخذت اصابعه تنتقل بسرعة بين اوتاره . وقد اخذ نصفه الأعلى يتحرك ويهتز مع النغمات .

ونهضت تفيدة تتثنى وتتلوى ملقية عن جسدها شالها كانت تستر

به حلة الرقص ، وانفسح لها القوم رحبة وسط القاعة تباشر فيها رقصها .

وقفت الراقصة رافعة كفيها بالصاجات تقرعها بين أصابعها مع اللحن ، وتحرك نصفها السفلي المغطى بشراشيب من التل والخرز وتكشف عن فخذيها البيضاوين الممتلئين ، وبطنها الطرى المستدير الذى ينطبق عليه الوصف القديم « عجين خمران » ، أما نصفها الأعلى فقد شد بصديرى لا يكاد يلم صدرها المترجرج المكتنز .

وأخذ القانونجى الضرير يتلاعب بأصابعه ويهز جسده مترنحا ، والراقصة تتبع نغماته ، مسيطرة على كل قطعة فى جسدها محركة ردفيها وثدييها ووسطها حسب رنين الأوتار ودقات الرق .

وانتهت تقيدة من الرقص ، وانبعث سيد يصفق بيديه طربا وهو يطل بعنقه بين أجساد المعازيم وهمس فى أذن على :

ــ يا سلام يا على .. البت دى هايله !

ولم يكد ينتهى الرقص حتى بدت « الريسة » وصبياتها الغناء بعد أن نبهت خليل أفندى إلى الدور بقولها « الهؤ النؤ » .

وجرت أصابع خليل أفندى بمطلع الدور أو كما يسمونه فى لغة الموسيقيين « الدولاب » ، ثم علا صوت « الريسة » أحسان منشدا :

« الهؤ النؤ .. الها النأ .. تكايدنى ليه مالكش حق » .

وبدا الانشراح على المدعوات ، إذ كانَ الدور محببا إلى نفوسهن واشتركن فى الغناء مع العوالم مرددات قولهن : « الهؤ النؤ .. » .

وكان سيد منهمكا فى الترديد عندما توقف فجأة ، وغمز ذراع صاحبه قائلا :

ــ شايف !

ــ شايف إيه !

ــ شايف اللى طالع على السلم ف

ـــ أبوه شايف .

ـــ طيب ياالله بينا باه ، بلا الهؤ النؤ ، بلا الها النا .. ياالله بينا نقعد على الترابيزه .. انا قتيل الرز ابو سنيير ، والمهلبيه أم فزدق .

ثم تسلل من القاعة واتجه إلى الحجرة التى بها المنضدة ، وجلس على أحد المقاعد واجلس عليا بجواره ، وبعد لحظة ومك الصينية الخشبية التى أبصرها « سيد » صاعدة من السلم ، وأخذ حاملها يرص الصحاف على المنضدة و « سيد » يحملق فى كل طبق ويتلمظ .

ونظر إليه حامل الصينية شزرا وصاح به :

ـــ قوم يا واد انت وهوا من هنا ، ياالله روحوا شوفوا شغلكم .

ـــ شغلنا ! ماهو دا شغلنا .. زى ما انت شغلتك انك ترص اللى معاك على الترابيزه . احنا شغلنا اننا نرص اللى على الترابيزة فى بطننا .

ثم صاح مقهقها ، ولكن الرجل لم تعجبه النكتة فأمسك به من ذراعه وحاول جذبه بعيدا من المنضدة ، ولكن « سيد » تملص من قبضته مهددا بقوله :

ـــ حيلك .. انت فاكرنا مين ؟

ـــ يعنى تبقوا مين !

ـــ ده ابن صاحب البيت .. اخو العروسه كمان .

ـــ وانت تبقى مين ؟

ـــ اخو العريس .

وانبسطت أسارير الرجل وتكلف ابتسامة على شفتيه وأجاب :

ـــ عدم المؤاخذة .. اتفضلو بالهنا والشفا .. بس ما تجرحوش الاطباق إلا لما يقعدوا المعازيم .

ـــ وجب .. لك علينا كده .

وانصرف الرجل وأخذ « سيد » يتغزل فى الأطباق سائلا « على » بين آونة وأخرى عن هذا الصنف أو ذاك .

. واخيرا اقبلت الدفعة الاولى من الاكلات ، واندمج « سيد » بكليته فى الطعام ، واكل من الرز ، ومن غيره ، على حد قول جدته « لما وقف على ضوافره » .

وعندما انتهى من الطعام سحب صاحبه من يده قائلا :

— يالله بنا على تحت .

— لا يا عم انا مقدرش آكل لقمة بعد اللى كلته .

— يا اخى مش ضرورى ناكل نقعد كده نمزمز .. ناكل لحمه .. ننقى الصنبير والزبيب اللى فى الرز ، ناكل الفزدق من على وش المهلبيه ، يالله يا عبيط ، دا الواحد ما بيشوفش العزايم إلا كل عشر سنين مره .

وهبط الاثنان إلى اسفل . واشتركا ثانية فى احد ادوار الرجال . ولم يكن الدور ممتعا كأول دور ، ولكنه كان مجرد نأنأة كما قال « سيد » .

وبعد الانتهاء من الأكل خرجا إلى السرادق .

كان الالاتية والمغنى قد حضروا ، واتخذوا اماكنهم فى صدر السرادق وبدأت أصوات تصليح الآلات تنبعث متناثرة من هنا وهناك ، وكان المغنى — الأستاذ عبده زياده — قد ارتدى الحلة السوداء الرسمية الشبيهة بحلة المرحوم « شحاتة افندي » ، وكان الرجل مطبق الوجه مجعده ، « مقروح الجفن مسهده » .. نتيجة لرمد مزمن ، وكان الرجل يتلمظ ويحرك لسانه بين شدقيه كأنه يمص شيئا ويسلك زوره متنحنحا بين آونة واخرى .

وانبعثت الأصوات من انحاء السرادق محيية « الأستاذ عبده » سائلة إياه بعض الادوار ، وكان هو يرد التحيات رافعا كلتا يديه إلى أعلى طربوشه على طريقة « بارك الله فيكم » ويهز راسه كلما طلب منه أن يغنى دورا قائلا :

— حاضر .. حاضر .

واخيرا ، وبعد طول « تنتنة » من الالاتية وتمتمة من المطربه ..

بدأ الغناء .. منشدا دور عبد الحي حلمي : « متع حياتك بالأحباب » .. بالطريقة التوقيمية المتقطعة البطيئة قائلا :

— مت .. تع .. حيا .. تك .. حيا .. تك .. بالـ .. أح .. باب .. آه .. آه .. آه .. حبك ، (ثم كلمة مدغومة غير مفهومة ، أغلب الظن أنها ، وصل ، أو هجر ، أو غدر ، أو شيء على هذا الوزن) .

واندفع المستمعون يضجون بالصراخ ، لست تدري من فرط الطرب .. أم من مجرد الإيحاء ، أم هي مسألة واجب كان لابد أن يؤدوه ، اذ كان على المطرب الغناء ، وعلى المستمعين الصياح .

على أية حال لقد أحدث صياحهم أثره في المغني وفي السرادق كله ، إذ سرت فيه موجة طرب وجذل ، ووجد السرور صداه في كل نفس .

وعاد الأستاذ عبده يهتز ويتلوى ويقطع في الغناء ، ويتلوى منشدا : « مت ، تع ، حيا ، تك ، حيا ، تك » .

واستمر التجاوب بين المغني والمستمعين ، واستمرت موجة السرور تغمر السرادق حتى سمع المدعوون قهقهة عالية تنطلق من مدخل السرادق فتغطى على صوت المغني والآلات ، ثم أعقبتها صيحة عالية :

— هاى ، ماتعبرونا يا خلايق .

وتوقف الأستاذ عبده عن الغناء وتلفت المستمعون إلى ناحية الصوت وقد تملكهم الوجوم وبدا على وجوههم الدهش فوجدوا المعلم دنجل يقف بباب السرادق وقد أمسك بشومته وعلت شفته ابتسامة ساخرة .

وهمس المعلم عز في صوت قلق :

— الظاهر انه شارب حبتين .. ربنا يفوت الليله دى على خير .

وعاد المعلم دنجل يصيح :

— إيه مالكم كده ساكتين زى اللى نزل عليكم سهم الله ، مفيش

ـــ وله يا عبده .. أنت بقيت صاحب تخت ؟ ! . والله عال .. الله يرحم الرق اللى كنت تقعد تهز فيه طول الليله .. طب ما اعمل انا كمان مغني .. اشمعنى انت .. هو انت احسن منى .. هع .. قوم يا واد خلينى اقعد .. قوم .

ونظر المغني حوله مستنجدا .. متسائلا في نظرات مذعورة هل يخلى له المحل أم ان هناك منقذا بين الرجال .

ولم يطق الخشت صبرا واندفع كالقنبلة ، وقد أخرج من جيبه مدية طويلة وهو يهدر صائحا :

ـــ سيبونى على ابن الكلب ده .. انا أفتح كرشه .. هو مش عارف مين صاحب الفرح .. سيبونى بس .

ولكن شوشة أعترض طريقه مرة ثانية .. واطبق على ذراعه بقوة .. وصاح :

ـــ اسكت انت يا معلم خشت .. دخل المطوه فى جيبك متضيعش نفسك فى شربة ميه .. سيبولى إنا حاعرف اربيه .

ـــ سيبنى يا شوشه . سيبنى بقولك .

وصاح دنجل :

ـــ مين المره اللى بيزعق ده .. مين اللى ..

ولكنه لم يتمم قوله فقد خطف شوشة أحد المقاعد ورفعه بسرعة البرق ثم قذف به في وجه دنجل فانطلق كالصاروخ واصابت حافته جبين الرجل فنزف منه الدم كالصنبور .

كانت الضربة مفاجئة .. فقد كانت المعركة متوقعة بين « الخشت » و دنجل » ، وكان شوشة لين الالفاظ مسالم الحديث ولم يكن يبدو عليه قط انه هو الذى سيكون البادىء بالقتال .

وقبل أن يفيق دنجل من وقع المفاجأة ، وقبل أن ينتهى من تحسس جبينه واكتشاف الدماء السائلة اندفع « شوشة » هاجما عليه فأسرع الرجل بتلقيه بشومته محاولا ان يهوى بها على راسه ، ولكن « شوشة »

تلقاها بيسراه ، ثم ناوله بيمنـــاه لكمة شـــديدة إلى أعلى بطن خصمه أو ما يسمونه « فم المعدة » فصرخ صرخة مكتومة وانحنى ممسكا بطنه وقد بدا عليه ألم شديد .

وتلقى شوشة انحناءته بضربة سريعة برأسه فى وجهه .

وبدا على الرجل التسليم .. ولم يعد هناك شك فى أنه انتهى .. ولكن أحد أنصاره أسرع فهوى بشومته على ظهر شوشة .. ثم أسرع آخر فحطم أحد الكلوبات بمقعد من المقاعد وبدأ الضرب والتحطيم والقتال . وسرت موجة الذعر فى السرادق ، وعلا الصراخ ، واختلط الحابل بالنابل وما لبث الفزع حتى سرى إلى مجمع النساء فاستبدلت بالزغاريد ولولة وصراخا .

وانطلقت الصفافير وأقبل الشرطة .. وبعد لحظات أقبلت عربات الاسعاف يتقدمها رنين الجرس .

وأخيرا هدأت المعركة .. وخرجت العربة تحمل المعلم دنجل وأحد أنصاره .. وانصرف المدعوون والتخت والعوالم .. وأخذ الفراش يحل السرادق ويجمع المقاعد .. ثم ساد السكون وعاد كل شىء إلى ما كان عليه .. كأن لم يكن هناك فرح ولا مغنى ولا معركة .

وعلى الفراش جلس شوشة فى حجرته ولم يكن يتطلع إلى السماء من النافذة كعادته بل كان منهمكا فى تدليك مرفقه بالزيت من أثر الضربة التى تلقاها من شومة دنجل ، وأحس بوقع أقدام تتسلل إليه فى الظلمة والتفت فوجد ابنه سيد يقترب منه فلما وصل إليه رفع ذراعيه الصغيرتين وأحاط جسده بهما وأسند رأسه عليه قائلا فى صوت تملؤه الدموع :

ـــ إيدك وجعتك يابا .. أنا حسيت زى اما تكون الشومه نازله علىّ وهجمت على الراجل وعضيته حتة عضه .

وضحك شوشة ورفع سيدا ووضعه على حجره وضمه إليه وقبله قائلا :

ــ لكن مش علقه كويسه ؟ .

ــ كويسه وبس ؟ . . دانته دشدشته . . أنا ما كنتش فاكر انك فتوه بالشكل ده . . انا كان نفسي اشوفك بتتخانق . . دانت خبطته خبطه بالكرسي طلع من ايدك زى القنبله . . والا الروسيه اللي ضربتها له كانت مدهشه .

وربت شوشة على ظهر ابنه وقال :

ــ روح بقى نام دلوقته . . لحسن اتأخرت فى النوم .

ــ أصل بكره بطاله .

ــ معهلش . . برضك روح نام . . كفايه سهر .

وذهب « سيد » للنوم فى احضان جدته . . وجلس شوشة برهة ثم ما لبث حتى رقد فى فراشه وراح فى سبات عميق .

استيقظ شوشة فى الصباح على صوت طرقات على الباب وكان قد تعود ان يهب نفسه بعض الراحة يوم الجمعة فلا يستيقظ مبكرا كعادته ، وزادته السهرة ومعركة الليلة رغبة فى الاستمتاع بنومة طويلة واستيقاظ متأخر ، ولذا كانت أشعة الشمس تهبط من النافذة فتية والضوء يتسرب قويا عندما ذهب لفتح الباب .

ووجد أمامه رجلا يرتدي حلة صفراء رسمية اشبه بحلة السعاة ، ولم يكد يبصره الرجل حتى سأله :

ــ هوا دا بيت المعلم شوشة السقا ؟

ــ أيوه .

ــ وهوه فين ؟

ــ انا المعلم شوشه . . يلزم خدمه .

ــ صباح الخير يا معلم .

ــ صباح النور . . أهلا وسهلا .

ــ اهلا بك . . انا جاى من الشركه . . شركة الميه .

ــ خير ان شاء الله . . فيه حاجه ؟

— عايزينك تكلم فى المكتب بتاع الشركه فى شارع الفجاله .
— عشان إيه ؟ . ما تعرفشى ؟

— الظاهر انهم عايزين يسلموك الحنفيه بتاعة الحسينية ، أصل بيني وبينك الراجل « دنجل » ... باين عليه ابن كلب ، ماسترشي .. جت فيه شكاوى كتير .. كل يوم ما بيفتحش الحنفيه غير الضهر .. ده غير الخنصره اللى بيخنصرها من الإيراد .. الظاهر انهم ضبطوا عليه حاجه .. والا لقوه بيتلاعب .. الله اعلم . اهو كلام بيقولوه .. ان بعض الظن اثم .. وآخرة المتمه ، والا زى ما بيقولوا بالنحوى وثالثة الأثافى .. النهارده مارحش الحنفيه خالص ، وبيقولوا انه بات فى الاسعاف بعد خناقة أترقع فيها علقه جامده ، مين يعرف .. اهو كلام .

— لا .. ده بقى مش كلام .. ده صحيح .. أنا اللى مبيته فى الاسعاف بايدى دى .

— طيب اديهالى أبوسها .. تسلم ايدك يا معلم شوشه .. كان متفرعن أوى .. ومش حاطط واطى .. مره جه المكتب وبكلمه بالذوق ، راح مهزأنى قدام الناس ، وكان هايعتدى على بالضرب ، لولا ان انا خدتها من قصيرها .. لما لقيته قدامى زى الفحل .

— كنت تعالى اتفرج عليه امبارح .. وهو مفرش فى الأرض بالاربعه زى القتيل .

— والله براوه عليك ، يالله بينا لحسن الوقت متأخر .

— حالا . أغير الجلابيه واحط البلغه فى رجلى والف اللاسه على راسى وأجيلك .. خش اقعد استريح ، خش اشرب لك فنجان قهوه .

— لا .. لا .. مفيش وقت ، بس البس انت قوام .

ودخل شوشة مسرعا وارتدى ملابسه فى عجلة . ولم يكن هناك شك فى أن الطرب قد استخف الرجل الرزين ، وأن فرحته بالمنصبه الرفيع ، كانت أعظم من أن يستطيع اخفاءها .

لقد كان يعتبر الحنفية مقره الطبيعي وكان يرى في نفسه الوريث الشرعي لعرش المياه في حي الحسينية .

كان الكرسي مطمحه ومنتهى أمله فلما خلا مكانه ووضع فيه « دنجل » أحس أنه سلب حقه ، وأن الظلم قد حاق به ، ولكنه لم يملك ردا ولم يستطع سوى الصبر والاستكانة حتى يرفع الله عنه الظلم ويرد له الحق .

وهكذا لم يكد ينبئه الرجل بأنه قد أتى ليستدعيه لتولي العرش ، وتسلم مفاتيح خزائن المياه ، حتى فاض الفرح بنفسه ، ولم تستطع قدرته على ضبط أعصابه والتحكم في مشاعره أن تطوى موجة الفرح الظاهرة .

وعندما تم ارتداء ملابسه دخل حجرة « أم آمنة » فوجدها راكعة تتمتم ببعض الدعوات . ووجد سيدا مازال مستغرقا في نومه .

وصاح بأم آمنة في جذل :

ـ صباح الخير يا حاجه ، هوا سيد لسه ماصحيش ؟

وتقلب سيد في فراشه وفتح عينيه ، وتمطى ثم أغمض عينيه مرة أخرى ، وأجابت « أم آمنة » وهي تنهض واقفة :

ـ خير عليك يأخويا ، خليه نايم ، مادام ماوراهش كتاب .

ـ طيب أنا خارج ، رايح الشركه .

ـ شركة إيه ؟

ـ شركة الميه .

ـ ليه كفى الله الشر ؟

ـ ولا شر ولا حاجه ، أنا رايح أستلم مفاتيح الحنفيه .

ـ حنفية إيه ؟

ـ حنفية الميه ، خلاص حاستلم الكشك بدل دنجل .

ـ يا خويا ألف نهار أبيض ، مبارك ، ألف مبارك ، ربنا تاب عليك من اللف والدوران وشيل القرب .

ومرة ثانية فتح سيد عينيه وهو ما زال راقدا ، ثم تساءل فى دهشة :

— فيه إيه ! ربنا تاب عليك من شيل القرب ليه !

وضحك شوشة وأجاب :

— خلاص بقيت من أصحاب الأكشاك .

وقفز سيد من فراشه وصاح فى دهشة :

— بالذمة صحيح . . حاتقعد فى الكشك بدل دنجل ؟

— أمال . . احنا شويه فى الحته والا إيه !

ولم يجب سيد فقد اندفع يصفق بيديه ويطوف بالحجرة راقصا وهو يصيح :

— ول . . يا ول . . ول . . يا ول .

ثم التفت إلى أبيه متسائلا :

— ودنجل راح فين ؟

— فى الاسعاف . . العلقه بتاعة امبارح جابت خبره .

وتمتمت أم آمنة :

— عشان ما يبقاش يتعدى على الناس ، ويسود لياليهم ربنا ما يسيبش ظالم أبدا .

وخرج شوشة إلى الرجل « مندوب الشركة » ، وسار الاثنان عابرين درب القط إلى درب عجور . وفى الطريق سأل شوشة :

— ماتعرفناش بالاسم الكريم .

— محسوبك خليل . . محمد خليل الشنوانى .

— أهلا وسهلا . . محسوبك شوشه الدنك .

— تشرفنا يا معلم شوشه . . أنت حضرت التامين معاك ؟

— التامين ؟اى والله فكرتنى . . دانا ناسى الحكايه دى خالص . هوا يطلع كام التامين ؟

— أظن حوالى ميه وخمسين قرش .

— كده خبط لزق ؟

ـــ اهو كده تقريبا .

وتمهل شوشة فى سيره متفكرا .. هذه مسألة لم يعمل لها حسابا .. مائة وخمسون قرشا دفعة واحدة .. من اين له بهذا المبلغ وكل ما يملكه فى جيبه لا يزيد على الثلاثين قرشا . لو ان الرجل اتى إليه بالأمس أو اول أمس لكان فى استطاعته دفعها بسهولة ، فقد استطاع ان يقتصد من اجر الجنازات ما يقرب من المائة قرش ، ولكنه دفعها بالأمس لشراء ترب جديدة ولتصليح العربة .

وكان قد وصل فى سيره إلى دكان « المعلم خشت » ووجد الرجل قد اخذ فى تعليق اللحوم فى واجهة الحانوت ، ولم يكد يراه حتى قذفه بتحية عالية صارخة :

ـــ ازيك يا معلم شوشه .. صباح الخير .. على فين كده . شايفك لابس ومتشمع ؟

وهنا وجد شوشة انه لن يحل مشكلته سوى المعلم « خشت » .. انه رجل كريم خير ، ولن يبخل عليه بالمائة وخمسين قرشا .. ما دام يملكها ، ولكن اتراه حقا يملكها ام تراه قد استنفد كل ما معه فى فرح الامس ، واصبح « على الحديدة ! » .

اجل .. اجل .. ان من المستبعد ان يكون المعلم خشت مالكا فى مثل هذه « الصباحية » لمائة وخمسين قرشا .. أو حتى لمائة وخمسين مليما . ان سوء الحظ يأبى الا التدخل . افلم يكن من الخير أن تتحقق الأمنية منذ بضعة ايام قبل الانتهاء من الفرح ؟ ولكن كيف كان يمكن حدوثها قبل الفرح ، وسنجل لم يذهب إلى الاسعاف إلا نتيجة الفرح ، ونهجمه على الفرح ، وضربه وعراكه مع أهل الحى ؟

على أية حال .. لا داعى لكل هذا التشاؤم .. ليجرب سؤاله .. لمن يدرى .

واتجه إلى الدكان معتذرا « لخليل » بقوله :

ـــ إذنك يا عم خليل افندى .. دقيقه واحده .

ـــ احنا مستعجلين أوى يا معلم شوشه ، مافيش وقت .

ـــ حالا ، دى كلمه واحده ، أصلها حاجه مهمه أوى .

ثم أسرع إلى « المعلم خشت » فتلقاه الرجل فى شىء من الدهش قائلا :

ـــ إيه الحكايه ؟ مالك مطقم كده ليه ؟

ـــ أصلى رايح الشركه .

ـــ ليه ؟

ـــ معتولى دلوقت عشان استلم الحنفيه بدال دنجل .

وتلقى « المعلم خشت » الخبر بتصفيقة من يده ـــ وصاح فرحا :

ـــ حلو .. أهو كده الشغل والا بلاش .. أمال . ادى العيش لخبازينه .. مش يجيبوا مطيباتى يشغلوه سقا ، مبروك يا معلم ، ألف مبروك .

ـــ كتر خيرك يا حاج .. بس كان فيه حكايه كده .

ـــ إيه ؟ فيه إيه ؟

ـــ والله طلب مكسوف اطلبه منك .

ـــ متقولش كده عيب .. احنا أهل .. رقبتى .

ـــ الحكايه لازم لها مايه وخمسين قرش تأمين .. ما معيش منهم غير ريال .

ووجم « المعلم خشت » برهة ورفع يده وأخذ يعصر رأسه ثم ضرب جبينه بكفه وتهللت أساريره وهتف قائلا :

ـــ بس ولا كلمه .. فرجت .. برشك تقدر تحلها .. خد .. ادى مايه وخمسين قرش معايه كنت شايلهم للفراش .. لكن خد ، فوز بيهم انت ، ولما ييجى الفراش ييقى يفرجها ربنا ، الحمد لله .. أنا كنت فاكر مامعيش ولا مليم ، وعز على أن أرد طلبك ، ولكن الحمد لله ربنا سترها .

ثم مد يده فدفعها فى حافظة نقوده وأخرج المائة وخمسين قرشا

وأعطاها « لشوشة » ، وتردد « شوشة » فى أخذها قائلا فى كثير من الخجل :

ـــ لكن يا معلم حاتعمل إيه مع الفراش ؟

ـــ خد يا شيخ خد ، يحلها سيدك .. ياالله روح استلم شغلك ، احنا ديكى الساعه لما نشوفك قاعد على الحنفيه وربنا يتوب عليك م اللف والمرمطه .

ـــ كتر خيرك يا معلم .. ربنا مايحرمناش منك أبدا ، ربنا يقدرنا على رد جميلك .

وأسرع « شوشة » إلى « خليل أفندى » وسارا حاثين الخطا إلى مكتب الشركة بالنجالة حيث انتهى الاجراءات الشكلية ، ثم عاد مسرعا إلى الحنفية فوجد الزبائن متكاكئين حولها فى شبه مظاهرة وهم يتصايحون شاكين متبرمين ، ولم يكادوا يبصرون « شوشة » فى جلبابه النظيف ولاسته وبلغته بلا عربة ولا قربة حتى تساءلوا فى دهش :

ـــ إيه الحكايه ؟ مالك كفى الله الشر ؟ عيان والا إيه ؟

ثم قال أحدهم :

ـــ شايف الرجل النصاب لغاية دلوقت ملجاش !

وقال آخر :

ـــ لازم بايت فى السجن .

وقال ثالث :

ـــ والا فى الاسعاف .

وقال رابع :

ـــ والا فى بيت حسر .

وقال خامس :

ـــ والا فى غرزه .

ولم يجبه « شوشة » بل تقدم فى خطوات ثابتة متزنة ووجهه عليه سيماء الطرب قائلا فى لهجة حازمة :

ـــ وسع منك له .. خلينا نشوف شغلنا .

فأجاب صوت ساخر :

ـــ شغلك إيه يا عم ؟ إذا كان صاحب الأمر لسه ما صحيش م النوم .. تعال اركن جنبنا هنا .

ولكن « شوشة » استمر في سيره حتى وصل إلى الحنفية وارتقى السلم إلى المقعد خلفها ، ثم جلس في تؤدة وفتح الحنفية قائلا في لهجة آمرة :

ـــ اقفوا ورا بعض صف واحد .. الستات قدام والرجالة ورا .. مش عايزين زحمه ومش عايز زيطه . اللي حايطلع من الصف مش حاصرف له إلا في الآخر .

وبهت القوم .. ثم ما لبثوا حتى تهللت أساريرهم وصاح أحدهم :

ـــ أنت حاتقعد هنا على طول يا معلم شوشة ؟

ـــ إن شاء الله .

فهتف صائحا :

ـــ يعيش المعلم شوشة .

وردد الجميع :

ـــ يعيش المعلم شوشة .

ثم تعالت الصيحات من هنا وهناك : « مبارك يا معلم » . « بركه اللي غار في داهيه » ، « الحمد لله » ، « الف نهار أبيض » .

* * *

وهكذا تربع « شوشة » على العرش ، واستوى على أريكة المياه ، وبلغ أمنيته الكبرى ، وأضحى المانح المانع للمياه في حي الحسينية ، وكفاه الله شر اللف في الدروب والجري في الحواري ، واستقر به المقام ، واطمأن به الحال .

وكان حريا والامر كذلك ان يتلع عن عمله الآخر ، وهو السير فى الجنازات وتشييع الموتى وحمل القماقم وزيارة القبور ، فما كان مركزه الجديد يلائم تلك « المرمطة والبهدلة » وما عادت به من حاجة إلى المزيد من النقود التى يتقاضاها من الجنازات بعد أن زاد دخله زيادة محسوسة .

ولكنه مع ذلك ــ ولدهشة كل من حوله ــ استمر فى عمله الاضافى المشئوم ، وكان لا يكاد يغلق الصنبور ويعود إلى الدار حتى يخرج مرة ثانية حاملا صرة الشغل متوجها إلى قهوة الافندية .. حيث يعينه الحاج سرور فى الجنازات المطلوبة .

لقد اعتاد شوشة عمله فى الجنازات ، وسره أن ينتصر على المخاوف القديمة والرهبة الموهومة ، وسره أن يتحقق قول شحاتة وأن يجد المسألة بعد ان جردت مما علق بها من اوهام .. قد اضحت هينة تافهة ليس بها ما يخيف أو يروع .

لقد سره أن ينتصر على الموت ، وان يصبح كشحاتة . رجلا شجاعا .. ازيلت عن عينيه غشاوة الوهم .. فنفذ ببصيرته إلى الحقيقة العارية .. وكشف عن روعته الزائفة وروض نفسه على قبوله ، كأمر طبيعى .

لقد بات يحتقى الموت ، ويحتقر ــ أكثر منه ــ الحياة .

واثار استمراره على السير فى الجنازات ، اقاويل الناس ولغطهم ، ولكنها ــ كما كانت فى المرة السابقة عند بدايته العمل مجرد اقاويل ولغط ما لبثت حتى بددتها الأيام وذرتها ريح النسيان .

امرؤ واحد .. هو الذى لم تستطع الأيام ان تبدد من ذهنه أثر العمل ، بل زاده عمقا وتأثيرا .

كان سيد يكره تلك المشاوير الجنائزية ، ويكره ان يبصر اباه خارجا بالصرة اياها ، ولكنه كان يلتمس بالحاجة عذرا لابيه ، وينتظر بفارغ الصبر يوم يجلس ابيه فى الكشك فيغنيه الله عن ذلك العمل الرهيب ويصبح فى غير حاجة إلى دريهماته المشئومة .

فلما من الله عليهم بمطلب العمر وحقق لهم الأمنية المنشودة .. طارت نفسه فرحا ، وحمد الله أن خلصهم من الجنازات والأموات . ومن كل ما يتبعها من أقاويل الناس وسخريات الصبية وغمزهم ولمزهم ، وذهب إلى حجرة الصحارة فركل الصرة بقدمه ثم تفف بها داخل الصحارة قائلا في شماتة :

ـــ ربنا تلب علينا منك .

ولكنه لم يتمتع بفرحته طويلا .. فلشد ما أذهله أن يجد أباه في اليوم التالي قد حملها في يده وخرج كعادته بعد الظهر .

وهم بالعدو وراءه لاستبقائه وتأنيبه ، ولكنه كان يعرف أباه .. يعرف حزمه وإصراره وصرامته ، فكبت غيظه في صدره وخرج يتسلى باللعب مع أترابه بجوار السبيل .

ومرت الأيام وعادت العجلة تدور دورتها الطبيعية .. شوشة وراء الصنبور صباحا ، ووراء الموتى بعد الظهر ، وسيد في الكتاب صباحا وفي لعبه حتى المساء ، وأم آمنة قابعة في مكانها محنية الظهر مطأطأة الرأس مسندة ذقنها إلى خدها .

وفي ذات صباح خرج سيد كعادته إلى الكتاب وقد أمسك بلوح من الصفيح .. وسار بجوار علي الخشت يتبادلان الحديث في شتى توافه الأمور عن الشيخ عبد الرسول وجرادة والبلي والنحلة ، والكرة الشراب وإبراهيم المعيرجي ودقدق .. الخ ...

وعندما وصلا إلى بائع البليلة توقف علي وقال لسيد :

ـــ انت عليك الدور النهارده .

ـــ ازاي بقى ؟

ـــ أنا مش موكلك امبارح ؟

ـــ وأنا مش مديلك عشرين بليه امبارح ؟

ـــ ماانا خسرتهم ، وخدتهم انت تاني .

ــــ وانا مالى . أهم محسوبين عليك . هو انا كمان مسئول عن خسارتك . حد قال لك العب واخسر ؟

ــــ يعنى مش حاتوكلنا ؟

ــــ انا مستعد أوكلك لو كان معايا فلوس . . لكن ما معييش ، وكلنا انته النهارده وانا لك على أوكلك بكره وبعده .

ــــ لا يا عم لا توكلني ولا أوكلك . . انا رايح آكل لوحدى .

ــــ طب سلفنى نكله ؟

ــــ مابيسلفنش حد .

ــــ طب هات تمن البلى ؟

ــــ مش جاديك حاجه .

ــــ يعنى مافيه !

ــــ أيوه مافيه .

ومد « سيد » يده فأمسك بتلابيب « على » ومد « على » يده فأمسك بتلابيب « سيد » ، وهمت المعركة بأن تدور لولا أن مر بهما « المعلم على الحمى » وتدخل بينهما مخلصاً كل منهما من قبضة أخيه ، زاجراً اياهما بقوله :

ــــ يا واد عيب منك له . . دانتو ولاد حته وجيران ، ميصحش .

وتخلص « على » من المعركة واتجه إلى بائع البليلة ، واتخذ سيد طريقه إلى الكتاب وحيداً وهو يحرق أرم الغيظ بعد أن حرم من طبق البليلة دون صاحبه .

وعندما ذهب « على » إلى الكتاب بعد أن انتهى من طبق البليلة واجتاز الباب إلى الفناء ، وجد سيداً واقفاً أسفل النخلة ، وقد التف حوله ثلة من الصبية لم يكادوا يبصرونه حتى أخذوا فى التهامس ، وتعالت من بعضهم ضحكات عالية .

واقترب « على » فى حذر وهو يتوجس خيفة شاعراً أن مكيدة قد

دبرت له وأن خطرا يوشك ان يحدق به ، فلم يكد يصل إليهم حتى أحاطوا به وأخذوا يصفقون بأيديهم وينشدون ما يشبه اللحن قائلين :

علي يا علي   يابتاع الزيت
وأبوك يا علي   ركبسه عفريت
وامك يا علي   ماشيه ع الحيط
علي يا علي   يا بتاع الزيت

واحمر وجه « علي » وبدت عليه سيماء الغضب وهو يرى نفسه محاطا بتلك الحملة الساخرة التي قادها ضده سيد نتيجة لرفضه مشاركته الليلة .

واستمر الصبية في مظاهرتهم الماجنة الصاخبة حتى دق الجرس ودخلوا الفصول ووراءهم « علي » باكي العين .

ومرت الحصة تلو الحصة ثم حلت فسحة الظهر وتفرق الصبية في أرجاء الفناء ، ولكن البعض كانوا يحيطون بعلي وقد اخذوا يتهامسون ، وبدا لسيد ان هناك مؤامرة تدبر للرد على مؤامرة الصباح وأن عليا اخذ يجمع حوله الانصار .. فقد كانت أصابع موز الحلوى وبراغيت الست تفرق بكميات وفيرة دفع فيها كل ما معه من ملاليم .

ولم تمض هنيهة حتى تكتلت الانصار حول « علي » ، ووجد سيد نفسه وحيدا وأخذ يرقب الصبية وهم يتهامسون ويتصايحون وحاول جهده أن يستنتج ماذا يمكن أن يكيدوا له ، حتى يستعد لاجراءات مضادة .

وفجأة بدأت المؤامرة ، فقد انتشر الصبية وأحدقوا به كما سبق أن احدقوا بخصمه ، ثم بدءوا نشيدهم الساخر ، بنغمة مختلفة ، ولفظ مختلف قائلين :

ابوك السقا مات
بيمشي في الجنازات

ويوصـــل الامـــوات
أبـوك الســتا مــات

وفوجىء سيد بأقوال الصبية مفاجأة شديدة . فقد مست منه موضعاً شديد الحساسية ، ونكأت فيه أوجع الجروح .

لم يأخذ « سيد » كلام الصبية على أنه لهو ومزاح .. وقول طلقش ماجن .. بل انطبعت فى ذهنه فى لمح البرق صورة أبيه يحمل الصرة ، ثم صورته وهو يرتدى الحلة المشئومة ويسير أمام النعوش ويصاحب الموتى ويجول بين القبور ثم صورته وهو مستلق ، كما استلقى شحاتة من قبل .. بلا حراك .. ولا أمل فى حراك .. بل جثة هالكة مفقودة ، لا تلبث حتى توضع فى صندوق وتحمل على الأعناق ثم تغيب فى باطن الارض .

ومن ؟ . من الذى يحدث له كل هذا ؟

أبوه الحنون الطيب الحازم المرهوب القوى .. الذى حطم الرجل النحل وأطاح به إلى الاسعاف !

أبوه !! نموذج الأحياء ، بل هو نفسه الحياة ، وبغيره لا تكون حياة .. يضيع منه كما تضيع البلية التافهة أو الكرة القديمة . يضيع منه أبدا . يضيع نهائيا . بلا أى أمل فى عودة .

أبوه نفسه ، يغيب فى باطن الأرض ، ويدفن كالقمامة والديدان ! لعنة الله عليهم أجمعين .

انه لا يأبه للشتائم والسخريات والمزح .. بل هو نفسه أطول الصبية لسانا وأقذعهم سبابا ، ولكن السباب شىء ، وهذه الاقوال المروعة شىء آخر .

لو انهم قالوا له « يلعن أبوك » أو حتى « يا ابن الكلب » أو أنهم سخروا منه بأقسى ما يشاءون من الهزء والسخرية ، لاستطاع الاحتمال .. فهو قد تعود منهم الشتائم والسخرية ، وهو أيضا البادى بالشتيمة ، والضارب مضروب ، والشاتم مشتوم .

أما أن يقولوا على أبيه مثل هذا القول المروع ، الذي يبدو كأن له صلة كبيرة بالواقع ، وأنه محتمل الحدوث .. فهذا ما لم يستطع عليه صبرا .

واندفع « سيد » باكيا وأقبل على الصبية يمعن فيهم ضربا ، ولكن الخبثاء أمعنوا في الضحك والصياح ، وكلما ازداد هياجه ازداد مجونهم ومرحهم ، حتى كل من الصياح والضرب والهياج والبكاء ، فعاد إلى فصله وجلس على تختته وحيدا يبكي بمرارة .

وكان هياجه وبكاؤه أبعث للصبية على التمسك بالأنشودة والاصرار على ترديدها ، والامعان فيها ، فلو أن « سيدا » قابلها ببرود وهدوء ، لملوا منها سراعا ، ولكن انتاجها فيه هذا الأثر الباهر السريع ، جعلهم أكثر تشبثا بها وجعله ألعوبتهم كما يتخذون من الأبله الهائج والمجنون المندفع ، موضع تسلية ووسيلة لهو .

وعندما انتهت الدراسة ، عاد « سيد » إلى البيت مشيعا .. بالأنشودة إياها ، وهو يعدو وراء الصبية ويقذفهم بالحجارة وبكل ما تصل إليه يده .. وفي البيت أمضى بقية اليوم حزينا مهموما ، ولم يحاول الخروج للعب .

وفي اليوم التالي تكرر الأمر ، وعاد « سيد » إلى البيت أشد حزنا ، وأكثر غما .. ولم يحاول الخروج للعب ، حتى دهشت « أم آمنة » وصاحت به متسائلة في انزعاج :

— مالك يا سيد .. انت عيان ؟

— لا .

— أمال مالك ؟ تعالى وريني أورنك لما اجسها .

— قلت لك مش عيان ولا حاجه .

— أمال ما بتخرجش تلعب ليه مع العيال ؟

— علشان عندنا سوره لازم احفظها .

ـــ طيب يا خويا ربنا يهديك وينجحك .. القرآن مفيش أحسن منه .

وكان اليوم يوم خميس ، ولم يكن أبوه فى البيت ، وكان واثقا أنه قد خرج إلى أحدى الجنازات ، إذ لم يجد للصرة المندوسة أثرا فى حجرة الصحارة .

وقبيل المغرب عاد أبوه ، وقد تحقق ظنه .. فقد دخل الرجل من باب البيت .. ليس حاملا الصرة فقط .. بل ـــ شرا من ذلك ـــ مرتديا الحلة نفسها ، وواضعا الجلباب تحت ابطه .

ولم يحتمل « سيد » أن يراه بمنظره هذا ، فأوى إلى مضجعه ووضع رأسه فى الوسادة واندفع فى البكاء .

وفى مخبئه سمع صوت أبيه يسائل « أم آمنة » :

ـــ أمال سيد فين .. مارجعشى من بره ؟

ـــ دا جوه عندك ، مخرجش أبدا .

ـــ ليه .. كفى الله الشر ؟

ـــ آل بيحفظ سوره .

ـــ ما شاء الله ، ربنا يهديه .

ثم علا صوت أبيه منادياً :

ـــ سيد .. سيد .

واسرع « سيد » بكفكفة دمعه ومسح أنفه بكم جلبابه ، ثم أجاب على أبيه :

ـــ أيوه يابا .

ـــ انت فين ؟ تعالى .

ـــ حاضر يابا .

وتريث « سيد » برهة ريثما يذهب عنه أثر البكاء ، ثم حمل اللوح معه وذهب إلى حجرة أبيه .

وفى الحجرة وقف يرقب الرجل ، وهو ينزع عنه ملابس الاموات ، وعندما رآه الرجل قال مازحا :

ـــ هيه يا شيخ سيد .. حفضت السوره .. ربنا يجعلنا من بركاتك ، ادعى لنا « يا شيخ سيد » .

ودعا الصبي بحرارة من صميم قلبه :

ـــ ربنا يخليك يابا ، ربنا يطول عمرك .

ونظر الأب إلى عيني ابنه .. فلمح على الضوء القريب الباهت المتسلل من النافذة احمرارا ينبيء عن آثار بكاء .. فتساءل في دهش :

ـــ ايه ده ؟ . انت كنت بتعيط ؟

ـــ لا يابا .. دا اصل عيني انطرفت ودعكتها .

وارتدى الأب جلبابه ، ثم جلس على حرف الفراش ، وقال « لسيد » متباسطا :

ـــ حفضت سورة إيه ؟

ـــ عم .

ـــ انت لسه في جزء عم ؟

ـــ خلاص ختمناه النهارده ، وحانمسك في تبارك .

ـــ طب اسمع بقى يا عم .. ما دام ختمت جزء عم .. إيه رأيك لو نخرج نتفسح سوا .

وبدا البشر على وجه الصبي وتهللت أساريره وتبددت منه سحب الهم التي أثقلت نفسه وصاح في فرحة ظاهرة :

ـــ بحق وحقيق ؟

ـــ أمال .

ـــ حانتفسح فين ؟

ـــ تروح القهوه معايا .

ـــ ودي نسحه دي .. تتفضل انت تلعب في طاوله .. وانا قاعد انش .. لا يا عم ما تتغمنيش الفسحه دي .

ـــ امال تروح فين ؟

ـــ نروح التياترو اللى اتنصب فى الحته الفاضـيه اللى قدام البوابه .. بيقولوا فيه حاجات هايله .

وصمت الاب برهة وبدت عليه سيما التفكير كأنما يزن قول ابنه ثم هتف فجاة :

ـــ اسمع يا سيد .. إيه رايك لو نروح الحمام .. احنا بقالنا مده مارحناش ؟

وصاح سيد فرحا :

ـــ هايله .. يا سلام يابا .. انا كان نفسى اقول لك من زمان لكن خايف تقول لى لا .. لحسن تغرق فى المغطس .

وضحك شوشة قائلا :

ـــ انت فاكر .. آخر مره ، لما كنت حاتغرق .. لكن انت كبرت دلوقت وطولت مافيش خوف خليك ، اقف كده وريني طولك .

وقفز سيد واقفا وهو يشب على اطراف اصابعه وقال ضاحكا :

ـــ شايف .. إيه رايك مش بقيت اطول منك ؟

ـــ بزمان ، مش معقول المغطس يغرقك .

ـــ بس اسمع انا عايزك تعلمنى العوم .

ـــ حاضر .. يالله بينا .

ـــ أما اقول لستى عشان تحضر لنا غيار .

ـــ وعايزين توضب لنا عشوه كويسه ناكلها هناك بعد ما نستحمى .

ـــ وجب .

وخرج الاثنان من الحجرة فى فرحة ظاهرة ، واتجه سيد إلى جدته يتراقص متواثبا وارتمى بين احضانها قائلا :

ـــ ام آمنه يا ويكا .. رايحين الحمام يا ويكا ، وحنتعشى هناك يا ويكا .. وحانسيبك لوحدك يا ويكا .

ـــ ولزومه إيه الحمام دلوقتى بس . دى الدنيا بردت .. ما اسخن لكم ميه فى الصفيحه ، وتستحموا هنا وتستكنوا فى الاوده .

ـــ طب بس وحياة أبوكي بلاش الشوره المهببه دى ، بلا صليحه .. بلا هباب .. هو انتي غاويه شقا .. احنا حانروح نعيسوم فى المغطس .. الغيار فين ؟

ـــ أهو عندك فى الصندوق .. خد لك لباس وفانله وجلابيه وخد الصديرى الصوف وخد كمان الجاكته القديمه بتاعة أبوك عشان تلبسها وانت خارج ، وخد الطاقيه معاك لحسن راسك تبرد ، وقول لابوك ياخد البالطو معاه وياخد الشال .. أنا عارفه بس لزومه إيه الحمام ده ؟

ولكن « سيدًا » تركها وهى فى منتصف الحديث واندفع يخطف ملابسه من صندوق الملابس ، وبعد لحظة كان يقف أمام أبيه متعجلا :

ـــ يالله يابا .. أنا جاهز .. انت جاهز ؟

ـــ يالله بينا .. خليلك بعافيه ياأم آمنه .

ـــ الله يعافيك يابنى .. خد بالك م الولد كويس . لفه كويس وأوعى يستهوى منك .. بس هوا يعنى كان لزومه أيه .. ما كنت اسخن لكم ميه فى ...

ولكن « سيدا » سحب أباه بسرعة إلى خارج الدار قبل أن يسمع بقية الاقتراح ، وسار الاثنان عابرين درب القط إلى درب عجور إلى شارع البغالة إلى الحسينية ، وفى الطريق ابتاع المعلم شوشة من عربة الكفتة الواقفة على ناصية الشارع رغيفين ملأهما بالكفتة والمبار والكبدب وبعض قطع الطرشى ولفهما فى ورقة وتابط اللفافة متجها إلى الحمام .

كيف ماتت

وصل شوشة إلى حمام الحسينية والشارع مزدحم بالباعة والمارة ، وعلى باب الحمام قد وقفت « عربة بطاطا » قد اتكأ صاحبها بإحدى قدميه على يد العربة ، ثانيا ركبته ، ممسكا بإحدى يديه « جوزة » وجعل يشد منها النفس بعد النفس وقد رصت البطاطا النيئة فوق العربة ووضع في ركن منها الفرن الأسود ذو المدخنة وقد احتشدت في جوفه البطاطا اللينة الحلوة الحارة المكتنزة كأفخاذ الغيد وأخذ ينفث الدخان في الجو كزفرات العشاق .

وبدا الحمام بنوافذه ذات القضبان الحديدية المتقاطعة والضلفة الخشبية المغلقة التي علتها الأتربة وخيمت عليها العناكب ، وفوق الباب قد وضع مصباحان زجاجيان علق كل منهما في أحد الأجناب .

وهبط « شوشة » بضع درجات دائما الباب الزجاجي ، وعبر ممرا ضيقا أفضى به إلى قاعة رحبة غير منتظمة الشكل قد رصت بها دواليب خشبية قديمة وضعت بها المناشف ، وعلى الجانب الأيمن للقاعة مصطبة فسيحة عريضة أقيمت على حافتها أعمدة ضخمة مستديرة واصلة إلى السقف المرتفع ذي الضلف الزجاجية ، وعلى المصطبة تمددت بضعة أجساد ملتفة بالمناشف وكأنها جثث لا حراك بها ، وبجوار الأجساد الممددة التي انتهت من الحمام وقف بضعة رجال يخلعون ملابسهم ويلفون

البشاكير حول خصورهم ساترين نصفهم الأسفل استعداداً لدخول الحمام .

وعلى يسار القاعة وفى مواجهة المصطبة ذات العمدان ، أو حسب الاصطلاح الفنى « اللوان » توجد حجرة زجاجية يصعد إليها ببضع درجات يستعملها الخاصة من المستحمين بدل اللوان .

ولما كان المعلم شوشة يعتبر من خاصة المستحمين لا سيما بعدما تسلم الحنفية فقد أمسك ابنه واتجه إلى الحجرة بعد أن ألقى بضع تحيات إلى موظفى الحمام وإلى بعض المعارف من الزبائن ، وكانت الحجرة محاطة بالارائك الخشبية التى صفت عليها الحشيات وغطيت بالملاءات المحلاوى الحائلة اللون وقد تمدد على الأرائك بعض أفراد من المستجمين ، وكان أحدهم يرقد على وجهه وقد وقف بجواره رجل من عمال الحمام انهمك فى تدليكه وتكبيسه ، وبين آونة وأخرى تسمع طقطقة من عظام الرجل وتنهيدة راحة من شفتيه .

وفى جانب الحجرة الخالى من الأرائك وبجوار النافذة المطلة على الشارع والمغلقة الزجاج وضع « كنصول » .. ذو مرآة مغبشة مشققة مهشمة الحروف ورف خشبى ذو قوائم مكسورة موصولة مدهونة باللاكيه القرنفلى المترب .

وأخذ شوشة وسيد فى خلع ملابسهما ولف كل منهما منشفة حول نصفه الأسفل ومنشفة أخرى حول صدره ورأسه ، ولفا الملابس القذرة فى صرة سلماها لأحد عمال الحمام الذى وضعها فى دولاب بالحجرة وكذلك تسلم منهما الملابس النظيفة فوضعها فى دولاب آخر .

وهبط الاثنان من الحجرة الزجاجية وعبرا الفناء أو القاعة متجهين إلى باب الحمام ، ودخلا إلى حجرة بها مصطبة تمدد عليها عدد آخر من الجثث المستحمة ، ودهليز يفضى إلى باب آخر فى المواجهة وقد ملىء جوها بالبخار وبدا سقفها مقبباً ذا عوينات زجاجية .

كانت هذه هي « باب أول » حيث الحرارة وسط بين الحمام وخارجه ، كي يستريح المستحمون برهة فوق المصطبة حتى « تستهدى » أجسامهم وحتى لا يتعرضوا للبرد بانتقالهم المفاجيء من الحمام الحار إلى الصالة الباردة .

ونزع شوشة وابنه المناشف عن جسديهما ووضعاها على المصطبة ثم دلفا من الباب المواجه إلى الحمام نفسه .

وفوجيء « سيد » ببخار كثيف ثقيل يعتم الجو ويحجب ضوء بضعة الفوانيس المتناثرة في أرجاء الحمام ، ونفذ البخار الثقيل إلى أنفه وحنجرته فاندفع في سعال شديد ضايق أنفاسه .. ولم يستطع احتمال البقاء فصاح بأبيه وهو يسعل :

— آبا .. مش قادر .

وضحك الأب وجذبه من يده :

— خش ما تخافش .. دلوقت تتعود عليه .. ما انتش عاكر المره اللي فاتت برضه عملت كده ؟

— مافيش حاجه بتضايقني في الحمام غير الدخان ده .. مافيش حمام من غير دخان ؟

— ويبقى حمام إيه ده .. البخار ده هوا اللي بيدفيه ويخليه حمام .

وبدت في الحمام من الداخل رحبة يتوسطها إيوان رخامي مستدير في منتصفه نافورة وقد رقد على الإيوان رجل عار وقف بجواره عبد الله المكيساتي الشبيه بعفاريت الليل .. بارز عظام الوجه والجسد ، يتصبب جبينه عرقا وقد أدخل في يمناه كيسا جلديا أشبه بالقفاز وأخذ يدلك جلد الرجل الراقد بعنف وقوة وفي كل دعكة يخرج منه أقذارا بروبة سوداء يلقي بها بجوار الإيوان .

ويحيط بالرحبة أبواب تفضي إلى مختلف أنحاء الحمام فالباب الأول يقود إلى المغطس الحار وهو عبارة عن حجرة ضيقة يصعد إليها الداخل

ببضع درجات ثم يجد في ارضها حفرة متسعة مليئة بالمياه كأنها قد حفرت في الصخر تملأ رحاب الحجرة إلا حافة ضيقة تحيط بها كالممشى والماء يتساقط من ماسورة في السقف المقبي ذي العوينات الزجاجية ، ودرجة حرارة الماء في المغطس تكاد تصل إلى درجة الغليان .

اما بقية الأبواب فيفضي احدها إلى المغطس العادي وهو اوسع من المغطس الحار واقل حرارة ، والابواب الاخرى تفضي إلى خلوات بها احواض مياه وصنابير يغتسل فيها الزبائن .

وكان المستحمون قد انتشروا في أرجاء الحمام ما بين مغتسل وغاطس وداعك بالليفة والصابونة ، وكانوا يبدون بأجسادهم الكرشاء السمينة او العجفاء النحيلة وقد لفهم البخار الثقيل كأنهم أشباح او جن يتحركون بلا صوت ولا همس .

وذهب شوشة وابنه إلى المغطس العادي وهبط الرجل بجسده في الماء ثم تلقى ابنه بين ذراعيه واخذا يعبثان في الماء الساخن ضاحكين مرحين وبعد برهة قال شوشة :

— انا حاطلع بقى عشان اتكيس ، وانت تروح تليف نفسك كويس .

— ما تخلينا هنا في المغطس أحسن .

— المغطس ما يطلعش الوساخه .

— مش ضروري .. عنها ما طلعت .. احنا عايزينها تطلع ليه ؟ احنا بندفع عليها أرضيه !

— يابني حد ييجي الحمام ولا يطلعش الوساخه اللي على جتته .. دي النظافه من الإيمان .

— بس إيه دخل النظافه في الإيمان يابا .. ما تخلينا في المغطس مستريحين وسيبك من الوساخه .. دي طلعت ما طلعتش عنهما ما طلعت .

— عايز تقعد في المغطس خليك .. انا حاروح اتكيس علشان أفوق وأستريح .

وخرج شوشة من المغطس وكان عبد الله قد انتهى من تكييس الرجل الراقد على الفسقية . . فاستلقى شوشة مكانه وتلقاه المكيساتى مرحبا بقوله :

ـــ أهلا وسهلا . . والله زمان يا معلم . . بقالنا مده ما شفنكش .

ـــ مشاغل الدنيا يا عم عبد الله . . والله ان كان على ماسيبش الحمام أبدا . . لكن فين الوقت .

وبدأت عملية التكييس ، وشوشة مستسلم ليد الرجل فى استرخاء وخمول ، وظل الرجل يدعك فى جسده بالكيس حتى كاد يجلطه ، وأخيرا نهض شوشة واتجه إلى المغطس ليخرج سيد .

وذهب الاثنان إلى أحدى الخلوات ، ولم يكد سيد يرى الليفة والصابونة حتى بدا عليه الغم وتمتم قائلا :

ـــ آدى عيبه . . جالك الموت يا تارك الصلاة .

ثم قال لابيه :

ـــ ما بلاش يابا حكاية الليفه والصابونه ؛ انت حاتعمل زى ستى . . هوا الصابون دا ورانا ورانا .

ـــ ما تخافش مش حاجيب الصابون نواحى وشك . . أنا حاليف جسمك قوام واغسل انته وشك .

وأخيرا انتهى الاثنان من الاغتسال بالليفة وصبا على جسديهما من الماء ما أزال الصابون ، ثم اتجها إلى المغطس مرة ثانية فأخذا يتمتعان بالتلوى فيه والاسترخاء واللعب ، ثم أخرج الأب ابنه قائلا :

ـــ أظن كفايه بقى . . يالله بينا ؟

ـــ يالله .

وجفف كل منهما جسده باحدى المناشف ، ثم التفا فى بشكرين كبيرين وخرجا إلى يلبه أول فاستلقيا فى خمول على المصطبة .

وتثاءب الأب فى تكاسل وهو يتمطى ويمدد جسده ، وقد رقد ابنه بجواره وقال فى غبطة ظاهرة وقد زفر زفرة حادة مريحة :

ـــ يا سلام .. حاجه تهدى الأعصاب وتريح الجته .. أنا بعد المشوار اللى خبطته النهارده ، كنت فاكر انى مش حاستريح ولا بعد سنه .. كانت جنازه سخنه .

وكان « سيد » حتى هذه اللحظة يشارك اباه فى أحساسه بالراحة والغبطة ان لم يزد عنه ، ولكن لم تكد تصك أذنه كلمة « الجنازة » حتى استيقظت همومه ونكأت جراحه ، واندفع إلى ذهنه فى سرعة البرق مماكسة الصبية له وسخريتهم منه وأنشودتهم عن موت أبيه .. والصرة والحلة المشئومة والقبور ، وأحس بالدمع يصعد إلى مقلتيه كأنه مياه النافورة .

وتلفت الأب إلى ابنه فأذهله أن يجد الدمع يفيض من عينيه ، ولم يتصور فى بادىء الأمر أنه بكاء وقال متسائلا :

ـــ عينيك لسه حمره من الحمام ؟

ولم يجب الابن فقد كان يحاول جهده كبت مشاعره ، وعاد شوشة يتساءل فى دهشة :

ـــ مالك .. ما بتردش ليه ؟

وأجاب « سيد » .. ليس بالكلام .. ولكن بالاندفاع فى البكاء . ذهل الأب ونهض بجسده نصف قومة وامسك بذراع ابنه وتساءل دهشا :

ـــ إيه الحكايه ! ؟ مالك ! ؟ جرى إيه ؟

ـــ ولا حاجه .

ـــ مش ممكن لازم فيه حاجه ، قول إيه الحكايه ؟

ولم يكن هناك بد من ان يتكلم « سيد » فيفرغ كل ما فى نفسه .. قال الصبى :

ـــ اصل يابا الحقيقه ان أنا بخاف من الجنازات اللى بتطلعها دى ، وكنت زمان بقول يمكن محتاجين ، لكن دلوقت لزومها إيه ؟

ـــ وتخاف منها ليه ؟

ـــ بخاف عليك .. انا بقالي جمعـه والولاد فى الكتاب كل ما يشوفوني يتلموا على ويقولوا لى : ابوك السقا مات ، بيمشي فى الجنازات ، حايحصل الأموات .

ـــ وانت بتنكسف ؟

وأجاب « سيد » هازا راسه بشدة :

ـــ انا أتكسف ؟ !! اتكسف من إيه ؟ انا مابتكسفش منك ابدا .. لكن بخاف عليك ، لحسن كلامهم يتحقق ، بخاف من قرحم عليك .

وتضاحك الأب قائلا :

ـــ ولا يهمك .. خليهم يقولوا زى ما هم عايزين .. عمر الفر ما عاد ولا ضر .

ـــ ما هى لو كانت الحكيه حكاية فر وكلام فى الهوا مكانش يهمني .. لكن دا فر فى محله .. انا مفيش حاجه مخوفاني من الكلام .. إلا ان انا بلاقى له اصل .. انا كل ما بلاقيك شايل المره اللى كان شايلها « شحاتة افندى » ولابس البدله اللى كان بيلبسها ، يبقى متهيألى انك حايجرالك زى ماجراله ، يبقى متهيألى انك حاتنام نومته ، وما ترضاش تصحى ابدا ، وبعدين ياخدوك يشيلوك غصب عنا ويحطوك فى الصندوق زى ما عملوا فى « شحاتة افندى » ، ولا يرجعوكش لنا ابدا ، ونتعمد لوحدنا انا و « ستى أم آمنة » .

ولم يكد الصبي يتم حديثه حتى اجهش بالبكاء ، واخفى وجهه بذراعه ، واخذ جسده الصغير العارى الملتف فى المنشفة يرتجف .

ولم يحاول الاب التضاحك فى هذه المرة ، ولو حاول لما استطاع ، لقد سرت نوبة الحزن والتشاؤم من الابن إليه ومد يده فربت عليه بحنان وقال :

ـــ بس .. بس .. عيب يا سيد عيب .. انا بقول عليك راجل كبير .. حد يعيط كده من شوية اوهام ؟ ثم افرض انها تحققت .. تقوم

برضك تعيط كده زى النسوان .. الراجل لازم يكون راجل ، وياخد الحكاية دى بسهوله .. أمال أنا بطلع ليه ورا الجنازات ، مش عشان الواحد يعود نفسه على وحشة السكة اللى مسيره يقطعها .. أنا كنت زمان برضك بتوهم منها ، كنت فاكرها حاجه صعب ، حاجه مخيفه لكن لقيتها كلها كلام فارغ وهايف ، وإذا ما كانتش حاتحصل لنا النهارده حاتحصل بكره أو بعد بكره .. والواحد بيفكر بكره بعيد ، لكن ما أسرع ما بيجى بكره ، وبعد بكره .. ليه تخاف من الموت ، ما دام حاصل حاصل ، هوا فيه حد مش حايموت .. كلنا حانموت ، كل حى لازم يموت ، وانا حى فلازم حاموت .

ورفع « سيد » رأسه إلى أبيه فى ارتياع وتساءل فى استنكار ودهش :

ـــ لا يابا ماتقولشى كده ، أنت مش حاتموت ، مش ممكن تموت ، تموت ليه ؟ انته ما بتعملش حاجات وحشه ، ولا انت عجوز ، ولا عيان ، وانا عايزك ، تموت ليه ؟

وصمت الرجل برهة قبل أن يجيب ورفع كفه إلى جبينه ثم إلى عينيه وبدا كأنه يغالب فى اعادة بعض قطرات من الدمع فرت من مجاريها ، وشرد ذهنه ، وبدت على وجهه علامات حزن دفين ولوعة مكبوتة . ثم قال أخيرا فيما يشبه الهمس كأنما يحدث نفسه :

ـــ هى كما كانت كده ، عمرها ما عملت حاجه وحشه ، ولا كانت عجوزه ، ولا عيانه .. وكنت انا وانت عايزينها .. لكن ماتت ، ماتت ليه ؟ . معرفش .

وتساءل « سيد » فى دهش :

ـــ هى مين يابا !

ـــ أمك .. ياما سهرت الليالى اسأل نفسى ، واسأل السما والنجوم ، وربنا : ماتت ليه ! . وعشان إيه ؟ . لكن ما كنتش بلاقى جواب .. ماكنتش بلاقى سبب .. غير ان الموت بلا سبب .. زى

الحيا .. ليه بنتولد ؟ . وليه بنموت ؟ مين يعرف !

أمه ؟ !!

كانت المرة الاولى التى يحدثه أبوه عن أمه .. فما حاول من قبل أن يجرى ذكرها على لسانه .. انه لم يرها قط ، ولم يحدثه عنها أحد ، ولم يحاول هو أن يستفسر عنها .. فقد صدته الأجوبة المقتضبة والهته ملاهى الحياة ومشاغلها ، ولم تشعره جدته ولا أبوه .. بحاجته إلى أم .. فبدا له أنه قد خلق هكذا بلا أم ، وأنه ليس من المحتم أن يكون لكل انسان أم كأمهات أصحابه من الصبية .

لم يكن يشعر بالفراغ ، ولذلك لم يشعر بالتالى بفقدان ما كان يجب أن يملأ الفراغ .. كان يجد ما يكفيه من المحبة ، والعطف والحنان .. لقد تضخم أبوه فى حياته بحيث ملأ عليه كل فراغ وبحيث شغل مكان الأب والأم .. فلحس « سيد » .. أن المرء يمكن أن يعيش بلا أم ، ولكن تستحيل عليه الحياة .. بلا أب .

وهو يذكر جلسة أبيه وراء النافذة كل ليلة ، ونفثه الدخان ، ورنوه إلى النجوم والسماء .. كأنما كان يسألها عن شيء أضاعه .. أو عن معضلة أعياه حلها .

وهو يذكر جلسة جدته وأطراقها وشرودها وذقنها المسند فى كفها ، ويدها المقلوبة التى تطرق ركبتها ، ورأسها المتململ يمنة ويسرة . وحديثها الهامس لنفسها بين آونة وأخرى ، كأنها تتساءل عن شيء .. أو تطلب حاجة ، وعندما كان يسألها عما تطلب كانت تفيق إلى نفسها قائلة :

ـــ ولا حاجه .

إذا فهذا هو الشيء الضائع والمعضلة المستعصية التى أضنت أباه .

إذا فهذا هو السؤال الحائر ، والمطلب الممتنع الذى أعيا جدته !

وبدا للصبى أن الفرصة سانحة لكى يحل عبئه .. الذى سها عن

حمله طوال السنين الماضية ، ولكى يشارك أباه وجدته ، وجيعتهما ، وأحزانهما ، وسهرهما ، وشرودهما ، وسؤالهما عن المطلب الضائع .

ولم لا .. أليست أمه ؟

ألا يحق له أن يعرف عنها كل شيء ؟

ورفع الصبي رأسه إلى أبيه ، وبلا إرادة ولا وعي ، وجد شفتيه تنطلقان بالسؤال الذي لم يخطر له ببال من قبل :

« كيف ماتت ؟ » .

وكان الصمت قد خيم ، والمكان قد خلا إلا من الرجل وابنه ، والبخار قد تكاثف في الجو فبدد أشعة المصباح الهابطة من أعلى السقف .

واستند الأب بظهره إلى حشية على المصطبة بجوار الجدران وجذب ابنه إليه فألصقه به محيطا إياه بذراعه ثم أعرق برأسه وانطلقت من صدره زفرة حارة وعاد يردد قول الصبي :

« كيف ماتت ؟ ! » .

ثم انبرى يقص القصة ويجيب عن السؤال .

* * *

ماتت كما يموت كل انسان .

سكتت أنفاسها وتصلب جسدها وبردت أطرافها .

وأضحت لا شيء بعد أن كانت كل شيء .

من كان يصدق أنها ستموت ؟

ذلك الجسد القوي ، والوجه النضير ، والثغر الباسم ، والعينان الضاحكتان المتلألئتان .. من كان يصدق أن كل ذلك يمكن أن يقبع في حفرة رطبة مظلمة بباطن الأرض ، مسلوب الحركة فاقد الحياة .. ليصبح بعد حين هيكلا قد أكله البلى وعظاما قد نخرها السوس ؟ . من يصدق

أن هذا الكوم من العظام كان في يوم من الأيام ربة البيت التي تفيض فيها الحياة وتتفجر منها العافية ؟ من كان يصدق أن تلك الجمجمة المخيفة التي قرعتها بقدمي كانت هي نفسها الرأس الفاتن ذا الجدائل الحالكة والشفاه الوردية ! من كان يصدق أن هذا الرماد المكون لأديم الأرض هو نفس الجسد الفارع الباسق الذي أبصرته أول مرة في حديقة السراى فكأنه النبت الزكي والشجرة المزدهرة ؟ من يصدق أن آمنة التي كانت تطاول السماء . . قد باتت موطئا للأقدام ؟

انى لأذكرها يوم ذاك وقد هبطت من الطابق العلوي قبيل الشروق وأنا أملأ حوض النافورة ، وهي تبتسم في دلال وتسألني أن أسقى شجرة التمرحنة .

ولم أكن مسئولا بالطبع عن سقيا الشجر فقد كان ذلك من عمل البستاني وكان عملي مقصورا على حمل المياه وافراغها في الحوض ثم ملء الأزيار والصفائح والطشوت وغيرها من خزانات المياه الموجودة بالدار .

ولكن لم أستطع حينذاك أن أرفض طلبها لا سيما وأنها انبأتني أنها قد غرستها بيدها وأنها تخشى أن يهملها البستاني فتموت وهي عزيزة عليها حبيبة إلى نفسها . . وضحكت ووعدتها أن أداوم على سقيها يوما بعد يوم ، وأن تجعل مسئوليتها في عنقي ما دامت تعتز بها كل هذا الاعتزاز .

وكنت أعرفها من قبل فقد سبق لي أن رأيتها ضمن ثلة الخادمات اللاتي تكتظ بهن السراى ، وكنت أستطيع بسهولة تمييزها من بين عدة الوجوه التي تتوالى على رائحة غادية .

ولكنها كانت المرة الأولى أن أبادلها الحديث ، وأن تكل إلى بعمل خاص بها وتخاطبني كما يخاطب المرء صديقه وتضع في عنقي شيئا عزيزا لديها أتولى سقياه والسهر على حياته .

ومن ذلك الحين بدأت أشعر بشيء يربطني بها ويشدني إليها ، واعتبرت سقيا شجرتها العزيزة واجبي الأول في الحياة .

كنت أراها كل صباح إما في المطبخ حين أصعد لملء الأواني وإما في الحديقة حين تهبط لتلقاني أو لتطمئن على شجرتها .

وكان كل يوم يمر يجعلني أشعر أننا لسنا غريبين أحدنا عن الآخر ، وأنه لابد أن يكون بيننا سابق عشرة أو قديم معرفة ...

كانت صبوحة مشرقة الوجه ، دائمة البسمة ، وكان إشراقها سريع الانعكاس في نفسي وبسمتها سريعة التردد بين جوانحي .. فكنت لا أكاد أراها حتى تشرق مني النفس ويضحك القلب وتصفق الروح .

ولشد ما سرني أن أسمعها ذات صباح تسألني عن شجرة التمرحنة بقولها : « شجرتنا » ، فقد أحسست أنه قد بات بيننا شيء مشترك ، وأن لنا مصلحة واحدة .. تافهة مهما كانت .. فهي تربط بين أحدنا وصاحبه .

وبدأ بيننا دور التعبير عن المشاعر بالهدايا .. أحملها إليها وتحملها إلي خلسة ، وبعيدا عن الأعين .. أنا أقتصد من دريهماتي لابتاع لها منديلا للرأس أو قطعة رخيصة من الحلي .. حلقا أو خاتما أو أسورة ، وهي تقتصد من طعامها لتحمل إلي بعضه .. أو تقتصد من مصروفها أو تحتجز من أجرها الذي تعول بها أمها دريهمات لتبتاع لي منديلا أو جوربا .

وكما سقيت الشجرة فترعرعت ، سقى الله حبنا فترعرع ، وباتت الحياة عندي تنحصر في تلك الهنيهات التي أحمل فيها الماء إلى السراي الكبيرة ، والتي التقي فيها آمنة نتبادل النظرات أو التحيات أو الكلمات .

وفي ذات يوم ألمت بي علة .. بدأت في المساء خفيفة ثم زادت سطوتها واستشرى شرها طول الليل ، فلم أذق النوم إلا لماما وأنا أتقلب على أحر من جمر الغضي وقد جف حلقي والهبت الحمى رأسي .

وفي الصباح .. لم أقو على النهوض ، وكنت أسكن في حجرتي

وحيدا ووجدت نفسي أستسلم إلى ما يشبه الغيبوبة ، ورقدت في الفراش كالجثة الهامدة .. لا أقوى حتى على الاستنجاد بأحد يحمل دواء أو يبل لي شفة .

وقبل الضحا سمعت طرقا على الباب فأمرت الطارق بصوت خافت بالدخول وإذا بي أفاجأ بآمنة تدفع الباب ببطء وحذر وتناديني في تردد وخشية

وذهلت وأجبتها بقدر ما أستطيع من جهد .

كانت آخر من أنتظر دخوله .. كنت أتوقع أن يحضر إلى جار أو زميل .. أما أن تترك هي عملها وتحضر إلي في البيت .. فكان أمرا بعيدا عن تصوري .

وأقبلت على جزعة تتحسس جبيني ولاطفتني مطمئنة ببضع كلمات حنون ، ثم غابت عني لحظة ورجعت فجلست بجواري ومعها خرقة غمستها في طبق خل ووضعتها على جبيني ، وظلت تمسح بالخرق على جبيني حتى أحسست بالحرارة تهدأ بعض الشيء ، وشعرت برغبة في النعاس فأحكمت الغطاء حول جسدي وحذرتني من زمعه ، ثم غابت لحظات أخرى وعادت حاملة إلى إناء من اللبن وبضعة برتقالات وسألتني أن أتناولها .

وغادرتني وقد تحسنت حالتي بعض الشيء ، وفي الصباح التالي استيقظت على صوت طرقاتها الحذرة وخطواتها المتسللة ، وكانت تحمل في يدها بعض القراقيش وإناء من اللبن ، وجلست بجواري وتحسست جبيني بيدها .

وكنت أحس بكثير من التحسن ، رغم أن الحرارة لم تكن قد هبطت تماما ، ورغم أن قواي كانت ما زال بها كثير من انحطاط .. ولكن كان لابد لي من النهوض فإن عملي لا يتحمل الرقاد أو الانقطاع . والناس إن صبروا على المياه يوما فهم لا يستطيعون أن يصبروا يوما آخر ..

وان هم استعانوا بسقا آخر استحل مكانى واستمرا مرعاى وطارت زبائنى ، ولذا فقد عزمت على النهوض .

ونظرت هى إلى مؤنبة دهشة ، وانبأتنى انها لن تتركنى انهض بأية حال .. والا اصابتنى نكسة أعادتنى إلى شر مما كنت عليه ، ولكننى اصررت على ترك الفراش قائلا لها : ان الناس لا يستغنون عن مياهى وانا لا استغنى عن نقود الناس .. وخير لى أن أعيش مريضا من ان اموت جوعا .

ولكنها خاطبتنى بقولها ان المياه ستصل إلى الناس وان النقود لن تنقطع عنى ، وانى لن اموت جوعا وهى على قيد الحياة .

وكان قولها عجيبا ، ولكن أعجب منه كان فعلها .. فقد اصرت على أن تحمل هى المياه إلى الزبائن حتى ابل من مرضى ، وكان من الجنون ان اقبل منها عرضها ، وان اترك امرأة تقوم عنى بعملى الشاق ، ولكنها انذرتنى ان لم ادعها تقوم بما أرادت .. فلن اراها بعد ذلك ، وستقطع كل ما بيننا .. حتى الشجرة ستقتلعها من مكانها .

ولم يكن هناك مفر من الاستسلام لاصرارها .. ولو كنت فى صحتى وفى كامل قواى ، لكنت اقدر على اخضاعها .. ولكن الرأس الملتهب ، والجسد المنهك ، والنفس الواهنة ، والداء الذى لم ينصرف بعد .. كل ذلك تعاون على غلبتى ، فرقدت مستسلما ، وخرجت هى لابسة السطيح حاملة القربة .

وشاهد حى الحسينية يومذاك لأول مرة ولآخر مرة فتاة تحمل القربة ، وتسير متثنلة بها ، لتملأ الازيار والصفائح ، ولتجيب على الزبائن بأن شوشة مريض وانها تقوم بالسقية بدله حتى يبل .

وفى اليوم التالى استيقظت من الفجر ، قبل ان تحضر إلى واسرعت بالقربة إلى السراى الكبيرة وهناك افرغتها وسألت عن آمنة ، ولكن لدهشتى انبأونى انها غير موجودة !

لم ؟ .. لانها طردت .. لهربها من البيت .. وغيابها طيلة أمس .

وروعني النبأ في بادىء الامر .. ولكن الفكرة دارت في رأسي ، فشعرت منها بنشوة وطرب .. ولم البث حتى حثثت الخطا إلى بيت أمها .. بعد أن سألت عنه إحدى الخادمات .

وهناك وجدتها ترقد وأمها ، ولم تكد تبصرني حتى صاحت بي فرحة متسائلة عما أتى بي في هذا الوقت المبكر ، ولم تركت فراشي ؟ وقلت لها اني قد ابللت واني سمعت عن طردها من السراي الكبيرة واني قد فرحت للنبأ لاني صممت على نقلها إلى السراي الصغيرة .. إلى حجرتي المتواضعة .

ودخلت على أمها الطيبة فسألتها أن تزوجني ابنتها ، فلم تعارض « أم آمنة » .

ولم تشرق شمس صباح اليوم التالي إلا زثلاثتنا — انا وآمنة وامها قد ضمنا ذلك البيت الذي نسكن فيه في درب القط بعد أن توجهنا إلى المأذون وقد عقد علينا . وبقينا زوجا وزوجة ، وثالثهما حماه .

وبدأت حياة جديدة ، حياة سعيدة هنيئة قريرة .

لقد أحسست مذ ضمتنا دار واحدة أن عبء الحياة قد خف ، وأن ثغرها قد بسم ، وانه قد أضحى عندي ما أعيش لاجله ، واني تغيرت من سائمة ضالة إلى إنسان قرير .

أي والله .. لقد بت مخلوقا آخر ومللت حياتي الجوفاء الخالية . ولم أعد أحس بالوحدة المريرة والوحشة الاليمة .

بات البيت عندي ملجأ الجأ إليه .. وملاذا الوذ به .. وحياة أحيا فيها .. بعد أن كان مجرد مضجع أقضي به سواد الليل .. لا يسامرني فيه غير مواء القطط ، وعواء الكلاب .

كانت مخلوقة عجيبة ، كانها في الجهد مثلة امرأة في امرأة لم أر اشد منها احساسا بواجبها وتفانيا فيه ، ولا أقل منها مطالبة بحقها وتناسيا له .. كانت صبورا على البأساء .. حمالة للاسى . كانت

نموذجا للتضحية والوفاء والبعد عن الأنانية ، كانت أقدر الناس على تبديد الهموم وطرد الأحزان وتسهيل الحياة وتخطى عقباتها .. ما رأيتها قط شاكية ولا متبرمة .. يملأ نفسها دواما الرضا والقناعة .

وحمدت الله الذى وهبنى الهناء والاستقرار بعد طول جهد وانهاك ، وضلالة فى بيداء الحياة .. وشعرت أن الله قد أكرمنى إلى أبعد حدود الاكرام ، وأنى ما كنت أتمنى فى أحلامى أكثر مما وهبنى إياه .

أمنية واحدة هى التى كانت لا تزال معلقة فى أفق الأمانى ، وأمل واحد هو الذى كان يداعب النفس ، ويبتغى طريقا إلى الظهور .

هذه الأمنية وذلك الأمل .. هو أنت يابنى .

كان بنا حنين إليك ، وشوق إلى الابن المجهول المنطوى فى غياهب الغيب والذى لم تبد لنا بشائره بعد .

ولم أحاول أنا قط أن أفصح عن ذلك الأمل الذى كان يراود النفس خفية .. لأنى كنت واثقا بالله .. موقنا أن الأمنية وإن تأخرت فهى قادمة قادمة .. وأنك وإن تمهلت فانك آت آت .

وكنت أخشى أن أشعرها بالتقصير وبأنها بعد كل هـذا الجهد والتفانى والاخلاص ، لم تنلنى أمنية عزيزة .. يعلم الله إذا كانت قديرة عليها أم أن بها عجزا وعقما .

وهكذا طويت الأمنية بين جوانحى ، وبالغت فى اظهار الرضا والسعادة ، ولكنها كانت أذكى من أن تخدع وكانت من أشد من رأيت نفاذا إلى رأسى وقلبى واكتشافا لباطنى واحساسا بمتاعبى وآلامى وأحزانى وآمالى .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هى الأخرى أشد رغبة فيك ، وتمنيا لمجيئك .. ولذا فقد بدأ القلق والخوف يدخل إلى نفسها ، وأخذت تزور الأولياء والمشايخ .. وتتعاطى الوصفات وتتبع المشورات .

وأخيرا .. حقق الله يقينى .. واستجاب لدعائها .. وأعطينا

الانذار الأول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك في باطنها .

وسادت في الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون قبل الهنا بسنه ، واخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ، أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وأنت في علم الغيب وناجيناك ولاغيناك وانت منطو في حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل ان تهبط إلينا .. لقد دفعتنا لهفتنا عليك إلى أن نخرجك بيننا قبل أن يخرجك الله .

ولا أظن أن هناك مخلوقا اصاب قدرا من السعادة كما أصابت هي في فترة حملك ، لقد كانت تشعر انها تحمل أمنية عزيزة ، وحلما جميلا .

ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما أذكر أنها تألمت من شيء أو عجزت عن شيء .. لقد تعاونت قوتها الجسمانية وقوتها النفسية على حملك كأصح وأقوى ما حملت أم .

وأخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد .. هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هي .

يا للسخرية الكبرى !! لكأنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد ولادتك ، فأخذت نصيبها من السعادة بك وانت طاو في باطنها .

وعندما أقول لك الآن صعدت .. لا أملك إلا أن أقولها ببساطة .. بساطة أي لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وقتذاك ، كان أجل من أن يستعمل للتعبير عنه أي لفظ ، كان أشبه بانطباق السماء على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شيء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هي ، وتتركنا في وحدتنا ، أنا وأنت ، وأمها .

كانت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وقتا طويلا بل حدث التبادل في مثل لمح البصر .

في لحظة من اللحظات ، كانت هي موجودة ، وأنت في عالم الغيب ،

الانذار الأول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك في باطنها .

وسادت في الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون ، قبل الهنا بسنه ، وأخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ، أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وأنت في علم الغيب وناجيناك ولاغيناك وأنت منطو في حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل أن تهبط إلينا .. لقد دفعتنا لهفتنا عليك إلى أن نخرجك بيننا قبل أن يخرجك الله .

ولا أظن أن هناك مخلوقا أصاب قدرا من السعادة كما أصابت هي في فترة حملك ، لقد كانت تشعر أنها تحمل أمنية عزيزة ، وحلما جميلا .

ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما أذكر أنها تألمت من شيء أو عجزت عن شيء .. لقد تعاونت قوتها الجسمانية وقوتها النفسية على حملك كأصح وأقوى ما حملت أم .

واخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد ـ هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هي .

يا للسخرية الكبرى !! لكأنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد ولادتك ، فأخذت نصيبها من السعادة بك وأنت طاو في باطنها .

وعندما أقول لك الآن صعدت .. لا أملك إلا أن أقولها ببساطة .. ببساطة أى لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وقتذاك ، كان أجل من أن يستعمل للتعبير عنه أى لفظ ، كان أشبه بانطباق السماء على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شيء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هي ، وتتركنا في وحدتنا ، أنا وأنت ، وأمها .

كانت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وقتا طويلا بل حدث التبادل في مثل لمح البصر .

في لحظة من اللحظات ، كانت هي موجودة ، وأنت في عالم الغيب ،

وفي اللحظة التالية كنت انت موجودا وهي في طريقها إلى عالم الغيب بلا أمل في عودة أو رجاء في بقاء .

انى لا أذكر أنها تعذبت في ولادتك ، أو ربما تعذبت ، ولكن جلدها العجيب وقدرتها على تحمل الآلام منعاها أن تفصح عن شيء .. فرقدت في حجرتها .. الحجرة التي بها الصحارة ، ثم جاءها الطلق ، واخذت أمها تعاونها حتى تحضر « الداية » ولكن قبل حضورها كان كل شيء قد انتهى .

هبطت أنت .. وصعدت هي .

ويعلم الله إذا كانت قد صعدت حقا .. أم أنها هي الأخرى قد هبطت مع جسدها إلى جوف القبر .. وانتهت ـــ كما يقول شحاتة ـــ ككل مقعد قديم وقطة .

كنت وقتذاك أشبه بالضائع في غيبوبة .. كنت مرتاعا إلى أقصى حدود الارتياع .. فقد كنت ـــ إن صح التعبير ـــ محدث وفاة .. لم يسبق لي أن فجعت ـــ على كبر وادراك ـــ في عزيز لدى .. بل في أعز ما أملك .

واندفعت أمها يومذاك في الصراخ .. كأنها كلب جريح يعوى ..

ولكني لم أصرخ ولم أعو .. فقد كنت .. كما قلت لك في غيبوبة .. أسير وأتحرك وأتصرف بلا وعى ولا ادراك .. ولقد سألنى من حولى وقتذاك أن أبكى .. حتى أفرج عن نفسى ، وحتى لا أجن أو أصرع ، ولكن الدمع كان يستعصى ، فالباكى لا بد أن يبكى عن إدراك ، أما أنا فقد كنت من الصدمة فاقد الإدراك .

وقام الناس باجراءات التغسيل والتكفين والجنازة والدفن وأنا أنظر إليهم نظرتى إلى أشباح مزعجة مخيفة .

كانت الرهبة تجثم على أنفاسى فجعلتنى أرى كل هذه الاجراءات أشياء مروعة رهيبة من الصعب فهمها ، أو مباشرتها .

وخلا الدار من عنصر الحياة فيه ، بعد أن قطع شريانه واقبل

الليل المدلهم ، وأنا وأنت والعجوز وحدنا .. أشبه بجند حديثى عهد بمعركة فقدوا قائدهم ، أو بركب سفينة فقدت ربانها ، أو بثلاث عجائز تركن فى صحراء مقفرة لا ماء فيها ولا رواء ، ولا زرع ولا ضرع .

وكان على العجوز الثكلى النائحة أن تتولى أمرك ولقد تولته — والحمد لله ولها — على أحسن حال .

ولقد حاولت جهدها التجلد والتحامل من أجلي ومن أجلك ، ولكن الحزن والدموع المنسابة فىالليل الطويل ، افقدها البصر ، ولكن لم يفقدها الجلد والتحمل والصبر على رعايتنا ، انا وانت ، أو بقايا ابنتها الراحلة .

وحاولت أنا الصبر والتجلد واستعنت بالصلاة وبالقرآن ووضعت آيات الصبر نصب عينى أقرؤها فى كل غدوة وروحة ، ولكن الصبر كان متعذرا والوجيعة جاثمة على القلب تابى فراقه .

ولا أكذبك القول يابنى اننى كرهتك فى أول الأمر ، كنت أراك لا تستحق الثمن .. كان ثمنك فادحا جدا لا يدفع لشراء عالم بأكمله .. فما بالك بوليد تافه ، وكنت أتمنى فى قرارة نفسى لو يعدل الله عن البدل فيأخذك ويردها ، ولكن كنت أشعر انى فى تفكيرى أحمق مجنون .. وأن قضاء الله لا راد له .

ورويدا رويدا بدأت أحبك ، واتخذت منك عزاء عنها ، بعد أن عز العزاء ، ووجدت منك إلى حد كبير دافعا على التحامل ومواصلة العيش .

ولقد كنت دائما أسائل نفسى فى يأس — كما سألتنى أنت — لماذا تموت وهى لم تفعل شرا ولا هى عجوز ولا مريضة ونحن فى أشد الحاجة إليها .

ولقد استعصى الجواب على حتى دخل « شحاتة » فى حياتى وأخذ يلقننى حديثا بدا لى فى أول الأمر حديث خرافة .

قال لى : إن وجه الأرض متغير ، وأن مركبات هذا الوجه من مختلف

الكائنات محدود وجودها بفترة معينة لها بداية ونهاية .. وان ابن آدم لا يزيد عن أن يكون أحد مركبات وجه الأرض ، فوجوده محدود لفترة معينة حكمه فى ذلك حكم المقعد الذي تجلس عليه والقطة الجالسة اسفل المنضدة ، وأنه لابد له من الانتهاء ليحل محله سواه ويأخذ مكانه في الوجه المتغير .

ولكن ابن آدم المغرور يكره أن يقارن نفسه بالمقعد او بالقطة او باى مخلوق من المخلوقات ذوات البقاء المحدود ، وهو كذلك يكره الموت ويأبى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته بأوهام كريهــة ، ومناظر مفجعة ، ويرفض تعوده وترويض نفسه عليه .

انها مسألة ترويض وتعود .. لا اقل ولا اكثر .. ان كل حدث على الارض يهون بالتعود .

هكذا قال لى الرجل .. ولقد بدا حديثه .. كما قلت لك حديث مخرف ، وكان من المستحيل على ، أنا المفجوع الموجوع .. المجروح القلب ، الكليم الفؤاد ، أن استسيغ مثل هذا القول الساخر الواقعى الجاف .

ولكن لم اكد انزل الحومة واجوس بالساحة .. حومة الاموات وساحة المقابر .. حتى تبددت من نفسى الرهبة شيئا فشيئا .. وادركت ضيق الثقب الذي ينظر منه الإنسان إلى هذه الأشياء .

لقد نزلت إلى ساحة الأموات .. فوجدتها سخريات فى سخريات ، ووجدت الإنسان .. مهما كان .. لن يزيد على المقعد أو القطة ، ووجدت اكوام العظام فى القبور .. احقر كثيرا من انقاض المقاعد المهشمة .. وأن رمم القطط والكلاب قد تبدو ابهى منظرا من رمم الإنسان .

لقد باشرت التغسيل والتكفين والدفن .. فوجدتها سخافات فى سخافات وتفاهات فى تفاهات .. أن المسألة كلها لا تزيد على دفن القمامات الإنسانية والمخلفات البشرية وردمها فى حفرة بباطن الأرض .

عرفت الكثير من الحقائق فى عملى الجديد .. الذى فككت به

المقدة الكبرى المعقودة في نفسي وفي نفس كل إنسان ؛ ووجدت الاجابة المستعصية تأتي سهلة هينة وأنا أسأل نفسي : لماذا تموت وهي ليست عجوزا ولا مريضة ونحن في أشد الحاجة إليها ؟

لقد قلت لنفسي يابني انها ليست أول من يموت ولست أول من فقد زوجة ولا كنت أنت بأول من يولد بلا أم .. هذه اشياء تحدث كثيرا في الحياة ، فيجب الا ينظر إليها على انها مآس قد خصنا بها القدر .. يجب أن نعرف ان هذا الأمر هو سنة الحياة وطبيعة الاشياء ، ويجب الا نعتبرها مفاجاة .. بل نتقبلها بالصبر ، ونواصل السير لنقوم بواجبنا .. حتى يصيبنا قضاء الله .

بهذا وحده احسست بالاستمرار والسكينه ، ولكن ليس بالنسيان .. لقد كنت حريا ان انسى .. لولا ذلك القلب الناشج بين الضلوع ، الباكي في الحنايا ، والذي لا يقتنع بمنطق ولا يسلم بعقل ولا يحتمل صبرا .. انني لم انسها رغم اكتشافي لحقيقة الموت والحياة .. لقد كنت أشيعها في كل جنازة اسير امامها ، وكنت اراها في كل ميت أواريه الثرى ، اني احس بمتعة من تشييع الجنازات .. فهي تقربني إليها وتمتعني برفقتها وذكراها ، وتهون على نفسي مسالة الموت وتعدني لاستقباله غير وجل ولا هياب ، وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة .

* * *

وصمت الرجل ورفع الصبي رأسه في خوف وجزع وقال في صوت خافت مليء بالدموع :

ــ ولكنك رغم ذلك .. لن تذهب .. اني اريدك .. إذا هانت عليك نفسك فلن تهون علي .. إذا كنت قد روضت نفسك على الذهاب ؛ فأنا لم أروضها .. ليس لي في الحياة سواك .. انك الام والاب .. انك ما اشعرتني قط بأني فقدت أمي .. لا تذكر الموت ابدا ولا تعود نفسك عليه .. فإنك لن تموت .

الفصل الثاني عشر

لـن يمـــوت

ومرة ثانية بذل الرجل جهدا كبيرا ليحبس الدمع في المآقي ولا يفضح تأثره بحديث الصبي وهو القوي المتجلد ، وبعد فترة صمت استمد خلالها نفسه وتمالك قواه اصطنع ضحكة خفيفة أسدل بها ستارا على حديث الشجن الذي فاض به .. ثم قال لابنه في لهجة مازحة :

ـــ طيب ياسي سيد خلاص .. ماشي كلامك .. ما دام مش عايزني أموت .. مانيش رايح أموت .

وأجاب « سيد » ، وهو يكفكف دمعه :

ـــ ولا تطلع الجنازات ، ولا تلبس البدله دي أبدا ؟

ـــ ولا حاحطها على جتتي عشان خاطرك .. مبسوط بقى يا عم ؟

ـــ أيوه مبسوط .

ـــ طيب أمال مبتضحكش ليه .. يالله اضحك .

وافتر ثغر الصبي عن ابتسامة مفتعلة صحبها بقايا دمع سائل على خديه ، ولكن الرجل عاد يقول مازحا في بعض التأنيب :

ـــ برضه ده ضحك ؟ !! اضحك كويس .. احنا خلاص مش حانجيب سيرة الزعل بعد كده .. يالله وريني ضحكتك .

وضحك الصبي ضحكة عريضة خالصة وربت أبوه على ظهره في رفق ، وهو يقول :

ــ أيوه كده ، خلينا نفرفش .. يالله بينا نقوم نلبس بقى أنا بطنى نونوت ، وكل ما افتكر رغيف الكباب ريقى يجرى ...

ــ أيوه حقيقى .. أنا كمان جعت .. يالله بينا ناكل .

ونهض الاثنان ملتفين فى المناشف وغادرا باب أول إلى القاعة الرحبة ، ثم اتجها إلى اللوان الزجاجى الذى خلعا فيه ملابسهما مجيبين فى طريقهما على بضعة تحيات من هنا وهناك ...

« نعيما » .. « أنعم الله عليك » .

وفى اللوان تمدد « شوشة » على إحدى الارائك واقبل عليه « عميره » المدلكاتى المكبساتى فأخذ يدلكه ويكبسه ويطقطق عظامه ، وانهمك « سيد » فى خلع المناشف وارتداء ملابسه النظيفة ، ولم يكد يتم اللبس حتى صاح « بعميره » :

ــ فين الاكل يا عميره ؟

ــ حالا حاجيبهولكوا .. انا أصلى اديت الرغيفين « لعبده » بتاع المستوقد يحطهم فى الفرن عشان يفضلوا سخنين .

ــ زمانه طير نصهم .

ــ ما تخافش انا نبهت عليه انه ما يمدش ايده عليهم ، وهوا يخاف منى ويعمل لى حساب .

وضاق « سيد » ذرعا بطول التكبيس والتدليك فصاح بابيه :

ــ ماتيالله بقى يابا .. أمال كنت بتقول انك جعان ازاى ؟

ــ أهو خلاص .. يالله يا عميره أنت روح هات لنا الاكل .

ونهض « شوشة » وأخذ فى ارتداء ملابسه ، وبعد برهة احضر « عميره » الأرغفة الساخنة يتصاعد من باطنها بواخ اللحم ورائحة الشواء ، وجلس كل منهما يلتهم رغيفه فى انهماك وصمت ، وبين آونة وأخرى يتبادلان جرعة من « القلة » التى احضرها « عميره » ، وبعد الانتهاء من الطعام صاح « شوشة » « بعميره » :

ــ يا عميره .

ودنا « عميره » مسرعا .. فمد الرجل يده ببضعة قروش قائلا :
ـ خد هات لنا كل واحد كباية شاى وخد الباقى .
ـ كتر خيرك يا معلم شوشه .

وبعد هنيهة كان كل منهما يجرع كوب الشاى فى لذة واستمتاع ، واخيرا نهض الرجل والتف بوشاحه الصوفى ولف ابنه بجاكتته القديمة ، ثم غادرا الحمام عائدين إلى البيت بعد أن ابتاع « لأم آمنة » نصيبها من الكفتة والكباب .

* * *

نام الثلاثة : الابن والأب والجدة أنعم ما يكون بالا ، واقر ما يكون نفسا .. وكان « سيد » اكثرهم هدوءا وطمأنينة بعد أن وثق تماما من الخلاص من بدلة النحس ، ومن العمل المشئوم الذى يقوم به أبوه .. وبعد أن وعده الأب وعدا جازما بانه لن يموت .

وكانت « الجدة » أول من استيقظ ، فاخذت تباشر أعمالها العادية التى تعودت أن تقوم بها بطريق التحسس والتوجيه .

واستيقظ بعدها « سيد » ، وكان اليوم جمعة .. وهو يوم يتلهف عليه « سيد » لكى يستيقظ متأخرا حتى يثأر من بقية الايام التى يبكر فيها فى الاستيقاظ ، ومع ذلك لا يكاد يحل اليوم حتى يجد « سيد » نفسه أشد رغبة فى الإستيقاظ مبكرا عنه فى بقية الأيام .

واخذ « سيد » يعد البلى ويجهز احد الجوارب لعمل كورة ثم خرج لينادى عليا حتى يتفق معه على عمل طيارة ، ولكنه فوجىء « بعلى » وأمه وأخته وأبيه هابطين على السلم ، وقد حملا بعض السلال .

وصاح بـ « على » :
ـ على فين كده .. بربطة المعلم ؟
ـ معزومين النهارده عند أخت المعلم عز فى امبابه .
ـ حاتتغدوا هناك ؟

ـــ أيوه .

ـــ يا بختكم .

ـــ ما تيجى معانا ؟

ـــ على إيه .

ـــ قول لابوك وتعالى .

ـــ ابويا لسه نايم .

وكانت الأسرة قد وصلت إلى الباب ، فقال المعلم خشت وهو يدلف إلى الخارج :

ـــ أبقى صبح لنا عليه لما يصحى .

وقالت زكية وأمها :

ـــ وابقى صبح لنا على الحاجه .

وغاب الأربعة فى الطريق . . ووقف سيد وحده يجهز الكرة الشراب ، ولكنه ما لبث أن أصاخ السمع ، فقد بدا له كأن هناك من يناديه ، وبالانصات ميز صوت أبيه يأتى من الداخل :

ـــ يا سيد .

ودخل الصبى يعدو إلى الداخل ملبيا نداء أبيه ووجده ما زال فى فراشه ، وقد لف رأسه بالوشاح الصوفى وأحكم تغطية جسده بالبطانية .

ووقف سيد بجوار أبيه :

ـــ أيوه يابا .

ـــ اسمع يا سيد . . أنا عايزك تاخد المفاتيح ، وتروح تفتح الحنفية ، وتنك قاعد لغاية ما توزع الميه على السقايين وبقية الزباين . . النهارده الجمعه مفيش شغل كتير ، لكن عايزك تاخد بالك كويس وتفتح عينك ، قيد كل اللى تصرفه فى الدفتر واللى تقبضه اكتب قصاده . . وحط الفلوس فى الكيس . . فاهم ؟

ولكن « سيد » كان مشدوها فصاح بأبيه فى جزع :

ـــ ليه يابا ؟

ـــ ولا حاجه انا اصلى حاسس ان جتتى مخدله .. الظاهر انى خدت برد .. خلاص يا سيد .. الظاهر ان الواحد عجز .. مابقيناش نستحمل زى زمان .. لكن نقول إيه .. الواحد مش عايز يعترف انه سلب الشباب .

ثم حاول التضاحك ، ولكن قطع تضاحكه نوبة حادة من السعال ، صعدت الدم إلى وجهه ، والدموع إلى عينيه ، وعندما انتهى من سعاله عاود الضحك والحديث قائلا :

ـــ ياالله يا ابو السيد .. وريفا الشطاره ، عايز اشوفك راجل .

ـــ لكن يابا انت عيان ؟

ـــ ولا عيان ولا حاجه .. انا عايز استريح لى يوم .. والا منتش قادر على الشغلانه ؟

وانتابت الصبي نوبة من الحماس ازاحت جزعه على أبيه جانبا فصاح فى حزم :

ـــ مش قادر ازاى .. دانا ادها وادود .. ايدك على المفاتيح .. دانا سيد ابن المعلم شوشة .. على سن ورمح .

وخطف سيد المفاتيح والدفتر والكيس الفارغ واندفع يعدو إلى الخارج ، وصادفته « ام آمنة » فصاحت به :

ـــ على فين ! ؟ إيه الحكايه ؟

ـــ رايح افتح الحنفيه .

ـــ تفتح الحنفيه ! ؟ ليه .. وابوك فين ؟

ـــ عايز يستريح شويه ، عن اذنك بقى لحسن مستعجل .

ـــ هوا إيه اصله ده ! ؟ استنى شويه اما اشوف إيه الحكايه ؟

ـــ يا ستى انا مش فاضيلك ! عندى شغل .

ثم اندفع يعدو إلى الطريق ، واستمر فى عدوه فلم يقف حتى

وصل إلى الحنفية واعتلى مقعدها في فخار وكبرياء .. وصاح في الجمهور المحتشد الساخب :

— بس منك له .. كل واحد يقف ورا التاني .. اللي حايخرج عن الصف مش حاصرف له إلا في الآخر ، واللي حايعمل زيطه مش حاصرف له .. واللي مش عاجبه يلعن ابوه في الارض .. فاهم منك له والا لا .

— وضج الناس بالضحك .. وانتظموا في الصف وهم يتساءلون :

— امال فين ابوك يا سيد ؟

— تعبان شويه .. مالوش كيف .

وتعالت التعليقات ما بين « لا باس عليه » و « بعد الشر عنه » و « سلم لنا عليه » .. الخ .

وظل سيد منهمكا في العمل ، فرحا به ، مستمتعا بمركزه الرفيع حتى انتهى من الصرف ، وقد نسي خلال العمل كل شيء عن مرض ابيه وجزعه عليه .

وبعد الانتهاء أغلق الحنفية وسار حاملا الكيس الملىء هانئا سعيدا ، يفكر فيما ينوى أن يقول لأصحابه عن مغامرة اليوم وعن اعتلائه عرش المياه ، وتحكمه في أفواه الناس .

ولكنه ما كاد يقترب من الباب .. حتى عاوده جزعه الخفي وأصابه قلق على رقدة ابيه ، ولكنه دعا الله أن يكون قد عافاه وأن يجده قد خرج إلى المقهى .

ودلف إلى الداخل فلم يجد جدته في مكانها في الفناء ، فزادت خيفته واتجه راسا إلى حجرة ابيه فلم يجده بها لا هو ولا فراشه . واستدار يبحث عنه في الشقة فوجد العجوز جالسة قبال الاب ، والاب مضطجع على فراشه في حجرة الصحارة مغمض العينين وفوق جبينه خرقة مبللة وقد تعالت أنفاسه في صوت مسموع .

واحس الصبي بقلبه يهبط بين جوانحه وبرجفة تصيبه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وتقدم في حذر مسائلا جدته في همس جزع وتشاؤم :

ـ انتوا قاعدين في الأوده دي ليه ؟

واجابت جدته :

ـ الاوده التانيه بارده وقزازها مكسور .. وبتجيب هوا كتير .

ـ وهو ازيه .. لسه تعبان ؟

ـ زى ماهو .. البرد مزممه .. ماقلت بلاش الحمام .. وقلت اسخن لكم ميه في الصفيحه .. بس كان لزومه إيه ؟

وفتح الاب عينيه ونظر إلى ابنه .. وقال في صوت ضعيف :

ـ عملت إيه يا سيد ؟

ـ خير ياابا ، صرفت الميه ، وجمعت الفلوس وأيدتها .

ـ قفلت الحنفيه كويس ؟

ـ أيوم ياابا .

وأغمض الاب عينيه مرة ثانية .. وبدا كأنه يرغب في الراحة من الجهد الذى بذله في الحديث ، وتكلمت ام آمنة موجهة القول إلى سيد

ـ اسمع يا سيد .. خش كل لك لقمه .. عشان عايزاك تروح تشترى لزقه انجليزى .. وشوية لبان دكر .. وبخمسه قروش برتقال ولمون حلو .

ـ انا مالباش نفس آكل .. حاروح اشترى الحاجه في الاول قبل ماكل .

ـ خش كل لك لقمه الاول .. انت خرجت من غير فطار على لحم بطنك .

ـ طيب حاكل .

ودخل « سيد » إلى المطبخ فوضع قطعة من الجبن في شقة وخرج إلى جدته وهو يقضم منها قائلا :

ـ انا حاكل في السكه .. هاتى الفلوس ، عشان اروح اجيب الحاجه .

ـ فلوس ؟ !!

وأخذت العجوز تبحث فى صدرها وجيوبها فى حيرة ، وهى تردد :

ـ الفلوس .. دانا معميش ولا نكله .

ثم همست إلى شوشة فى رفق :

ـ معاك فلوس يا شوشه ؟

وهز شوشة راسه علامة النفى .

ووقف سيد برهة مترددا ،ثم قال وهو يشير إلى كيس النقود التى جمعها :

ـ ماهى الفلوس اهى .. ناخد منها ريال ؟

ولكن الأب فتح عينيه فى جزع :

ـ اوعوا تمدوا ايديكم على اللى فى الكيس ، دى عهده .

واجاب سيد :

ـ معلهش يابا . ماحنا حناخده سلف وبعدين نرده .

ـ أوعى تمد ايدك عليه ، دى تبقى سرقه .

ـ لكن لازم نجيب لك اللزقه واللبان والبرتقان .

ـ مافيش لزوم .. انا كويس .

وتدخلت الجدة قائلة فى ضيق وقلق :

ـ مانتش كويس ابدا .. لازم نجيب اللزقه واللبان ، ولازم نجيب حاجه تبل ريقك .. حاجه تتقوى بيها .. انت من أول النهار ماحطتش حاجه على لسانك .

وساد الصمت برهة ثم قال الاب فى صوت ضعيف :

ـ أنا ليه ريال عند الحاجه زمزم بقية حساب قديم ، أوصل خده منها وروح أشترى اللى انتو عاوزينه .. وإذا ما رضيتش قول لها ان ابويا عيان ومحتاجينه ، عشان نجيب بيه دوا .

ـ طيب يابا .

وانطلق سيد يعدو فى الطريق وبيده شقة العيش والجبن فلم يتقف إلا عند مسمط الحاجة زمزم .

وكانت الحاجة جالسة فى مصطبتها جلستها المعتادة .. فاقبل الصبى وسألها فى لهفة وعجلة :

ـــ يا حاجه .. عايزين الريال اللى عليكى لابويه .

وتوجست المراة بقول الصبى ونظرت إليه فى شزر ودهش وقالت هازئة :

ـــ ريال ! ؟ إيه يا عومر !

ـــ ريال قديم .. بقية حساب الميه .

ـــ ما كانش يتعز يا خويا .

ثم رفعت يدها واشارت بكفها مفتوحسة امام وجهــه واردفت فى سخرية :

ـــ قل له ييجى ياكل به ممبار .

واحتد سيد وقال صارخا :

ـــ هو ما بيكلش ممبار .. احنا عايزين الريال .

ولم تجب امراة السوء .. بل تشاغلت باعطاء اوامر إلى صبيها « جاد » ، وصاح « سيد » فى حدة وغيظ :

ـــ احنا عايزين الريال .. هاتى الريال .

ونظرت المراة إلى « سيد » نظرة حنق وتهديد عندما رات انه بدأ يلفت نظر الزبائن بصياحه ، ونهرته قائلة :

ـــ امشى يا واد من هنا بلاش زيطه .

ولكن سيد اجاب فى عناد :

ـــ مش حامشى إلا لما آخد الريال .. هاتى الريال بقول لك .. احنا عايزينه عشان نجيب دوا لابويه .. ابويه عيان .

ـــ ما يعيا والا يتفلق .. ان شاالله حتى يموت .. انا مالى وماله .

ولم يطق « سيد » سماع قولها فاندفع بأقصى قوة وأطبق بيديه الصغيرتين على عنقها صارخا وصوته يختنق بالبكاء :

ـــ هاتي الريال يا بنت الكلب .. أن شاالله تموتي أنتي .

وذهلت المرأة من تهجم الصبي عليها وما لبثت حتى دفعته في صدره دفعة قوية طرحته أرضا .

وعلا بكاء الصبي ، ونهض من وقعته محاولا الهجوم عليها مرة ثانية ، ولكن تلقاه هذه المرة صبيها « جاد » فلطمه بيمناه لطمة قوية على صدغه ألقته أرضا ، وحاول الوقوف مرة ثانية فضربه « مشط » بقدمه فهوى إلى الأرض ، وظل كلما حاول القيام أعاده إلى الأرض ، والصبي يصرخ من فرط الألم والبكاء والعجز حتى تطوع أحد الزبائن بإنقاذه من بين براثنه .

ولم يجد « سيد » بدا من الانصراف والدمع ينهمر من عينيه وقطرات الدماء تسيل من شفتيه على جلبابه ، وقلبه يفيض بالمرارة والحقد والألم وبغض الناس .

ولم يعرف كيف يعود إلى البيت دون أن يحضر الدواء إلى أبيه ولم يعرف كيف ينتقم من « زمزم » وصبيها « جاد » ، وهو عاجز ضعيف .

وسار « سيد » يضرب على غير هدى ، ونظر إلى السماء متسائلا نفسه : أهنالك حقا يوجد رب مطلع على كل شيء ؟ قدير على كل شيء عادل رءوف رحيم ؟

ــ وهل رأى كل ما حدث وأقره . وسكت عليه .. لا .. لا .. لابد أنه سيفعل شيئا .

وأخذ عقل الصبي الباطن يجري بما يود من الله أن يفعل محاولا التنفيس من كربته وإخراج الغضب المكبوت والانتقام في أفكاره من خصمه بعد أن عجز عن الانتقام في الواقع .

اجل .. ان الله القدير الرءوف لن يرضيه هذا .. انه سينتقم له . ولكن باية وسيلة ؟ وعلى اى نمط ؟

يفعل « جاد » ما يغضب « الحاجة زمزم » .. فتسبه وتنهره وتقذفه بالشومة التي في يدها ، تصيب الشومة رأس « جاد » فيفقد أعصابه ويندفع في ثورة عنيفة هاجما على المرأة ممسكا سكينه التي يقطع بها المبار والكرشة فيدفعها في بطنها ويظل يمعن فيها التقطيع والطعن والتمزيق حتى يجعلها جثة هامدة ، ولا يكاد ينتهي من جريمته حتى تزلزل الأرض زلزالها فتهتز جدران المصمت وينقض سقفه فوق رأس « جاد » فيهشمه ويسحق جثة المرأة .

وتنهد « سيد » وأحس بالكثير من الراحة ، وهو يصل إلى هذه النتيجة من الانتقام الإلهي .

ولم لا يحدث هذا ! . أليس الله قديرا على كل شيء ؟

* * *

وفي تلك اللحظة كان المعلم شوشة يتململ قلقا ويسأل أم آمنة :

ـ هو سيد لسه ما جاش ؟

ـ لسه .

ـ هوا غايب كده ليه ؟

ـ اما اطلع بره أشوفه .. يمكن ألاقي حد من الولاد يدور عليه ويستعجله .

وخرجت العجوز إلى باب الدار ، ووقفت صامتة برهة ثم أخذت تنادي بعض الصبية من أصحاب « سيد » صائحة :

ـ يا محمود .. يا دقدق .. يا زكي .. ياولاد حد منكم يشوفه لي سيد .

ولم يجبها مجيب ، ولم تسمع ردا سوى فرقعة أتت من ورائها أعقبها دوى شديد جعلها تجثو على الأرض .

وكان شوشة يرقد في فراشه .. فسمع نفس الترقعة والدوى ، وكان الشق الذي في جدار الحمام قد اخذ يتسع ، وبدا ركن الجدار ينهار والسقف من فوقه لا يجد ما يستقر عليه فيهبط في فرقعة شديدة .

وهم شوشة بالنهوض متجها إلى باب الحجرة ولكنه سمع فرقعة فوقه ووجد بعض الحصى والاتربة تنهار من بياض سقف الحجرة وفجأة احس كان جدران الحجرة تتمايل ثم انقض عليه حجر من اعلى فتلقاه بيده واقيا منه رأسه .. وتقدم خطوة أخرى .. ليتلقى قدرا متتاليا من الحجارة تصيب رأسه وكتفيه وتصرعه أرضا .

وصرخ شوشة وأخذ يتلقى بيده الحجارة المنهارة وقد سالت الدماء من رأسه فاختلطت بالتراب والثياب وظلت الاتربة والحجارة تنهار عليه كالسيل واحس بنفسه يضيق وبالاتربة تملأ خياشيمه ، وجاهد في القيام حتى يرفع رأسه من بين الأتربة ، ولكنه احس بالعجز وشعر بالأتربة تتكاثر ، ولم يعد يبصر شيئا وتعذر عليه التنفس كأنه غريق ، وتملكه ضيق شديد وتمنى لو قتله الحجر الأول أو استطاع هو أن يخنق نفسه ، ولكنه كان عاجزا عن كل شيء إلا الارتجاف تحت الركام ، وأخيرا فقد الاحساس بكل شيء ، وانتهى العذاب .

وفي الخارج كانت صيحات العجوز تشق أجواز الفضاء وكانت ترفع يديها إلى أعلى صائحة :

— يارب .

وحاولت أن تتلمس طريقها إلى الداخل لتتفقد المريض الراقد ، ولكنها لم تكد تصل إلى الباب حتى كانت أكوام الركام والرماد والانقاض تسده بعد أن انهار ركن البيت الذي يضم دورة المياه وحجرة الصحارة وجزء من القاعة .

وتجمهر الناس وعلا الصياح والضجيج .

وكان « سيد » ما زال يضرب في الطريق ، وهو يتصور المسخط متهدما على رأس « زمزم » و « جاد » ، مستشهدا بذلك على قدرة الله

وعدله ، ومرت به سيارة الحريق ، وهى تقرع الجرس وتندفع مسرعة .. فساءل نفسه :

ـ يا ترى حصلت حريقه فين ؟

ووجد السيارة فى اتجاه بيتهم ، فحث الخطا ليتمتع بمشاهدة الحريق واطفائها .

وعندما وصل إلى قرب البيت كان الزحام قد سد منافذ درب القط ، وكانت عربة الحريق تنتظر فى خارج الدرب لعجزها عن الدخول منه لضيقه ، وأخذ الصبى يصيح متسائلا وسط الزحام ، وقد تملكه الدهش ، وهو لا يرى اثر الدخان :

ـ ايه ده ؟ إيه اللى جرى ؟ هى فين الحريقه ؟ انا مش شايف لها اثر .

وكان الناس فى شغل عن الصبى ، ولكن « المعلم شيحه » ابصره فصاح به فى جزع :

ـ تعالى يا سيد هنا .. ماتروحش البيت .. لحسن البيت اتهد .

وصاح « سيد » :

ـ اتهد .. بيتنا احنا اتهد ، وابويا ؟

وكان الجمع قد التفتوا إلى الصبى وعرفوه ، وكان بينهم « المعلم على الحمى » الذى امسك بيده وابعده عن الزحام قائلا له :

ـ تعال يا سيد .. ما تخافش تعسال .. اهم الرجساله دخلوا يطلعوه .

وكان « سيد » مذهولا .. مبهوتا .. فانساق مع الرجل ووقف واياه بجوار بقالة « المعلم شيحة » .

واخذ رجال الشرطة يبعدون المحتشدين عن البيت ويفسحون الطريق لرجال المطافى الذين اخذوا فى رفع الانقاض والبحث عن المصابين .

وبين صخب الناس وضجيجهم استطاع « سيد » أن يسمع صوت « جدته » يعلو بين الناس اشبه بانين جريح . وكان يقف وسط الزحام

أمام البقالة ، وقد أمسك بيد « المعلم على الحمى » ، ولكنه لم يكد يسمع صياح « جدته » حتى تخلص من قبضته واندفع يشق طريقه وسط الأجساد المتزاحمة حتى وصل إلى مقربة من البيت ، وكانت واجهة البيت سليمة لم يبد عليها أثر للانهيار الذى حدث فى الداخل اللهم إلا آثار الأتربة المتصاعدة من النوافذ ورجال المطافىء المتكاكئين حول البيت ، وفى داخله ، الدائبين فى حركة مستمرة .

وأبصر « سيد » « جدته » ، وقد تهالكت أمام باب البيت المواجه .. فاندفع إليها مرتميا فى أحضانها ، وضمته هى إليها فى لهفة كأنها غير مصدقة أنه قد عاد وصاحت بصوت منتحب :

ـــ أبوك يا سيد ! ..

ـــ ماله يا ستى ؟ هو فين ؟

ـــ جوه يا سيد ، وقع عليه البيت .. أنا خرجت أشوفك لما استغيبتك وقعدت أنادى على حد يدور عليك ويدويك جيت أخش سمعت صوت زى الرعد ، فضلت أصرخ وأنادى وجيت أخش أطلعه لقيت الباب مسدود بالحجارة والتراب .

وقبل أن تتم العجوز حديثها الباكى تركها الصبى واندفع فى جنون إلى باب البيت وحاول رجال المطافىء حجزه ، ولكنه أفلت منهم واندفع إلى الداخل صائحا :

ـــ أبويه .. عايز أشوفه .. آبا .. آبا .. أنت فين يابا ؟

وعندما وصل إلى الفناء وصيحاته ترن فى أجواز الفضاء فوجىء برجال المطافىء يخرجون من باب الشقة حاملين إحدى النقالات وعليها شىء مغطى ببطانيته التى يتغطى بها ، وقد أخذوا يشقون طريقهم بين الأتربة والحجارة .

واندفع الصبى فى صياحه :

ـــ آبا .. آبا .

وربت عليه أحد الرجال بعطف ، وقال له فى صوت يقطر اشفاقا :

— بس يابني بس .. قضا ربنا .. حاتعمل فيه إيه ؟

وتذكر « سيد » جثة « شحاتة » المغطاة .. التي حملها الرجال ووضعوها في الصندوق ، ولم يعودوا بها ابدا ، وتذكر الضياع بلا أمل في استرجاع ، والفقد بلا رجاء في استعادة ، وأصابته رجفة شديدة واندفع إلى الجسد المسجى على النقالة وارتمى عليه صائحا :

— آبا .. آبا .. حايودوك فين يابا .. مش حاخليك تخرج ابدا .. دول مش حايرجعوك تاني .. انا عارف .. آبا .. آبا .. رد على يابا .. انت مش فاكر انك قلت لي امبارح انك مش حاتموت أبدا ، فاكر والا مش فاكر ، آبا .. ما تخرجش والنبي يابا .

واحس الرجال الشداد الغلاظ الذين يحملون الجثة في المحنة .. بالدمع يترقرق في مآقيهم ، وهم الجافو المآقي الجسامدو الشعور المتعودون على مناظر الموت ومآسيه .

وامسك أحدهم بالصبي فأبعده عن النقالة وساروا بها في طريقهم إلى خارج البيت ، وكانت عربة الاسعاف تقف بين الزحام على مقربة من البيت ، ولكن حملة النقالة تهامسوا مع رجالها برهة عادوا بعدها بعربتهم تاركين الجثة .

وبرز بين الزحام « على الحمى » و « المعلم شيحه » وكان بيت « الحمى » أقرب البيوت إلى البيت المهدوم فصاح الرجل :

— هاتوه عندي هنا .. أوعى يا جدع انت منك له .. وسع .

ورفع الرجال الجسد بالنقالة واختفوا بها داخل بيت الحمى .

وارتمى « سيد » يتمرغ على الأرض باكيا ، فحمله أحد الرجال ووضعه في أحضان « جدته » .

وبدأ الرجال يحضرون بعض العروق الخشبية لسند جدران البيت حتى لا تنهار بقيتها .

وبدأ الزحام يخف رويدا رويدا عندما اقبل المعلم خشت وعائلته من زيارتهم ، ولم يكد يبلغهم الخبر حتى اندفعت امرأته وابنه إلى

« أم آمنة » يولولان ويبكيان .. وأخذ الرجل يضرب كفا بكف ، وقد دمعت عيناه وأخذ يصيح :

ـــ يا ساتر يا رب .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا ساتر يارب .

ووقف « على » يرقب « سيدا » مرتميا على عتبة بيت « الحمى » ، وقد أخذ ينشج باكيا .. ونظر إليه فى ذهول وتذكر القول الذى كان يعايره به هو وبقية الصبية « أبوك السقا مات » ، وأحس بحزن شديد كأنما كان هو المسئول عن كل ما حدث .

وبدا كأنما يحاول أن يرفع عبء ضميره ويحدث نفسه قائلا انه هو وزملاؤه إنما كانوا يهزلون .. وانه لم يخطر ببالهم قط ان يموت السقا حقا .. ويترك ابنه المسكين وحيدا فى الحياة بلا عائل ولا معين .

ولم يشعر إلا والدمع ينهمر من عينيه واقترب من « سيد » وضمه إليه وصاح ، وهو يهتز من البكاء :

ـــ معلهش يا سيد .. متزعلش يا سيد .. ماكنتش تصدق أبدا .. لو كنت أعرف .. ماكنتش قلت لك كده ابدا .. حقك على يا سيد .

واقبلت زوجة « على الحمى » على الجمع .. وهى تكفكف دمعها قائلة :

ـــ تعالوا يا جماعه خشوا من السكه .. تعالوا اقعدوا عندنا لغاية ما نعمل اللازم .

ومرت الليلة بين البكاء والترحم وقراءة القرآن والعزاء ، ولم يكن يمكن لأحد من أهل الدار المهدومة المبيت بها .. خشية ان يحدث انهيار آخر ، فقضت عائلة « الخشت » ليلتها عند نسيبهم « المعلم عز » .. وقضت « أم آمنة » و « سيد » ليلتهما مع الجثة فى بيت « على الحمى » .

وكانت ليلة عجيبة تلك التى مرت « بسيد » .. ليلة كانت لا تكف اثناء خلالها عن سماع النحيب والولولة آتية من كافة النواحى منبعثة من جميع الجهات .. وفى اللحظات التى كان يتمس فيها لم تكن تفارق احلامه صورة تلك الصرة المشئومة والبدلة المنحوسة .. و « شحاتة »

تارة مسجى ، وتارة يعدو راقصا .. ثم صورة أبيه يجلس فى الحمام ، ليؤكد له انه لن يموت ، وانه لن يرتدى البدلة ، ولكنه لا يلبث حتى يراه هابطا فى المغطس ، ولا يلبث حتى يرى المستحمين جميعهم يرتدون حللا مثلها ويمسكون المجامر والقماقم ثم يعدون وراءه صائحين : « أبوك السقا مات » .. فيأخذ فى رجمهم بالطوب .

وقبيل الفجر تملكه نعاس طويل استيقظ منه على اثر ضجة فى البيت وحركة ، وشاهد نفس المناظر التى شاهدها يوم أن رحل « شحاتة » عن الدار محمولا فى صندوقه ، وأبصر نفس اللوفة البيضاء الشعر ، وقد امسك بها رجل ، ثم أبصر برجل آخر يحضر نفس الصندوق الخشبى .

عجبا لهذه الدنيا ! .. ابوه حقا .. هو الذى تعد له كل تلك الإجراءات الرهيبة ؟

ابوه حقا هو الذى هدم البيت عليه .. فمزق جسده اربا ؟ وجاد ؟ والحاجة زمزم ؟ الم يهدم عليهما شىء ؟ . الم ينقض عليهما حجر ؟ . أما زالا يرتعان فى بحبوحة من السفالة والظلم والخسة والحطسة والدناءة ؟

حقا .. ان الله قدير على كل شىء .. ولكن قدرته تبدو وكأنها قد انحرفت فوضعت فى غير موضعها واتجهت اتجاها غير مطلوبه ولا متوقع ؛ او هو قدير حتى على ما يراه العبد ظلما وحتى على فعل ما لا يقبله عقل المخلوق .. وما لا يقره منطقه .. ولا ما يراه الانسان حكمة وعدلا ؟ .

لقد لطمه جاد وزمزم فدعا الله أن يظهر قدرته ويرد كيدهما ، ويهدم المسمط على رأسيهما ، ولقد اظهر الله قدرته وهدم بيتا فى نفس اللحظة التى دعاه سيد إلى ذلك ، ولكن يبدو انه أخطأ البيت ، خطأ مقصودا ، او غير مقصود .. وكانت نتيجة الخطأ ان اصابه بشر ما يمكن أن يصاب به .. لقد أخذ منه أباه .

لم ؟ ! وأين سيذهب به ؟ ! إذا كان سيأخذه إلى السماء فما حاجته به ؟ أليس هو أشد منه حاجة إليه ؟ أهو محتاج إليه لكي يصرف عليه ويضمه إليه ؟ إذا فلم صعد به إلى السماء ؟

إذا كان سيهبط به إلى باطن الأرض فأي شيء سيفيده منه ؟

وأطلق « سعيد » زفرة حارة . وعاود البكاء والنشيج وهو يبصر الصندوق يدخل إلى الحجرة التي بها أبوه . . . ثم يخرج محملا بحمله الثمين . . الضائع . . المفقود .

انتهى .

لا فائدة . . انهم يخرجون به إلى الفناء ثم إلى الطريق ، وبعد لحظة سيتحركون به . . ثم يعودون وحدهم .

لم لا يسير معهم ، حتى يبقى بجواره إلى اللحظة الأخيرة ؟

لم لا يرى الطريق الموحش . . الذي تعود أبوه السير فيه ؟

وفجأة قفز « سعيد » من جلسته التي شرد خلالها بذهنه . . وبدا كأنه نوى أمرا . ثم اندفع يعدو إلى الطريق متجها نحو بيتهم . . خائضا بين الأتربة والحجارة حتى وصل إلى حجرة المحارة . . المليئة بأكوام الأتربة المنهارة ، ولم يتعب في الحصول على بغيته . . فقد وجدها كائنة أمامه فوق المحارة كأنها تناديه : « ها أنذا » .

ومد يده فأخذ الصرة . . وأسرع بفتحها وأخرج منها البدلة ، فدس ساقيه في البنطلون الطويل المهرول ، وأدخل ذراعيه في الجاكتة الواسعة الفضفاضة ، ثم وضع الطربوش على رأسه فهبط حتى استقر على أذنيه ، وعندما هم بالخروج لمح إحدى اللافتات التي كانت معلقة على الحائط ـ اللافتة التي حاول شحاتة أن يشرحها له ـ قد وقعت على الأرض بين الأتربة ووقع بصره عليها ، فاستطاع لأول مرة قراءتها بسهولة . . وخيل إليه أنه يسمع صوت شحاتة يقرؤها ويعيد شرحها له :

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وحمل « سيد » اللافتة وطبقها ووضعها فى جيب الجاكتة ، ثم أسرع إلى الخارج ، فوجد الموكب على وشك التحرك .

وفوجيء القوم وهم يرون قزما ، يهرول فى بدلة سوداء فضفاضة وطربوش قد غطى أذنيه وكاد يغطى عينيه ، وقد اندفع يعدو حاملا القمقم ، متخذا مكانه أمام النعش .

وحدق القوم بأبصارهم فى ذلك المخلوق العجيب فإذا به سيد قد ارتدى حلة الأفندية .

وغلب القوم التأثر ، وتفجرت الدموع من مآقيهم .. واقترب المعلم خشمت من « سيد » وهو ينشج باكيا .. وأخذ يربت عليه بحنان شديد مواسيا مترفقا طالبا منه ألا يسترسل فى الحزن ، مؤكدا له أن كل أهل الدرب آباؤه ، سائلا إياه أن يبقى مع الصبية حتى يفرغ المشيعون من تشييع الجنازة .

وأزاح « سيد » الطربوش الواسع عن عينيه ، ونظر إلى الرجل وقد بدا عليه التجلد والصبر والهدوء ، والإيمان وقال فى صوت هاديء وكأنه يردد قطعة محفوظات حفظها عن ظهر قلب :

ـــ انى اود ان اكرمه .. كما اكرم سواه ... وانا لست حزينا .. انه ليس بأول أب يموت .. ولا كنت بأول يتيم يفقد أباه .. هذه أشياء تحدث كثيرا فى الحياة ، فيجب الا ننظر إليها على أنها مآس قد خصنا بها القدر ، يجب أن نعرف أن هذه هى سنة الحياة وطبيعة الأحداث فيها .. يجب الا نعتبرها مفاجأة .. بل نتقبلها بالصبر .. والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . يجب أن نصبر ونواصل السير فى الحياة لنقوم بواجبنا نحو الخالق والمخلوقات .. حتى يصيبنا قضاء الله » .

وذهل المشيعون .. ولم يملكوا سوى أن يتركوا الصبى يسير ، وبدأت الجنازة سيرها .. والصبى على رأسها .. وقد بدا عليه مظهر التجلد .. لولا دمعتان تجريان فى صمت على خديه .. ولولا

همسات كان يهمس بها إلى نفسه وكأنه يتمم بها الجزء الباقي من قطعة المحفوظات :

« بهذا أحسست بالسكينة والاستقرار ، لولا ذلك القلب الذي لا يحتمل صبرا ولا يقبل منطقا : القلب الناشج بين الضلوع الباكي في الحنايا المقطر في الصدر بدل الدمع دما » .

واستمرت الجنازة في السير ، وما زال الهاتف يهتف في نفس الصبي : « انها مسألة ترويض لا أقل ولا أكثر .. ان كل حدث على الأرض يهون بالتعود .. لقد نزلت إلى ساحة الأموات فوجدتها سخريات في سخريات » .

واشرفت الجنازة على المقابر وبدأت اجراءات للدفن ، ووقف « سيد » يرقبها وهو ذاهل شارد لا يحس بما حوله .. ولا يسمع سوى الصوت الهاتف يردد :

« كنت اشيعها في كل جنازة أسير أمامها .. وكنت أراها في كل ميت أواريه الثرى ، اني أحس بمتعة من تشييع الجنازات .. فهي تقربني إليها وتمتعني برفقتها وذكراها وتهون على نفسي مسألة الموت وتعدني لاستقباله غير وجل ولا هياب .. وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة » .

وهبط القوم بالجثة إلى باطن الأرض فواروها الثرى ثم صعدوا وحدهم ووضعوا الحجارة فوق الحفرة وسويت الأرض فعادت كما كانت .

ورجع القوم وبينهم الصبي والصندوق الفارغ .. بعد أن أفرغ حمولته في باطن الأرض فزاد ساكنو القبور ساكنا .. ونقص الأحياء حيـــا .

الأحياء !!

يا لسخرية الأرض من الحي والأحياء !

كل ما على الارض أبقى من الحي .. وبقايا الحي .. ومخلفات الحي .

كم اختال عليها من قبلنا كل مختال فخور .. وكم مشى على ظهرها مرحا كل منتفخ الاوداج مغرور .. وكم تثنت عليها الغيد وتمايلت الحور .. فأين ذهب المختال وراح المغرور .. وأين صارت الغيد والحور !

ذهبوا كلهم .. كانوا يملئون الارض ضجة وحركة .. وكانوا هم الأحياء وغيرهم عدم .. وفي غمضة عين صاروا هم العدم وغيرهم الحياة .

كل جامد في الأرض أبقى من الحي .

هذه الصخرة الجامدة أبقى على الارض من هذا الرأس الحي المفكر .. هذا الحجر الجامد الصلد اثبت في موضعه من صدر الحسناء المكتنز بالحياة .. الصائر إلى ضمور المنتهي إلى فناء . هذا الينبوع البارد الجاري في الوهاد أكثر استمرارا في التدفق من الدماء الحارة الجارية في العروق الصائرة إلى جفاف وجمود .

يا للحي التعس المسكين .. حتى قبوره ومخلفاته إلى الزوال مصيرها ، وإلى الفناء مآلها ومنتهاها .

« صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد » .

ما أوهى خيط الحياة .. وأضعف مادة الأحياء .

حي واحد .. هو الباقي القوي .. هو « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

وما أقل ما يشاء وأكثر ما لم يشأ .

الخاتمة

والصابرين في البأساء

في اليوم التالي كان سيد يتربع أمام الحنفية متخذا مكان أبيه ، وقد كسا وجهه مظاهر الجد والحزم ، واصطف القوم أمامه في صمت ورهبة وخشوع .. بلا ضجيج ولا صخب ، ولا صياح ولا ضحك ، اللهم إلا كلمة « البقية في حياتك » أو « البركة فيك » يلقونها على الصبي في تأثر وخشوع كأنهم يخاطبون شيخا كبيرا .

وفي نهاية اليوم .. حمل الصبي كيس النقود إلى مكتب الشركة بالفجالة وهناك سلم العهدة ، وسأله الصراف أن يحضر صباحا لمقابلة المدير .

وفي الصباح نظر إليه الرجل في دهشة ثم صافحه معزيا ، وأنبأه أنه سيستمر في عمل أبيه .. وأنه سيجعله خليفة على الحنفية .

ومنذ ذلك اليوم وسيد قد حل محل أبيه وظل ضيفا هو وجدته في بيت « على الحمى » حتى رممت دارهم وعادا إليها .

ومرت الأيام والصبي يسير في الحياة حاملا عبئها بجلد وصبر قائما بواجبه نحو الخالق والمخلوقات ، ولم ينس يوما ، واجبه نحو شيء عزيز .. كان يرى فيه .. صورة الغائبين ، ويشم منه عبقهما .. لم ينس يوما سقية .. المرحومة .

وماتت « أم آمنة » ، واضحى « سيد » رجلا وتزوج وانجب ولدا ، وفي كل صباح يحمل صبيه التربة الصغيرة ليسقى الشجرة العزيزة .. لتزيد ايناعا وخضرة .. بين قفر يباب كانها واحة للتذكر والوفاء .. في صحارى النسيان والقطيعة والاهمال .

وفي الكشك الخشبي جلس « سيد .. جلسته منذ ثلاثين عاما ووراءه قد علق في داخل الكشك لافتة أحالت الشمس لونها ، ولكن الكتابة ما زالت بها جلية واضحة يقرؤها كل وارد على الصنبور .

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

الفهرست

			صفحة
الإهداء			٣
المقدمة			٤
الفصل الأول	:	سارق الجوافة	٧
« الثاني	:	في قبضة زمزم	٣٠
« الثالث	:	معركة في درب القط	٥٨
« الرابع	:	مطرود من الجنة	٨٥
« الخامس	:	في الكتاب	١١٠
« السادس	:	في المولد	١٤١
« السابع	:	قهوة لفنسدية	١٧٠
« الثامن	:	استعداد لمعركة	٢٠١
« التاسع	:	قتيل الهوى	٢٣٢
« العاشر	:	على عرش المياه	٢٥٦
« الحادي عشر	:	كيف ماتت	٢٨٦
« الثاني عشر	:	لمن يموت	٣١٠
الخاتمة	:	والصابرين في البأساء	٣٣١

للمــؤلف

أطيـاف . . .	(قصص قصيرة	١٩٤٧)
نائب عزرائيل . .	(رواية	١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة .	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
خبايا الصدور . .	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
يا أمة ضـحكت .	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
اثنـا عشر رجلا	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
أرض النفاق . .	(رواية	١٩٤٩)
في موكب الهوى .	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
من العالم المجهول .	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
هذه النفوس . .	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
اني راحـلة . .	(رواية	١٩٥٠)
مبكى العشاق . .	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
بين ابو الريش وجنينة ناميـش . . .	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
اقنعيـكت . . .	(قصص قصيرة	١٩٥١)
أم رتيبة . . .	(مسرحية	١٩٥١)
هذا هو الحب . .	(قصص قصيرة	١٩٥١)
صور طبق الأصل . .	(قصص قصيرة	١٩٥١)
بين الأطـلال . .	(رواية	١٩٥٢)
السـقا مات . .	(رواية	١٩٥٢)
سمار الليالي . .	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
الشيخ زعرب . .	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
نفحة من الايمان .	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
وراء الستار . .	(مسرحية	١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
هذه الحيـاة .	(قصص قصيرة	١٩٥٣)

البحث عن جسد	رواية	١٩٥٣
جمعية قتل الزوجات	مسرحية	١٩٥٣
فديتك يا ليلى	رواية	١٩٥٣
ليلة خمر	قصص قصيرة	١٩٥٣
همسة عابرة	قصص قصيرة	١٩٥٣
رد قلبي	رواية في جزأين	١٩٥٤
ليال ودموع	قصص قصيرة	١٩٥٥
طريق العودة	رواية	١٩٥٦
أيام تمر	مقالات	١٩٥٧
من حياتي	مقالات	١٩٥٨
لطمات ولثمات	مقالات	١٩٥٩
ناديـة	رواية في جزأين	١٩٦٠
جفت الدموع	رواية في جزأين	١٩٦١
أيام مشرقة	مقالات	١٩٦١
أيام وذكريات	مقالات	١٩٦١
أيام من عمري	مقالات	١٩٦٢
ليل له آخر	رواية في جزأين	١٩٦٤
أقوى من الزمن	مسرحية	١٩٦٦
نحن لا نزرع الشوك	رواية في جزأين	١٩٦٨
لست وحدك	رواية	١٩٧٠
من وراء الغيم	مقالات	١٩٧٠
أيام عبد الناصر	مقالات	١٩٧١
ابتسامة على شفتيه	رواية	١٩٧١
طائر بين المحيطين	رحلات	١٩٧١
العمر لحظة	قصة	١٩٧٢

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع ٢٩٤٥

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

Bibliotheca Alexandrina
0294505

الثمن ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com